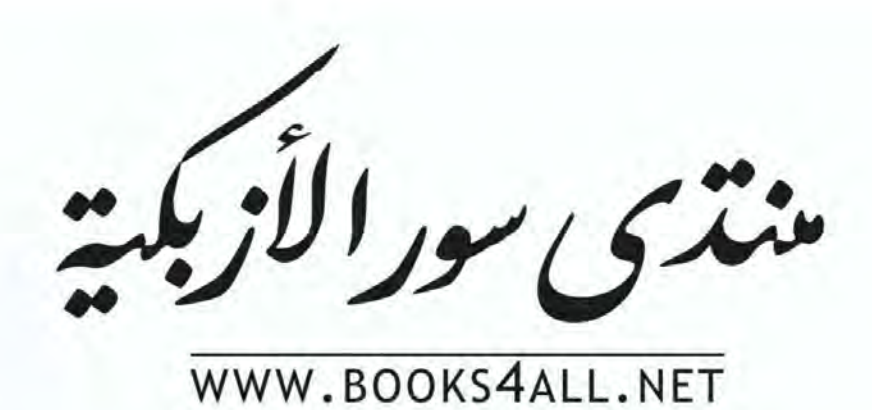

حروب
غيرت مجرى التاريخ
بكر محمد ابراهيم
M R


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

حروب غيرت مجرى التاريخ

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب : حروب غيرت مجرى التاريخ

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ١٤٠٣٠ - ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977-354-049-9

كافة الآراء الواردة فى الكتاب ليست بالضرورة تعبر عن الناشر أو مركز الراية للنشر والاعلام بل تعبر عن وجهة نظر كاتبها .

المقدمة

الحمد لله خالق السموات والأرضين رب العرش الكريم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الخلق أجمعين .

أشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين وآله الأولين والآخرين.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الصادق الأمين.

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب حروب غيرت مجرى التاريخ يحوي فصولا عن الحروب التى غيرت وجه التاريخ ومجراه وكانت من الخطورة بحيث كان لها التأثير البالغ فى مجريات التاريخ .

ومن هذه الحروب الحرب العالمية الأولى والأسباب التى أدت إلى اشتعالها ووقائع هذه الحرب ونتائجها وتأثيراتها فى مجريات أحداث التاريخ ثم سرد أحداث الحرب العالمية الثانية وأسبابها ونتائجها وآثارها .

وحرب فلسطين وكيف خاضتها مصر والدول العربية فى ظروف الاحتلال الأوروبى وتآمر الدول العظمى على هزيمة العرب وانتصار إسرائيل .

وحرب الاستنزاف بين مصر وإسرائيل ، والحرب بين صدام وإيران والحرب الأهلية الأمريكية التى راح ضحيتها مئات الألوف من القتلى وأدت وحدة الولايات المتحدة .

والحرب بين أمريكا واليابان واسقاط القنابل الذرية على مدينتى هيروشيما ونجازاكى ، وحرب البوسنة والهرسك ومجازر الصرب للمسلمين وحرب ٥ يونيو

وحرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بين مصر وإسرائيل والحروب الصليبية بين دول أوربا ومصر والشام وحروب محمد على وأولاده مع السعوديين واليونان والعثمانيين والحروب فى السودان وغيرها من الحروب الخطيرة .

نفع الله به والحمد لله أولاً وأخراً .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

الباب الأول :

الفصل الأول

زعماء الحق .. وبارونات الشر !(١)

كان البشر يكرهون الحرب .. إلا قليلا.. فهى خيار سياسى حتمى ولا فرار منه فى أوقات كثيرة .. حين يدافع أصحاب الحق عن حقهم، وعن أنفسهم، وعن أرضهم. وهى خيار جنونى يفرضه عدد من مجانين العظمة حين يملكون قيادة الأمور فى دولهم ويصبح زناد السلاح تحت أمرهم، فيحصد العالم الدمار والشر.

أدولف هتلر وإرييل شارون وصدام حسين وميلوسوفيتش وعشرات غيرهم.. نماذج من الأشخاص الذين دفعوا العالم إلى الخراب.. كل منهم كانت لديه أطماعه غير المبررة وأحلام لا يستحقونها. وكل منهم - إلا قليلا- كانت تسانده نظرة تعالٍ وعنصرية حمقاء .. يؤمن أنه الوحيد الذى يرى الحقيقة وأن على الجميع الرضوخ، وفى النهاية يلقى بهم التاريخ فى غياهب اللعنة.

الرئيس مبارك والرئيس السادات ونستون تشرشل وايزنهاور وعشرات غيرهم .. نماذج من القيادات التى خاضت الحرب من أجل الحق.. ردا للعدوان وتحريرا للأرض واستعادة لحق سليب، كل منهم كانت لديه مطالب قومية ومساندة شعبية وحقوق شرعية. ويؤمنون بأنهم معبرون عن طموحات الأمم، ولا يرفعون السلاح إلا حين لم يكن هناك حل آخر.

وفى مثل هذه اللحظات الحاسمة التى نعيشها من الضرورى أن نستوعب الدروس التى فرضها الصراع بين الحق والشر، بين الخير والعدوان، ففى فترات

---

(١) روزاليوسف ٢٦/١٠/٢٠٠١ بتصرف.

عديدة لم يكن هناك مفر من الحرب وفى نهاية كل صراع هائل وكبير. دائما ما يحدث تغيير فى العالم وتتعدل الخرائط ويعاد توازن القوى

هذا الملف الذى نقدمه فى هذا الكتاب يقول الكثير حول هذا، ولكن أهم نقطة يمكن الانتباه لها من خلال مراجعة الأحداث هى أن الأمة العربية كانت طوال القرن الماضى مسرحا لحروب عديدة. من الحرب العالمية الأولى إلى الثانية إلى حرب الخليج والحروب العربية الإسرائيلية وحتى حرب أفغانستان تلقى بظلالها علينا.

نهاية أربع إمبراطوريات(١)

- إحصاءات مهمة ٦٥ مليونا حاربوا و٤٥ مليونا صنعوا السلاح و٢٦ مليونا قتلوا !

- الشرارة الأولى · اغتيال ولى عهد النمسا وزوجته على يد طالب صربى فى«سراييفو»

- تحالفات سرية وعلنية . ألمانيا والنمسا وتركيا والمجر. أمام فرنسا وروسياوبريطانيا

- سيناء: ميدان قتال إجبارى للمعارك بين الجانبين بدون إرادة المصريين

يبدو أن هناك ارتباطا من نوع ما بين بداية قرن جديد واشتعال حرب كبرى، وما نشاهده اليوم من أحداث، سبق أن عايشها أجدادنا فى مطلع القرن العشرين حين اندلعت الحرب العالمية الأولي

فعلى الرغم من انعقاد مؤتمر السلام الدولى فى لاهاى عام ١٨٩٩، باعثا وقتها على التفاؤل بقرن جديد من السلام يتأسس على قرارات لنزع السلاح، وإقامة محكمة دائمة لتسوية الصراعات الدولية بالوسائل السلمية. ثم اجتماع

(١) لواء أ. ح. متقاعد عبد المنعم كاطو

المتابعة فى عام ١٩٠٧ الذى نجح فى وضع قواعد لشنون الحرب، إلا أن نبوءة «الفريد نوبل» الذى اخترع الديناميت عام ١٨٦٧ قد تحققت «فى أن القوة التدميرية لتلك المتفجرات، والأسلحة الأخرى الجديده جعلت من الحرب أمرا لا يمكن استبعاد التفكير فيه»

وتلك حقيقة علميه، حيث أن الكثير من الأسلحة كانت قد اخترعت فى حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى، ومنها الطائرات «عام ١٩٠٣» بفضل الأخوان «رايت» واستخدمت فعلا فى الحرب العالمية الأولى، والدبابات التى صمم فكرتها الجنرال «ارنست دانلوب سوينتون» وظهرت فى انجلترا لأول مرة عام ١٩١٥. والغواصات التى صممها «جون فيليب هولند» عام ١٨٩٨، وكان أول من امتلكها هو السلاح البحرى الأمريكى. وأكثر من استخدمها فى الحرب العالمية الأولى هم الألمان. وكانت الغارات الحربية ممثلة فى غاز الكلور، هى الأولى من نوعها التى استخدمت فى تلك الحرب

إلى جانب ذلك، كان هناك تطور كبير فى أسلحة سبق استخدامها مثل المدفعية، حيث ظهر مدفع «الهاوتزر» لأول مرة وتطورت الأعيرة إلى الأكبر، وكانت هناك طفرة فى تطوير المركبات بأنواعها

استنزاف العالم :

الحرب العالمية الأولى كانت حدا فاصلا بين ما قبلها وما بعدها، واستنزفت جهود العالم أجمع، وكان إجمالى الجنود الذين تمت تعبئتهم لخوضها حوالى ٦٥مليون رجل، كما شارك ما لا يقل عن ٤٥ مليونا من البشر فى تصنيع السلاح وراح ضحية تلك الحرب حوالى ٣٦ مليون من البشر نصفهم من المدنيين، كما كانت أعداد الجرحى هى ضعف هذا الرقم تقريبا

أما اقتصاد الدول فقد عانى الكثير حيث دمر ٢٠٪ من اقتصاد روسيا

القيصرية، ١٣٪ من اقتصاد ألمانيا، ٧٪ من اقتصاد فرنسا، ٣٪ من اقتصاد المملكة المتحدة.

نوضح بداية أن الأسباب الرئيسية لتلك الحرب، هى نمو النزعة القومية فى أوروبا، والصراع السياسى والاستعمارى ما بين الدول الكبرى، التى كانت فى تلك المرحلة تتحدد فى الإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية النمساوية / الهنجارية، والإمبراطورية العثمانية، وروسيا القيصرية، إلى جانب فرنسا وبريطانيا وايطاليا «كقوى عظمى» وغيرها.

فى ذاك الحين كانت تتراكم فى الوضع السياسى الأوروبى المواد القابلة للالتهاب تدريجيا على مدى سنوات، وهى مواد كان يصنعها الجميع، دون الإشارة إلى دولة ما، فالوثائق أثبتت أن ألمانيا القيصرية «التى اتهمت باشعال الحرب» لم تكن قد أعدت العدة لهذه الحرب، ولا كانت راغبة فيها، بل إنها أجبرت عليها، وأن سياسة «بسمارك» كانت ترمى إلى تطويق فرنسا فقط حتى لا تستطيع الثأر لهزيمتها عام ١٨٧٠، واستعادة إقليمى «الألزاس واللورين».

ونتيجة الحرب البلقانية التى اشتعلت فى بداية القرن، أن تنبهت الدول الأوروبية إلى الأخطار المحدقة بها، فتسابقت إلى زيادة وتكثيف قدرة جيوشها، وهكذا فقد زادت ألمانيا جيشها ليصل إلى أربعة ملايين، وفرضت على الشعب الألمانى جمع ٥٠ مليون مارك كاعتمادات إضافية لتعزيز قواتها المسلحة، ونهجت فرنسا مثلها، كما استدانت روسيا مائة مليون فرنك من فرنسا لإنشاء بنية أساسية تدعم جهودها فى الحرب.

معسكران متناحران:

أما النمسا فقد أثار انتصار الصرب فى الحرب البلقانية مخاوفها، وأصبحت هناك عقيدة تتلخص فى أن تمزيق صربيا هو السبيل الوحيد لتأمين النمسا.

أما الإمبراطورية العثمانية، فقد عمدت إلى استقدام خبراء عسكريين من ألمانيا، ليس لتدريب الجيش التركى فقط، بل أصبح الجنرال الألمانى «ليمان سندرس» مستشارا للجيش التركى، ويقود فيلق الأستانة «فى الخفاء».

وبنظرة عامة يمكن الإشارة إلى سببين سياسيين بارزين أديا إلى إشعال هذه الحرب. أولهما هو نظام التحالفات السرية الذى قسم أوروبا إلى فريقين من الدول، أخذ كل فريق يتربص بالآخر، مما جعل احتمالات الحرب هى السائدة، وقد كانت دول كل فريق تشعر بالتزاماتها بمساعدة حلفائها، فكانت ألمانيا تشعر أنها ملزمة بتأييد النمسا والمجر، بينما تشعر فرنسا وروسيا بالالتزام المتبادل فيما بينهما، وكانت بريطانيا تؤمن بمساندتهما.

أما السبب الثانى فكان الاستعمار الاقتصادى الذى تصاعد من خلال منافسات دولية، نشأت معظمها عن الثورة الصناعية فى بريطانيا، وأدت إلى إنتاج كميات كبيرة من السلع تطلبت إيجاد أسواق لتصريفها.

مع تنافس على استقطاب استعمار الدول التى تنتج المواد الخام، وقد أدى ذلك إلى أن خضعت المنطقة من وسط وجنوب شرق أسيا إلى أفريقيا بالكامل تقريبا إلى الاستعمار الغربى، ومن بينها مجموعة الدول العربية حيث كانت دول المشرق العربى تخضع للاستعمار العثمانى، بينما تسيطر بريطانيا على إمارات ودول ساحل الخليج، علاوة على مصر وتسيطر فرنسا على دول المغرب العربى.

أما المعسكران المتناحران فى أوروبا، فكان الأول يطلق على نفسه «التحالف الثلاثى» «ألمانيا والنمسا والمجر وايطاليا» التى تركت هذا الحلف وانضمت إلى الحلف الآخر أثناء الحرب. والثانى المكون من فرنسا وانجلترا وروسيا، حلف الوسط» وتوالى انضمام الدول الأخرى إلى الحلفين مع اشتعال الحرب

الشعب جيش :

أما الوضع العسكرى فى أوروبا فكان يتأرجح ما بين التوازن أو التفوق لبعض الدول على بعضها.. وما يهمنا أن ألمانيا القيصرية كانت تتبنى سياسة «كل الشعب جيش» بحيث تتضافر جهود كل المواطنين نحو الهدف العسكرى الواحد، وكانت للقادة الألمان خططهم لشحذ الهمم وتوحيد الصفوف، وخلقوا فى نفوس المواطنين والجنود العنفوان الجرمانى، ليحاربوا بإيمان واقتناع وعن عقيدة.

وكانت هناك خطة موضوعة منذ عام ١٩٠٥ بواسطة القائد الألمانى العظيم «المارشال شليفن» والذى كان يشغل رئيس أركان القوات الألمانية، لغزو فرنسا عن طريق حركة التفاف واسعة النطاق عبر بلجيكا ولوكسمبرج، مع بقاء قوات محدودة لتأمين الجبهة الألمانية مع روسيا، حتى إذا انتهى الجيش الألمانى من الاستيلاء على فرنسا، توجه مباشرة إلى روسيا.

وكانت القوات الفرنسية تقدر بحوالى ٦٠٪ من حجم القوات الألمانية، إلا أن فرنسا عبأت جهودها لتكوين جيش يتوازى مع ألمانيا تعداده حوالى أربعة ملايين رجل، كما كانت القوات الروسية على نفس الحجم تقريبا، إلا أن مستوى تسليحها كان أقل وقدرة القادة العسكريين لم تكن على نفس كفاءة الألمان، أما بريطانيا فكان اهتمامها الأكبر ينصب على أساطيلها البحرية ومجالها الجوى، وقدرتها على تجنيد أفراد من مستعمراتها لتنفيذ مهام قتالية لصالحها.

اغتيال الأمير :

كانت الشرارة الأولى التى أدت إلى اندلاع الحرب هى اغتيال ولى عهد النمسا «فرانز فردينان» وزوجته فى مدينة «سراييفو» على يد طالب صربى يدعى «غافريلو برنسيب» فى الثامن والعشرين من يونيو ١٩١٤، أعقبه توجيه

إنذار نمساوى إلى «صربيا» فى الثالث والعشرين من يوليو ١٩١٤ للسماح لبعثة قضائية نمساوية للدخول إلى صربيا للإشراف على التحقيق، بالإضافة إلى مطالب أخرى.

وتحددت مدة الإنذار بثمان وأربعين ساعة، لم تستجب بنهايتها صربيا إلى الإنذار مما أدى إلى إعلان النمسا الحرب عليها فى ٣١ يوليو ١٩١٤، ثم توالى إعلان الحروب تباعا بعد ذلك ، فبمجرد إعلان روسيا التعبئة العامة، قامت ألمانيا بشن الحرب عليها فى الأول من أغسطس ١٩١٤، ثم أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا فى الثالث من نفس الشهر، وبالتالى حاربت على جبهتين قويتين فى وقت واحد بخلاف خطة «شليفن» التى وضعها منذ عام ١٩٠٥، مما أدى إلى تقليص القوى الموجهة إلى فرنسا بمقدار ٢٠٪ على الأقل.

فى نفس الوقت فقد أخطأ الجنرال «مولتكه الأصغر» رئيس أركان الجيش الألمانى، عندما وجه إنذارا لبلجيكا بمرور قواته عبرها لمهاجمة فرنسا، حيث رفضت، وقاومت التحركات الألمانية، مما أفقد الحملة سرعتها وتوازنها، حيث اضطر الجنرال «مولتكه» لمهاجمة بلجيكا أولا من خلال خمسة محاور اعتبارا من الخامس من أغسطس والتى لم تتمكن من الصمود أمام جحافل الألمان. والذين تمكنوا من احتلال بروكسل العاصمة فى ٢٠ أغسطس، على الرغم من اشتراك الجيش الخامس الفرنسى فى المعارك لإيقاف تقدم الألمان.

وكذلك إعلان المملكة المتحدة الحرب فى الرابع من أغسطس. ومساندتها لكل من بلجيكا وفرنسا، ونقلها لقوات تقدر بحوالى سبعين ألفا عبر بحر المانش للتصدى للغزو الألمانى، حيث لم تنجح الدول الثلاث «بلجيكا وفرنسا وانجلترا» فى مجابهة الاندفاع الألمانى الذى وصل إلى باريس مع مطلع شهر سبتمبر وتجاوزها، وقرر عدم احتلالها نظرا لأن السلطات الفرنسية كانت قد أخلتها بما يوحى أنها مستعدة لإدارة معركة من خلالها تستنزف جهود الألمان.

الهجوم النمساوى :

اعتبارا من إعلان الحرب فى ٢٨ يوليو ١٩١٤، تقدمت ثلاثة جيوش نمساوية لتخترق الحدود الصربية، إلا أنها توقفت نتيجة للمقاومات الصربية، وكنتيجة لاشتعال الحرب على الجبهة الروسية النمساوية، وبالتالى فقد أخطأت النمسا أيضا فى الحرب على جبهتين فى وقت واحد، إلا أن القوات النمساوية حشدت قوات على جبهة الصرب تقدر بحوالى ٣٠٠ ألف مقاتل، وأدى ذلك إلى اكتساح المقاومة الصربية اعتبارا من الثالث من شهر اكتوبر، ووصلت إلى بلجراد العاصمة، والتى لم تستمر فيها سوى شهرين، حيث قام الصرب بهجوم مضاد أدى إلى ارتداد القوات النمساوية بعد أن خسرت حوالى ١٠٠ ألف قتيل.

وبدأت القوات الروسية الهجوم فى أوائل شهر أغسطس ١٩١٤ بجيشين بإجمالى عدد يقارب الـ ٥٠٠ ألف جندى، على الجيش الألمانى فى الجبهة الروسية، وكان من الطبيعى أن تحرز القوات الروسية انتصارا أدى إلى تراجع القوات الألمانية.

فجوة بين جيشين !

وحسما للموقف قد قام المارشال الألمانى «مولتكه» بعزل قائد الجيش الثامن واستقدم الجنرال المتقاعد «هندنبرغ» الذى كان قد ذاع صيته فى حرب عام ١٨٧٠، وأسند إليه القيادة، وتم حشد حوالى ١٥٠ ألف جندى ألمانى واستقدمت جميع المدافع التى يمكن استخدامها، واستغل القائد الجديد الفجوة بين الجيشين الروسيين، فشن هجوما فى السابع والعشرين من أغسطس على الجيش الثانى الروسى، وتمكن من تدمير أربعة أخماسه فى معركة «تاننبرج» ثم التف إلى الجيش الروسى الأول، والذى لم يكن يشعر بالمعركة ضد الجيش

الثانى، وكانت الخطة الألمانية تقضى بدفع هذا الجيش نحو البحيرات المازورية تمهيدا لسحقها، ونجحت الخطة، ولكن تمكن القائد الروسى من سحب معظم قواته، ووقايتها من التدمير، ثم تابع الألمان تقدمهم شرقا حتى تسنى لهم طرد الجيوش الروسية من بروسيا الشرقية، ثم حاول الألمان مساعدة قوات النمسا بالهجوم على بولونيا، إلا أن المعارك بينهم وبين الروس تراوحت ما بين هزيمة ونصر، واستمرت على هذا الحال حتى عام ١٩١٥، والذى شهد ثلاثة تطورات رئيسية.

الأول هو إغراق غواصة ألمانية للباخرة الأمريكية «لوزيتانيا» وعلى متنها ألفا راكب مدنى، مما حمل الولايات المتحدة على زيادة مساعدتها للحلف الغربى ثم دخول الحرب فعلا فى الثانى من ابريل عام ١٩١٧.

والثانى هو دخول ايطاليا الحرب مع الحلفاء الغربيين اعتبارا من ٢٠ مايو ١٩١٥، مما أعطى دفعة جديدة على جانب التحالف الغربى.

والثالث هو معاودة القوات الألمانية الهجوم بالتنسيق مع النمسا، وبلغاريا التى دخلت الحرب، وبدأت أولى المعارك الكبرى المشتركة فى التاسع من اكتوبر ١٩١٥، لطرد الجيوش الروسية من النمسا.

الحرب فى سيناء:

كانت مصر فى تلك الفترة تعتبر -اسما- مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية العثمانية، بينما كان الواقع أنها تحت السيطرة البريطانية، والتى أعلنت الحماية على مصر مع بداية الحرب.. وقد أدى التحالف التركى الألمانى إلى فتح جبهة جديدة على الساحل الشمالى الشرقى الأفريقى، باستخدام الجيش الرابع التركى الذى يقوده «أحمد جمال باشا» وقوامه حوالى ستين ألفا، ومقر قيادته فى دمشق ، وكانت خطة جمال باشا تهدف إلى إنهاء الاحتلال البريطانى، اعتمادا على تجاوب الشعب المصرى

أما خطته العسكرية فتنحصر فى الاستيلاء على الإسماعيلية، وإغراق عدة سفن فى القناة، ثم يقتحم مصر ويطرد الإنجليز.. وبعد استعدادات كاملة تقدم «الفيلق الثامن بقيادة جمال باشا الصغير» ويضم حوالى عشرين ألفا من المقاتلين عبر سيناء على محورين العريش/القنطرة، والعوجة/ الاسماعيلية وذلك لتضليل الإنجليز عن اتجاه الهجوم الرئيسى.

وفى الثالث من فبراير ١٩١٥ بدأ الإنزال التركى لعبور القناة جنوب الاسماعيلية، استغلال جو عاصف من أجل الخداع، إلا أن الجيش الإنجليزى بالتعاون مع القوات العسكرية المصرية لم يمكن القوات التركية من العبور، حيث اشتركت الأورطة الثانية المشاة المصرية فى الدفاع على طول المنطقة سوسون/ مريم.

كما اشتركت البطارية الخامسة مدفعية لصد هذا الهجوم.. وقد نجح أفراد معدودون من الأتراك فى العبور، حيث تم أسرهم، وانسحبت القوات التركية من حيث أتت، وشرعت فى التخطيط لهجوم جديد، وأمر جمال باشا بمد سكك حديدية عبر سيناء وتدريب قواته، إلا أن هذا الهجوم لم يتم.

نتائج الحرب!

١- أدت هذه الحرب إلى تغيرات جذرية فى خريطة أوروبا السياسية، حيث اختفت من الخريطة أربع إمبراطوريات، ألمانيا والنمسا وروسيا والإمبراطورية العثمانية»، وظهرت على الخريطة السياسية العديد من الدول الجديدة مثل فنلندا وجمهوريات البلطيق. وغيرها.

٢- على مستوى الشرق الأوسط، كانت بريطانيا وفرنسا لهما السبق فى تحديد الرؤية لهذه المنطقة فى أعقاب هزيمة تركيا، لذلك فقد انتدبت بريطانيا السير «مارك سايكس» وانتدبت فرنسا «جورج بيكو» لوضع تفاصيل ضم

مناطق النفوذ، حيث وقع اتفاق «سايكس/ بيكو» فى ١٦ مايو ١٩١٦ ليحدد تبعية الدول العربية لكل من بريطانيا وفرنسا، وقد تم تعديل هذا الاتفاق طبقا لاتفاق لندن فى ١٥ سبتمبر ١٩١٩، حيث نالت فرنسا نصيبها فى سوريا ولبنان والمغرب العربى، بينما سيطرت بريطانيا على باقى هذه الدول، ثم عقد بعد ذلك مؤتمر سان ريمو لبحث مستقبل وضع تلك الدول تحت الانتداب البريطانى والفرنسى، وتم إقرار ذلك فى ٢٣ ابريل ١٩٢٠.

٣- ظهرت عصبة الأمم المتحدة كمنظمة عالمية بهدف الحفاظ على السلام العالمى، وتعزيز التعاون الدولى عام ١٩٢٠، وكان إجمالى أعضائها ٤٢ دولة، زادت فيما بعد إلى ٦٣دولة.

وعلى الرغم من أن الرئيس ولسون كان أبرز الداعين لإنشائها، إلا أن الولايات المتحدة لم تنضم إليها.

٤- أدت هذه الحرب إلى تفجير المشاعر ضد الاستعمار، حيث قامت ثورات فى سوريا أعوام ١٩١٦، ١٩١٩، ١٩٢٥ تنادى بالتحرر.. وقامت ثورة الحجاز عام ١٩١٦، التى أنهت الاحتلال التركى.. وقامت ثورة ١٩١٩ فى مصر، التى أدت إلى إعلان استقلال مصر فى عام ١٩٢٢، وقامت أيضا ثورة المغرب العربى عام ١٩٢١

وهكذا كانت الحرب العالمية الأولى حدثا عظيما فى مطلع القرن العشرين، أعقبتها حرب ثانية عام ١٩٣٩، ومن بعدها أدركت أوروبا أن صيغة الحرب لا يجب أن تستمر على أرضها، ووجهت كل جهودها للتنمية، وتوجيه آلة الحرب للآخرين خارج القارة الأوروبية.

الفصل الثانى

حلم «دولة الألف سنة»

انهار فى ست سنوات ! (١)

- ألمانيا : احتلت بولندا ويوغوسلافيا واليونان وفرنسا والنمسا والنرويج والدنمارك.

- الاتحاد السوفيتى : اقتسم بولندا مع ألمانيا وصد هجوم هتلر على موسكو ثم دمره فى كل أوروبا.

- بريطانيا: تنفيذ أكبر عملية انسحاب فى التاريخ وهزيمة لألمانيا وايطاليا فى معركة العلمين !

- أمريكا : غارات «بيرل هاربر» اليابانية أدت إلى استخدام السلاح النووى لأول مرة على اليابان !

الدرس الأول الذى تلخصه الحرب العالمية الثانية هو أن هناك خطا أحمر لا يجب أن يتعداه المجتمع الدولى فى الضغط على ما تعتبره الشعوب حدا أدنى لحقوقها. إن هذا يؤدى إلى نتائج عكسية قد تضر المجتمع الدولى كله. وقد ضغطت القوى الكبرى على ألمانيا وشعبها باعتباره منهزما فى الحرب العالمية الأولى.. وكان أن استفادت من ذلك الاتجاهات العنصرية فشحنت الشعب الألمانى بالحقد والضغينة وبدأت الحرب من هذه النقطة.

حلم دولة الألف سنة انهار .. فى ست سنوات !

لقد بدأت الحرب العالمية الثانية كنزاع محدد فى أوروبا الشرقية، لكنه لم يلبث أن اتسع لكى يندمج مع نزاع آخركان قد نشب فى الشرق الأقصى،

---

(١) لواء دكتور. عبد الرحمن الهوارى.

ويشمل العالم كله فى حرب مروعة، ولم يقتصر الاشتراك فى هذه الحرب على القوى الكبرى فقط، ولكنه تعداه إلى اشتراك دول أخرى لها مصالح سواء مع هذا الجانب أو ذاك.

وفى الحقيقة أن الحرب لم تنشب فجأة، ولكن كانت هناك عدة تطورات ساهمت بالتعجيل فى نشوبها، مثل الأعمال التى قامت بها اليابان فى الصين، وما قام به الفاشيون الايطاليون فى أثيوبيا، وما قام به الألمان فى وسط وشرق أوروبا، خاصة بعد فشل «عصبة الأمم» فى أن تكبح جماح المعتدى.

ومعى مجىء أدولف هتلر إلى قمة القيادة فى ألمانيا، بدأ السعى نحو تخليص المانيا من القيود التى فرضت عليها فى معاهدة فرساليا، ثم اتبع ذلك بخطوة جريئة ألغى فيها المعاهدة من جانب واحد وأخرج ألمانيا من عصبة الأمم عام ١٩٣٣، ثم شرع فى تنفيذ برنامج طموح لإعادة بناء قواته المسلحة. وفى عام ١٩٣٥ أصبح هتلر يمتلك جيشا من أحدث طراز عالمى تمهيدا لتحقيق حلمه فى أن يبنى دولة المانية تستمر ألف سنة.

ولم يضيع هتلر وقتا بعد نجاحه فى غزو النمسا وأخذ فى تحريك الشعور الألمانى العام تجاه قضية الألمان التشيك الذين كانوا يعيشون فى جيوب متناثرة فى غرب تشيكوسلوفاكيا، واستغل الإجراءات التعسفية التى اتخذتها الحكومة التشيكية ضدهم، وأعلن أنهم يمثلون أقلية مضطهدة.

الحرب الخاطفة :

بعد الأعمال الهجومية التى شنتها القوات الألمانية على أراضى الدول المجاورة، كان الكل فى أوروبا يتمنون أن تقف هذه القوات عند هذا الحد وتتوقف الأطماع الألمانية، ولكن فى الأول من سبتمبر ١٩٣٩ قامت القوات الألمانية بغزو بولندا مستخدمة أسلوب الحرب الخاطفة.

وإزاء تطور الموقف وخطورته قامت كل من بريطانيا وفرنسا «دولتى التحالف» بإعلان الحرب على ألمانيا فى اليوم الثالث من الغزو . وفى ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ أى بعد بداية الغزو بأسبوعين قامت القوات السوفيتية بالتوغل داخل الأراضى البولدنية. وفى هدوء قام كل من هتلر وستالين باقتسام بولندا .

ترتب على هذا ظهور حالة غريبة فى أوروبا الغربية عرفت باسم حالة الحرب الزائفة. فقد اقترح هتلر إقامة مؤتمر للسلام، ولكن هذا الاقتراح تم رفضه على الفور.

ثم استغل الجميع حالة الهدوء الحذر التى سادت أوروبا فى إعداد قواتها عسكريا وبينما الأوضاع كذلك وجه هتلر أنظاره تجاه شبه جزيرة اسكندنافيا «السويد والنرويج». من منطلق أن السيطرة عليها سوف توفر له القواعد الجوية اللازمة لمهاجمة بريطانيا، ومن الموانىء البحرية الاسكندنافية يمكن لأسطول الغواصات الألمانى أن يقوم بالعمل فى حرية داخل مياه الأطلسى. وكذلك يمكن أن يوفر الإمكانيات الغذائية والمخزون الطبيعى من خام الحديد من أجل إنتاج الأسلحة والمعدات الحربية الأخرى.

على المستوى السياسى أدت هذه الأحداث إلى سقوط الحكومة البريطانية، وتولى تشرشل رئاسة الوزارة البريطانية.

الخطوة التالية :

كانت البلاد المنخفضة «هولندا- بلجيكا- لوكسمبورج» هى الخطوة التالية فى مخطط هتلر «الطموح». ولم يكن احتلال هذه الدول يوفر مصادر صناعية فحسب لهتلر.. ولكنه يوفر أيضا قواعد متقدمة لتهديد كل من فرنسا وبريطانيا، ومن ثم الالتفاف على الخط الدفاعى الحصين «خط ماجينو» الذى أقامته فرنسا ويسير محاذيا لخط نهر الراين، ثم يتجه شمالا إلى نقطة قرب الحدود البلجيكية.

وفى ١٠ مايو ١٩٤٠، تقدمت القوات الألمانية داخل الأراضى المنخفضة واحتلت لوكسمبورج التى تفتقر إلى القوات العسكرية، أما هولندا وبلجيكا فقد قاومتا الهجوم وقامتا بتلغيم الأراضى والكبارى واغراق المناطق المفتوحة بالمياه، ولكن كان التفوق العسكرى فى صالح ألمانيا.

شتاء عام ١٩٣٩- ١٩٤٠ شهد مواجهة بالغة العنف بين الجيش الفرنسى والجيش الألمانى، ولكنها لم تكن مواجهة من النوع المألوف وسميت «الحرب من الوضع جالسا». وانتظر العالم أن ينشب صراع كبير بين القوتين الكبيرتين ولكن الحقيقة أن موقف ألمانيا أكثر قوة وخبرة. وكانت القيادة الألمانية تعمل بالفعل من أجل الإعداد لغزو فرنسا، بينما كانت القيادة الفرنسية على اعتقادها الجازم أن خط ماجينو كاف تماما لايقاف أى زحف ألمانى على فرنسا. وبدأت الكفة تميل لألمانيا عندما تمكنت قواتها من إقامة جسر عند سيدان فى ١٣ مايو ١٩٤٠ كان بمثابة الطريق لاجتياح فرنسا.

وفى ٢٢ يونيو وقعت اتفاقية الهدنة بين ألمانيا وفرنسا وسط ذهول العالم أجمع، وبما أتاح لها - أى القوات الألمانية - أن تستكمل احتلال معظم فرنسا وأن تشكل حكومة فرنسية موالية لألمانيا.

فى الوقت نفسه قامت بريطانيا بدفع ٨٥٠ قطعة بحرية من جميع الأنواع مع تأمينها بطائرات القوات الجوية الملكية. وتمكن الأسطول البريطانى من إخلاء ٣٣٨ ألف مقاتل من القوات البريطانية والفرنسية والبلجيكية إلى الجزر الإنجليزية واستمرت هذه العملية من ٢٦ مايو إلى ١٤ يونيو واعتبرت من أنجح عمليات الانسحاب فى التاريخ، نتج عنها انقاذ مئات الألوف من أفضل قوات الحلفاء والتى أعدت لمعارك المستقبل ضد ألمانيا.

معركة بريطانيا :

عندما عرض هتلر مقترحاته للسلام فى يوليو ١٩٤٠، ارتكبت بريطانيا خطأ كلفها الكثير، حيث تجاهلت هذه المقترحات ولم تلق بالا إليها، فما كان من سلاح الجو الألمانى إلا أن قام بمهاجمة الموانىء والمطارات والمناطق الصناعية البريطانية والعاصمة لندن بجميع أنواع الطائرات المحملة بكافة أنواع القنابل. كان الهدف من ذلك هو سحق الروح المعنوية البريطانية والقضاء على القوات الجوية البريطانية بتنفيذ هجمة الشر. وقد سبقت تنفيذ هذه العملية مرحلة مهمة من أعمال قتال البحرية الألمانية ضد بريطانيا.

وتعتبر معركة بريطانيا هى أول حملة جوية كبرى فى التاريخ تعرضت خلالها العاصمة البريطانية لندن ولمدة ٧٥ ليلة متصلة لهجمات القاذفات الألمانية بمعدل ١٦٠ طلقة قاذفة فى الليلة، ولكن سلاح الجو البريطانى استطاع أن يدمر ما يزيد على ١٧٠٠ طائرة ألمانية، بينما لم تفقد بريطانيا سوى ٩١٥ طائرة فقط. ولم يكن بوسع القوات الجوية الألمانية أن تتحمل مثل هذا النزيف المستمر لفترة طويلة، فكانت النتيجة أن اتخذ هتلر قرار تأجيل عملية «سبع البحر» لغزو بريطانيا. وفى اكتوبر ١٩٤٠ تخلى الألمان عن الغارات الجوية النهارية الشاملة على لندن. وخسر هتلر معركة بريطانيا فتحول لتنفيذ مخطط آخر للغزو وبدأ التركيز على مهاجمة روسيا فى ٢٢ يونيو ١٩٤١.

دعم هتلر قواته العسكرية خلال خريف وشتاء ١٩٤٠ وأرغم المجر ورومانيا على الانضمام له استعدادا للحملة القادمة على الاتحاد السوفيتى. واضطر هتلر للتدخل لإنقاذ ورفع معنويات قوات الدوتشى الايطالية التى باتت فى وضع سيىء. وحفاظا على جناح قواته الجنوبى قبل الانقضاض على روسيا، ولكى يسيطر هتلر على اليونان بسرعة. بادر إلى إغراء يوغسلافيا بالانضمام إلى بلدان المحور بأن تعهد لها بالحفاظ على حدودها وتسليمها مرفأ سالونيك اليونانى.

وبالفعل وقعت المانيا اتفاقية فى ٢٥ مارس ١٩٤١ مع الحكومة اليوغسلافيا، ولكنها ألغيت من جانب يوغسلافيا بعد حدوث انقلاب عسكرى فيها بعد يومين.. ومن ثم قرر هتلر غزو يوغسلافيا، فعبأ لها ٤١ فرقة مشاة ومدرعة و٣ فرق ميكانيكية و٤ فرق مختلفة التشكيل وفرقتين مدرعتين خفيفة. وانطلق بنحو ٦٥٠ ألف جندى عبر أربعة محاور رئيسية من المجر والنمسا ورومانيا وبلغاريا.

بقيادة روميل :

جاءت هزيمة موسولينى فى شمال أفريقيا على أيدى القوات البريطانية وأسر حوالى ٣٠٠ ألف جندى من الجيش الايطالى وعلى رأسهم الماريشال جرازيانى بمثابة نهاية حلم موسولينى. كان يحلم بأن يتحول البحر المتوسط إلى بحيرة ايطالية، ونجح البريطانيون فى تدمير الأسطول الايطالى فى تارنتو «ايطاليا» ورأس ماتابان «اليونان».. ونجحت القوات اليونانية فى هزيمة القوات الايطالية ومن ثم فقد أدت كل هذه الهزائم إلى وضع موسولينى فى حجمه الطبيعى أمام هتلر، بل أصبحت ايطاليا عبئا على ألمانيا.

حاول هتلر أن يقف بجوار حليفته ايطاليا حتى لا تنهار ولهذا فقد عزم على الحيلولة دون خسارة شمال أفريقيا، لأن هذه الخسارة تصيب سمعة المحور بضربة شديدة، وفى ٣ فبراير ١٩٤١ قرر هتلر إرسال وحدات مدرعة إلى ليبيا تعاونها وحدات من الطيران.. واستطاعت القوات الألمانية السيطرة على الحدود المصرية الليبية.. بعد عدة معارك.

والواقع أن هتلر لم يهتم كثيرا باكتساح روميل للقوات البريطانية فى شمال أفريقيا، بل كان يخشى أن يورطه روميل فى عمليات ضخمة بتلك المنطقة.. كان اهتمام هتلر يتجه نحو مجهوده الرئيسى للحرب ضد روسيا بما يتطلب ذلك من حشد ضخم لقواته.

ولكى يبرر هتلر الهجوم الألمانى على الاتحاد السوفيتى، اتهم هتلر الكرملين بالخيانة وبأنه يهدد الجبهات الألمانية، وأنه يسعى عن طريق الدعاية لنشر المبادىء الشيوعية.

واتخذ قرار الهجوم على الاتحاد السوفيتى فى نوفمبر ١٩٤٠ ، وتم حشد القوات الألمانية لهذا الهجوم تحت ستار القيام بمناورات تدريبية فى الأراضى الشاسعة التى استولت عليها ألمانيا.

وحوصرت «ليننجراد» وبدأ هتلر فى حشد كل وسائل النيران الألمانية من أجل تدمير المدينة.. لكن بسالة أهالى ليننجراد وقوة تحملهم أثناء الحصار النازى لم يكن له مثيل من قبل فى التاريخ واستطاعوا أن يهزموا عدوهم ويفكوا الحصار عن المدينة.. وبهذا استطاعت إرادة الشعب أن تهزم القدرات العسكرية الضخمة وتساند هذه القدرات طبيعة طقس تتسم بالبرودة والثلوج.

وعلى الرغم من وصول القوات الألمانية إلى أبواب مدينة موسكو إلا أن اقتحام المدينة كان أمرا صعبا بسبب بناء الجيش الروسى خط دفاعى منيع أمام هجمات الألمان بنحو ٣٦٠ فرقة وازدادت خسائر القوات الألمانية وفقدت نسبة كبيرة من قواتها المدرعة.

واعترف الألمان بأنهم خسروا فى هذه الحرب نحو ٧٥٠ ألف جندى بينما اعترف الروس بخسارة نحو ٢-٣ ملايين أسير ومفقود ونحو مليون قتيل، ٢١ ألف دبابة ، ٣٢ ألف مدفع ، ٣ آلاف طائرة.

وبدأت روسيا فى أغسطس ١٩٤٣ تحت تأثير نيران ٦ آلاف مدفع هجومها الكبير واستطاعت المدرعات الروسية أن تخترق المواقع الألمانية، والقضاء على ثلاثين فرقة ألمانية منها ٧ فرق مدرعة وبلغت الخسائر الألمانية ١٥٠٠ دبابة ، ٣٠٠٠ مدفع، وانطلقت القوات السوفيتية مستغلة هذا النجاح

الكبير فى تحرير أوكرانيا فى نوفمبر ١٩٤٣، ثم تحرير روسيا البيضاء فى يوليو ١٩٤٤.

وتمت تصفية القوات الألمانية والتى تصل إلى نحو ١٠٠ ألف جندى. وتم أسر ٥٧ ألف جندى منهم ١٢ جنرالا، ومن ثم بدأت القوات الألمانية فى التقهقر بسرعة فى أغسطس ١٩٤٤. وخلال النصف الثانى من عام ١٩٤٤ تم تحرير بولنداوبلغاريا.

وفى أبريل ١٩٤٥ بدأ الهجوم السوفيتي الكبير تجاه برلين حيث تمثل هذه المدينة أهمية خاصة بصفتها العملية الختامية للحرب العالمية الثانية.. ولم يكن أمام هتلر سوى الانتحار وانهارت ألمانيا فى معركة نورمندى جنوب فرنسا.

فى الشرق الأقصى :

فى غضون عامى ٤٤-١٩٤٥ أتم الحلفاء حملتهم فى منطقة قلب المحيط الهادى واستولوا على الفلبين وقذفوا اليابان من الجو واخترقوا الجزر اليابانية نفسها. وبحلول صيف عام ١٩٤٥، كان الانتصار النهائى للحلفاء مجرد مسألة وقت . وتعمد الحلفاء تعطيل العمل العسكرى لبعض الوقت حتى يتسنى لهم إعداد القنبلة النووية.

فى ١٦ يوليو ١٩٤٥ كان قد انتهى العمل بالفعل فى مشروع مانهاتن حيث تمت تجربة أول سلاح نووى . وفى ٢٦ يوليو أصدر ترومان وتشرشل وتشانج كان شيك انذارا نهائيا لليابان للاستسلام.. ولكن اليابان قررت الاستمرار فى الحرب.

وفى السادس من أغسطس ١٩٤٠ أسقطت القنبلة النووية الأولى بقوة تعادل قوة انفجار ٢٠ ألف كيلو من مادة «ت ن ت » فوق مدينة هيروشيما التى كان يقطنها نحو ٣٠٠ ألف فرد ونتج عن ذلك مصرع ٧٨ ألفا وفقد عشرة آلاف لم يعثر لهم على أى أثر. وجرح نحو ٧٠ ألفا ودمر ما يقرب من ثلثى المدينة.

وفى التاسع من الشهر نفسه ألقيت القنبلة النووية الثانية على نجازاكى.. التى كان يقطنها ٢٥٠ ألف نسمة ولقى ٤٠ ألفا مصرعهم وجرح مثل هذا العدد.. وفى اليوم التالى ١٠ أغسطس أعلنت اليابان استسلامها بشرط أن يستمر الامبراطور فى مكانه كحاكم لليابان.

شعب بلا طعام:

انتهت الحرب.. وانتهت معها دولة الرايخ الثالث التى كان هتلر يفاخر بها وقال عنها أنها ستعمر ألف سنة قادمة.. وتحول الشعب الألمانى بنهاية هذه الحرب إلى شعب لا يجد قوت يومه، فى القوت الذى تقاسمت فيه أربع دول، هى روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا احتلال الأراضى الألمانية وتقسيمها إلى دولة شرقية تتبع الاتحاد السوفيتى وأخرى غربية تتبع الحلفاء، مع تقسيم العاصمة برلين إلى شطرين برلين الشرقية وبرلين الغربية وبينهما سور.

كان الثمن الذى حصل عليه المنتصرون وهم قوى التحالف «بريطانا – فرنسا– الاتحاد السوفيتى –الصين – الولايات المتحدة» هو حصولها على حق العضوية الدائمة بمجلس الأمن بالإضافة إلى قصر حق الفيتو أى النقض على قرارات هذا المجلس للدول الخمس فقط، مما أعطى لها وزنا سياسيا هائلا داخل تلك المنظمة الدولية. وبما يعنى تحكمها إلى حد كبير فى مصائر دول العالم.

كانت ألمانيا هى الدولة التى تزعمت جبهة المحور – ألمانيا– ايطاليا– اليابان» وهى أيضا التى بدأت باشعال الحرب العالمية الثانية بغزوها لبولندا فى أول سبتمبر ١٩٣٩، مما أدى إلى اتساع نطاقها تدريجيا لتشمل معظم دول العالم. وليست مسرح عملياتها فى كل من قارات أوروبا وأفريقيا وآسيا والمحيط

الهادى بدءا من دخول كل من فرنسا وبريطانيا الحرب فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ ومرورا بدخول روسيا بعد الهجوم الألمانى المفاجىء عليها فى ٢٢ يوليو ١٩٤١.

وأيضا دخول ايطاليا الحرب بجانب ألمانيا فى ١٠ يونيو ١٩٤٠، ثم اليابان بهجومها المفاجىء على القاعدة الأمريكية فى بيرل هاربور فى ٧ سبتمبر ١٩٤١، لتدفع الولايات المتحدة لدخول الحرب فى اليوم التالى مباشرة، ولتعم تلك الحروب المدمرة أجزاء المعمورة كلها على مدى حوالى ست سنوات متتالية خلفت وراءها حوالى مائة مليون ما بين قتيل وجريح.

ونتيجة التطور الهائل الذى حدث فى أسلحة القتال لعل من أبرزها استخدام القنبلة الذرية ضد اليابان. سببت تلك الحرب تغييرا فى الخريطة السياسية للعالم كله، حيث تراجعت من القمة دول عظمى وهى بريطانيا وفرنسا وألمانيا واليابان لتفسح المجال لقوتين عظميين جديدتين هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى واللتان استقطبتا العالم فى فترة ما بعد الحرب العالمية فيما عرف باسم عصر الحرب الباردة بين معسكريهما الشرقى والغربى حتى تفكك الاتحاد السوفيتى فى نهاية عام ١٩٩١.

والواقع أن السبب الرئيسى فى قيام هذه الحرب يرجع بالدرجة الأولى لنتائج الحرب العالمية الأولى التى انتهت عام ١٩٤٨ والتى خرجت منها ألمانيا منهزمة، حيث أن نتائج الحرب العالمية الأولى إلى معاملة ألمانيا وشعبها كدولة منهزمة ضد المفهوم الألمانى فى ذلك الوقت.. مما أصاب هذا الشعب بصدمة هائلة تسببت فى شحنه بشحنة قوية من الشعور بالحقد والضغينة ضد دول الوثاق التى تسببت فى معاناته بعد تلك الحرب، ومما شجع الحزب النازى على الدعوة للعنصرية وضرورة تسلط وسيادة الشعب الألمانى على كل شعوب العالم، وقد أدت هذه الروح الجديدة فى إشعال نار الحرب.

الفصل الثالث

جيش أرغم على الحرب!(١)

- قبل الحرب : طوابير الجيش المصرى لا ترى إلا فى الجنازات ومواكب المحمل النبوى !

- إسماعيل صدقى : كيف يمكن أن نحرر فلسطين بينما ظهورنا مكشوفة للاستعمار فى قناة السويس !

- العصابات الصهيونية : استغلت رفض العرب لقرار التقسيم وبدأت الإرهاب ضد الفلسطينيين.

- الجنود المصريون : مظاهرات «أرغفة الخبز على السناكى» بسبب تفشى الفقر والغلاء.

كانت حرب فلسطين ١٩٤٨، فريدة من نوعها، فهى أول حرب يخوض فيها الجيش المصرى ميدان القتال بعد توقيع اتفاقية ١٨٩٩، التى وقعها بطرس باشا غالى من مصر ولورد كرومر من بريطانيا.. والتى أطلق عليها الناس اسم «الاتفاقية المشئومة»، لأنها كانت اتفاقية إذعان كبلت الجيش المصرى بالسيطرة البريطانية وسمحت لانجلترا وحدها بإدارة السودان.

بدأت الحكومة البريطانية ترسم سياسة جديدة نحو الجيش المصرى تتوافق مع مصالحها فى استعمار مصر، فتتيح لها فرصة السيطرة الكاملة على الضباط والجنود بطريقة مختلفة عن المرسوم الذى أصدره الخديو توفيق يوم ١٩ سبتمبر ١٨٨٢، والذى تضمن جملة واحدة هى «تسريح الجيش المصرى» وتعيين قائدجيش الاحتلال البريطانى «سير ايفلين وود» ليكون قائدا عاما للجيش المصرى.

---

(١) أحمد حمروش - بتصرف.

أصدرت بريطانيا قانون التجنيد عام ١٩٠٢، وهو ما أعفى أبناء العمد والمشايخ وموظفى الحكومة والعلماء وطلبة الأزهر وطلبة الجامعة وأبناء إخوة ضباط الجيش.. وانخفض بذلك مستوى المجندين ومستوى الجيش بالتالى، واستمر العمل بهذا القانون حتى عام ١٩٤٨ إلى ٤٥ عاما متصلة.

وكانت بريطانيا قد بدأت تعد خطة جديدة لاستخدام الجيش المصرى عندما أعلنت فى خريف ١٩٤٧ عزمها على إنهاء الانتداب عن فلسطين فى ١٤ مايو ١٩٤٨ بعد أن كانت الأمم المتحدة قد أصدرت قرارها بتقسيم فلسطين فى ٢٩ نوفمبر١٩٤٧ وهو القرار الذى كانت له انعكاسات مختلفة داخل الحياة السياسية المصرية.

وقتها أعلن مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد لجريدة الأيام السورية تأييده لأن تكون فلسطين لأهلها مسلمين ونصارى أو يهودا. وأعلن إسماعيل صدقى باشا قبوله لقرار التقسيم، كما أعلنت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى موافقتها على التقسيم أيضا مطالبة بتوجيه السلاح إلى الاستعمار فى فايد وقنال السويس والسودان.. فلن يمكن تحرير فلسطين وظهورنا مكشوفة للعدو.. أما الأحزاب اليمينية مثل الاخوان المسلمين ومصر الفتاة فقد نظرت إلى فلسطين كمجال لحرب مقدسة، وأخذت تتظاهر وتعتدى على بعض اليهود المقيمين فى مصر.

رفض التقسيم :

صحيح أن التقسيم كان قد منح اليهود ٥٠٪ تقريبا من مساحة فلسطين، بينما حجم الممتلكات اليهودية الفعلية لم يكن يتجاوز ٧٪ من هذه المساحة، ولكنه صحيح أيضا أن العرب فى القسم العربى كانوا أغلبية كبيرة «٦٨٣ ألف عربى، و٨٠ ألف يهودى» وأنهم فى القسم اليهودى كانوا ٥٨٤ ألفا مقابل ٥٨٣ ألف يهودى كما جاء فى دراسة أعدها الكاتب الفلسطينى خيرى حماد.

وبعد رفض العرب لمشروع التقسيم نشطت العصابات الارهابية الصهيونية «أرجون زفاى ليومى والهاجاناه وشتيرن» وغيرها واستولت على مدن طبريا وحيفا وصفد ويافا والأحياء الغربية من القدس، وتولت العصابات الصهيونية أعمال الارهاب والعنف الرامية إلى إجبار السكان المدنيين على ترك مدنهم وقراهم فهاجمت القرى الأمنة وارتكبت مجازر وحشية ضد العرب، دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال ومن أكثرها بشاعة مذبحة دير ياسين التى جرت يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ وانتهت بقتل أكثر من ٢٥٠ عربيا، وقد بلغ عدد القرى العربية التى تعرضت للهجوم حوالى مائة قرية عربية.

يقول الاستاذ أحمد حمروش : اذكر خلال هذه الفترة من عام ١٩٤٧ أننى أصدرت أول كتاب لى باسم «حرب العصابات» وأهديته «إلى المضطهدين فى أوطانهم» وأذكر أيضا أن عمليات عنف قد قامت بها جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ضد محال كبيرة كان واوريكو، وبنزايون وجاتينيو وشركة الاعلانات الشرقية، مما أدى إلى خروج عدد كبير من اليهود، ودعم بعضهم اليهود الذين كانوا فى فلسطين.

حرب العصابات :

تصاعدت خلال هذه الفترة أيضا المشاعر المضادة لأعمال العصابات الصهيونية وبدأت عمليات تطوع للذهاب إلى فلسطين تبنتها الجامعة العربية وأمينها العام عبد الرحمن باشا عزام وشكلت كتائب تحت قيادة القائمقام أحمد عبد العزيز الضابط بسلاح الفرسان والذى كان مدرسا للتاريخ فى الكلية الحربية ومعه كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد وعدد من الضباط.

وهكذا بدأ القتال فى صورة حرب العصابات بين المتطوعين العرب وبين

العصابات الصهيونية، وكانت فكرة التطوع تجد لها أنصارا كثيرين فى الجيش من بينهم اللواء محمد نجيب الذى آمن بأن الوسيلة المثلى للقتال فى فلسطين لا تكون إلا باستخدام حرب العصابات.

ولم يكن لجوء النقراشى للقوة المسلحة ودخول الحرب أمرا واردا حتى يوم ١١ مايو ١٩٤٨ عندما تغير رأيه فجأة «بين عشية وضحاها» على حسب تعبير الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ فى كتابه «مذكرات فى السياسة المصرية». وطلب فى ١٢ مايو عقد البرلمان فى جلسة سرية لطلب دخول القوات المسلحة أرض فلسطين.

كان هذا التغيير المفاجىء فى موقف النقراشى مثيرا للانتباه والدهشة.. وقد سأله فؤاد سراج الدين زعيم المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ، عما إذا كان قد قدر موقف الإنجليز ووعد بلفور وعن احتمالات طعنهم لجيشنا من الخلف.. فكان جواب النقراشى له : «إننى متفائل ونحن نعرف قوة اليهود تماما، وأنا أحب أن أطمئنك إلى أن الانجليز أيضا هم الذين شجعونى على ذلك»

واعترض إسماعيل صدقى باشا على دخول الجيش لأنه غير مستعد من الناحية العسكرية ولكن النقراشى أكد أنها نزهة للجيش.

ولم يكن الملك أقل تحمسا للقتال من غيره، بل إنه بادر بتحريك الجيش قبل موافقة البرلمان عن طريق إعطاء الأوامر لمحمد حيدر وزير الدفاع دون علم رئيس الوزراء

ويقول الاستاذ أحمد حمروش : وهكذا دخل الجيش المصرى فجأة إلى حرب فلسطين يوم ١٥ مايو ١٩٤٨، أذكر أننى قد فوجئت بالغاء فرقة ميكانيكا كنت قد عينت فيها أثناء عملى مدرسا فى مدرسة المدفعية، وعندما سألت عن السبب قيل لى أننا سندخل الحرب غدا !

اتخذ القرار فى لهفة وعجلة وبدون دراسة متروية فى وقت كان الجيش المصرى فيه مازال يعانى من نقص التسليح فلم تكن بريطانيا قد أمدته بالأسلحة التى طلبها.

طوابير الجنازات :

كان الجيش المصرى حتى هذه الفترة بعيدا عن تنظيم المعركة.. فلم يكن قد عرف نظام التشكيلات بعد، أى أنه كان أسلحة منفصلة لا تنسيق فيما بينها ولا تجميع للقتال.. وكان التدريب قاصرا ومتخلفا عن مناورات المعركة.

ولم تكن طوابير الجيش تشاهد إلا فى مواكب المحمل النبوى والجنازات. وكانت هذه الحقيقة يدركها كل ضباط الجيش، ولكن الدعاية الجارفة أشعلت الحماس للقتال وجرائم العصابات الصهيونية التى واصلت عدوانها الارهابى جعلت رجال الجيش يقبلون على المعركة بروح معنوية عالية.

هذا الموقف كانت فيه خدمة لبريطانيا التى كانت قواتها مازالت مستقرة فى منطقة قناة السويس.. وإشغال الجيش بمعركة خارج الحدود يبعد خطر المطالبة الوطنية بخروج قوات الاحتلال.. وكان فيه أيضا إنقاذ للنظام، حيث كانت القضية الوطنية مازالت معلقة بعد فشل المفاوضات، وكانت الانتفاضة الشعبية التى دفعت جميع الطوائف إلى التظاهر والاضراب بمن فيهم ضباط البوليس قد وصلت إلى الذروة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كما أن استحكام الغلاء قد دفع بعض الجنود إلى وضع أرغفة الخبز على السناكى أثناء مظاهراتهم.

هذه هى الحالة التى كانت تسود مصر قبل حرب فلسطين مباشرة، وهى مليئة بعوامل التفجر التى تهدد قواعد النظام الذى كان يستند إلى ملكية فاحت رائحة فساد رجالها إلى الحد الذى أضعف تماما من مركز الملك، وأحزاب الأقلية عاجزة عن مجابهة المستعمرين، الأمر الذى كان يحمل بذور ثورة شعبية.

وهكذا وجدت حكومة النقراشى فى دخول الحرب تنفيذا لأوامر الاستعمار والسراى.. إنقاذا لها مما عجزت عن مجابهته، ووجد فيها الملك والاستعمار طوق نجاة يتعلقان به لانقاذهما من غضب المجتمع يوما بعد يوم.. ولذا أعلنت الأحكام العرفية وفتحت المعتقلات فى معسكر هاكستيب الذى ضم عدة مئات، وفرضت الرقابة على الصحف، وقيدت الاجتماعات العامة.

ولم تكن الدولة قد عبأت نفسها للحرب.. بل لم تكن هناك إدارة للتعبئة.. وكانت أول كتيبة دخلت أرض فلسطين كانت تحملها عربات أوتوبيس أحضرها أحد المقاولين.

سبعة جيوش :

ولم يكن الجيش المصرى هو الجيش الوحيد الذى تحرك إلى فلسطين .. كانت هناك جيوش سبع دول عربية هى شرق الأردن ولبنان وسوريا والعراق والسعودية وفلسطين والسودان .. ومعظمها كان خاضعا للاستعمار والاحتلال البريطانى أو الفرنسى .. وهو الأمر الذى يؤكد أن دخول هذه الجيوش إلى فلسطين كان بإرادة استعمارية .. وعلى غير استعداد للقتال .. فلم تكن هناك قيادة مشتركة لهذه الجيوش العربية السبعة، وقد وضح ذلك مع بداية القتال.. فلم تستطع كل هذه الجيوش أن تلحق هزيمة بالقوات الإسرائيلية التى تشكلت على أساس العصابات الصهيونية .. والتى لم تكن فى بداية القتال تملك طائرات أو مطارات، ولكن الروح القومية والإيمان بعدالة الحرب والاندفاع للتضحية كاد يلحق الهزيمة بالقوات الإسرائيلية، ولذا فرضت الهدنة الأولى يوم ١١ يونيو ١٩٤٨

ومع ذلك فقد أظهر الضباط والجنود قدرا عاليا من الكفاءة فى حدود الإمكانيات المتاحة، وقدموا من التضحيات ما يستحق التقدير والتبجيل والاحترام.

كان القائمقام أحمد عبد العزيز قائدكتائب الجامعة العربية قد استشهد ومعه عدد من الضباط وفى الجانب المقابل لم تكن قيادات الجيش قد وصلت إلى حد القدرة والكفاءة على إدارة قتال لم تمارسه فى المناورات من قبل كما لم تدرب على مواجهة أسلوب حرب العصابات، ولذا فقد استبدل اللواء المواوى باللواء أحمد فؤاد صادق.. وتعرض اللواء محمد نجيب للإصابة بجروح دخل المستشفى من أجلها.

وخلال الهدنة وصل الكونت السويدى فولك برنادوت مبعوثا لهيئة الأمم المتحدة وأعد مشروعا يدعو فيه إلى توحيد فلسطين وشرق الأردن فى وحدة مكونة من جزءين أحدهما عربى والآخر يهودى مع تخصيص النقب كله أو معظمه للقسم العربى والجليل كله أو معظمه للقسم اليهودى، أما القدس فتبقى للقسم العربى مع توفير حكم ذاتى للجالية اليهودية فيها.. وكانت نتيجة تفكيره فى هذا المشروع اغتيال الصهيونيين له يوم ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ وتعيين الأمريكى رالف بانش بدلا منه.

بوادر الهزيمة :

وعندما استؤنف القتال فى ٩ يوليو تمكنت إسرائيل من متابعة هجومها ضد مناطق سبق تخصيصها للدولة العربية والسيطرة على١٤ مدينة و٢٠٠ قرية عربية، واستمر القتال عشرة أيام بدأخلالها الموقف العسكرى العربى يتعرض للاهتزاز خاصة بعد إخلاء الجيش الأردنى لمدينتى اللد والرملة واستيلاء الصهيونيين عليهما، وكان الجنرال جلوب البريطانى هو قائد قوات شرق الأردن.

وفى هذا الجو الذى ظهرت فيه بوادر الهزيمة بدأت تظهر تجمعات للضباط الوطنيين الذين أدركوا أن المأساة لم تكن فى قدراتهم وإنما كانت فى خضوع النظام للإرادة البريطانية التى دفعت عددا من جيوش الدول العربية

الخاضعة لاستعمارهم للدخول فى هذه الحرب على غير استعداد للتجاوب مع طموح الصهيونية التوسعية فى تثبيت دولتها فى حدود تتسع عما ورد فى قرار التقسيم.

وقد حظت حرب فلسطين ببطولات نادرة للضباط والجنود المصريين، الذين حاربوا ببسالة فى ظروف شديدة الصعوبة، واستشهد منهم ٩٧ من خيرة الضباط.

ولم تستمر الهدنة الثانية أكثر من شهرين وتجدد القتال بهجوم صهيونى فى اكتوبر انتهى إلى حصار الفالوجا فى ١٦ اكتوبر واستمرت المحاصرة لمدة ١٣٠يوما حتى بدأت مفاوضات رودس ووقعت بها اتفاقية الهدنة يوم ٢٤ فبراير ١٩٤٩ بعد أن توقف القتال يوم ٧ يناير.

كان أحد قادة الفالوجا قد أعد خطة لفك الحصار عنها مع التضحية بنسبة كبيرة من حاميتها، ولكن جمال عبد الناصر أحد ضباط حرب الحامية المحاصرة عارض ذلك حتى تكون القوة المصرية بالفالوجا عامل ضغط سياسيا للمفاوض المصرى فى رودس.. وهذا ما يوضح بصيرته السياسية النافذة المبكرة.

وضعت اتفاقية الهدنة بسحب القوات المصرية من الفالوجا، وتبادل الأسرى خلال عشرة أيام، ومنع الفريقين من القيام بأية حركات عسكرية أو زيادة للذخائر أو المهمات الحربية، وعدم إنشاء مطارات فى فلسطين.

والمقارنة بين بنود اتفاقية الهدنة التى أقرت الأوضاع القائمة وأعطت الفرصة لإسرائيل بالاستيلاء على صحراء النقب والوصول إلى إيلات وبين قرار الأمم المتحدة الخاص بالتقسيم يوضح أن العرب قد فقدوا فرصة إقامة دولة عربية مستندة إلى قرار الأمم المتحدة وفقدوا جانبا كبيرا من الأرض التى كان قد منحها لهم قرار التقسيم.

انتهاء الحرب بالهزيمة العسكرية فرض على الحكومة إنهاء الأحكام العرفية، والإفراج عن المعتقلين وإطلاق حرية الصحافة، الأمر الذى قوى الجبهة المعادية للسراى وحكومة الأقليات، ودفع الملك إلى إجبار رئيس الوزراء إبراهيم باشا عبد الهادى على الاستقالة وتشكيل وزارة حسين باشا سرى فى ٢نوفمبر ١٩٤٩ لإجراء انتخابات جديدة.

وبدأت رحلة جديدة فى حياة مصر السياسية.. وصل فيها الوفد إلى مقاعد الحكم بأغلبية كبيرة، وبدأت حركة الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال فى منطقة قناة السويس. وفتح التاريخ صفحة جديدة .

الفصل الرابع

أطول حرب مصرية إسرائيلية ![1]

– هل أدت حرب الاستنزاف إلى تعطيل حرب اكتوبر ؟

– أبا إيبان فى أسبوع تساقط الفانتوم : « الطيران الإسرائيلى يتآكل».

حين وقف وزير الدفاع الإسرائيلى الأشهر «موشى ديان» معلنا رقم تليفونه الخاص فى تل أبيب لمن يريد أن يتصل به من الزعماء العرب طالبا الاستسلام! كان فى الحقيقة يلخص حالة السخرية والاستهانة والزهو المغرور التى أسكرت القادة العسكريين فى إسرائيل فور انتهاء الجولة الثالثة من الصراع العربى الإسرائيلى «يونية ٦٧» بهزيمة ساحقة وسريعة لجيوش مصر وسوريا والأردن، دفعت الجانب المنتصر إلى أن يعلن مطمئنا قيام «جيش الدفاع» بحسم الصراع لصالح إسرائيل لعشرات السنين التالية، وأن «الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر» أصبح هو الحقيقة الجديدة والوحيدة فى المنطقة !

رغم أن القائد الإسرائيلى كان يتحدث مستندا إلى حقائق وضع عسكرى لا يقبل الشك يقول أن حرب الأيام الستة قضت على القدرة العسكرية العربية، وأوصلت القوات الإسرائيلية إلى حافة قناة السويس وضفاف نهر الأردن ومرتفعات الجولان وسيطرت على مساحة من الأراضى العربية توازى ثلاثة أمثال مساحة إسرائيل .. ورغم أن هذا الوضع العسكرى كان يؤكد أن مصر خسرت ١٥ ألف شهيد وأسير ومفقود[2] و٨٠٪ من حجم معدات قواتها المنسحبة عشوائيا من سيناء «٥٥٪ من حجم المعدات العام» إلى جانب عدم

---

(١) محمد هانى

(٢) هذا الرقم فيه نظر فقد أعلن أن عدد الأسرى المصريين الذين دفنوا أحياء فى رمال سيناء بلغوا ٦٠ ألفا .

توافر سلاح جوى يحمي السماء المصرية فى حالة حدوث أى اعتداء إسرائيلى جديد.

رغم هذه الحقائق المؤكدة إلا أن أول رد على دعوة ديان العرب للاستسلام جاء على غير ما يتوقع وبأسرع مما يتوقع، فعندما حاولت القوات الإسرائيلية التقدم من القنطرة شرق للاستيلاء على «رأس العش» تمهيدا للاستيلاء على مدينة بور فؤاد، لم تكن القوات المصرية المحدودة جثة هامدة فقد استطاعت إيقاف تقدم القوات الإسرائيلية وخاضت معركة باسلة بأداء يخالف كل التوقعات - وقتها- كانت أهم آثارها إثبات أن الصمود ليس مهمة مستحيلة، وخلال هذ الفترة من يوليو إلى نوفمبر ١٩٦٧ خاضت الأفرع الرئيسية الثلاثة للقوات المسلحة المصرية إلى جانب معركة «رأس العش» عمليات حربية قوية، أشهرها إغراق المدمرة البحرية «إيلات» شمال شرق بورسعيد فى ٢١ اكتوبر.

هذه العمليات التى بدأت أولاها بعد أسابيع قليلة من هزيمة يونية ٦٧ يمكننا اعتبار أنها كانت «إعلان نوايا حربيتي» من الجانب المصرى مبنى على إرادة سياسية وضعت استراتيجيتها على أساس أن «تسخين جبهة القتال» بعد الهزيمة ضرورة سياسية قبل أن تكون عسكرية وأن الطريق الوحيد لدفع إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضى التى احتلتها ودخولها فى تسوية سلمية مقبولة لابد أن يمر بجبهة القتال.

كان الواقع السياسى فى أعقاب هزيمة ٦٧ يؤكد أنه لابديل عن الخيار العسكرى، فرغم أن القرار «٢٤٢» الصادر من مجلس الأمن فى نوفمبر ٦٧ كان من الممكن أن يحقق تسوية مقبولة لمشكلة الشرق الأوسط إلا أن إسرائيل عرقلت هذا القرار وجمدت تنفيذه.

وحسبما حددته القيادة المصرية بعد يونية ٦٧ كانت الأهداف السياسية لحرب الاستنزاف تتركز فى كسر حالة اللا سلم واللا حرب التى تحقق لإسرائيل هدف ترسيخ الأمر الواقع ثم رضوخ العرب له، تحريك القضية وايقاظ العالم بأن منطقة الشرق الأوسط لاتزال ساخنة، منع الولايات المتحدة وإسرائيل من فرض واقع احتلال الأراضى العربية، دفع الاتحاد السوفيتى لسرعة إمداد مصر بأسلحة متقدمة لإحداث توازن مع العدو، تعبئة الشعور الوطنى والجبهة الداخلية خلف القوات المسلحة بعيدا عما بدأت تخطط له القوى المعادية لمصر، تعبئة طاقات الموارد العربية، ثم تحقيق مكاسب دبلوماسية بدفع القوى الكبرى إلى بذل جهود للوصول إلى صيغة تفاوضية مقبولة.

العدو المحروم:

أما الأهداف العسكرية لهذه الحرب حسبما حددتها القيادة العامة المصرية لقواتها فقد كانت حرمان العدو من القيام بالاستطلاع البرى والبحرى والجوى والتدخل ضد تحركاته على الضفة الشرقية، منع العدو من إقامة منشآت هندسية أو تحصينات ميدانية وتدمير ما ينجح فى إقامته أولا بأول، إرهاق العدو وايقاع أشد الخسائر بجنوده وأسلحته ومعداته، تطعيم القوات المسلحة المصرية للمعركة المقبلة، إزالة الآثار الناجمة عن معاناة المقاتلين من الهزيمة برفع المعنويات واستعادة الثقة فى النفس والسلاح والقادة، التركيز على الفرد المقاتل الإسرائيلى والقيام بعمليات اقتناص لأفراده، اختبار كفاءة الأسلحة وأساليب القتال للخروج بعقيدة قتالية مصرية خالصة.. وأخيرا مواجهة الحرب النفسية التى شنتها إسرائيل بأن الجيش المصرى لن تقوم له قائمة.

ونستطيع القول أن يوم ٨ سبتمبر ٦٨ كان نقطة التحول الرئيسية فى تنشيط الجبهة فقد شهد قصف مدفعية مديرا تحت ستاره تدافعت دوريات قتال

على طول الجبهة وتم تخطيط هذا القصف بحيث يشمل جميع الأهداف شرق القناة، وحتى عمق ٢٠ كيلومترا شرقا واشتركت فيه ٣٨ كتيبة مدفعية أطلقت نيرانها قبل آخر ضوء ولمدة ثلاث ساعات متواصلة وعاونتها جميع الأسلحة المضادة للدبابات بإطلاق نيرانها من الضفة الغربية للقناة..

واستهدف القصف خط بارليف الجارى إنشاؤه، ثم جميع مواقع الصواريخ المستخدمة ضد مدن القناة ومواقع المدفعية والشئون الإدارية ومناطق تمركز الأفراد .. وقد شكل هذا القصف ضربة موجعة للجانب الإسرائيل الذى شعر لأول مرة أن السيطرة النيرانية قد آلت للقوات المصرية..

وتكبدت إسرائيل فى هذا القصف تدمير ١٩ دبابة و٨مواقع صواريخ وأسكتت خلالها جميع مدفعيات العدو التى قدرت وقتها بـ ١٧ بطارية مدفعية وفيما بعد اعترفت كتابات إسرائيلية بأن خسائرهم فى الأفراد بلغت ٢٨ قتيلا وجريحا.. وفى ٢٦ اكتوبر تكرر القصف المدفعى المركز وردت إسرائيل بعملية ليلية ٣١ اكتوبر بضرب محطة محولات كهرباء السد العالى فى نجع حمادى وكان هدفها من هذه العملية سياسيا اقتصاديا وليس عسكريا !

الخطة « بوكسير»

أهم مراحل التصعيد العسكرى فى حرب الاستنزاف جاءت فى مارس ١٩٦٩ وامتدت نحو ٥٠٠ يوم حتى ٨ أغسطس ٧٠ ، وقد أديرت هذه المرحلة سياسيا وعسكريا التوازن فى التصعيد والتهدئة وتمت خلالها الأعمال القتالية بصورة مستمرة وبمعدلات أداء تتراوح بين قصفة إلى قصفتى مدفعية يوميا وصاحبتها أعمال قتالية أخرى.

كما نفذت تراشقات بالأسلحة الصغيرة والدبابات بمعدل من ١٠ ٢٠ اشتباكا يوميا كذلك كان يتم الدفع بدوريات وكمائن ويتم تنفيذ أعمال القتال

التعرضى، وعلى سبيل المثال فمن يوم ٨ مارس وحتى ١٩ يوليو، صبت القوات المصرية على حصون بارليف والأهداف الأخرى حوالى ٤٠ ألف قذيفة..

وخلال شهرى يونية ويولية تصاعدت الإغارات من الجانبين فبينما شن الجانب الإسرائيلى ٥ إغارات على مواقع منعزلة على خليج السويس أهمها الإغارة على الجزيرة الخضراء.. شنت القوات المصرية ٦ إغارات على نقاط قوية تم خلالها إحداث تدمير وخسائر فى شمال البلاح والشط، أما الإغارة على نقطة لسان التمساح وهى النقطة التى استشهد فيها الفريق عبد المنعم رياض فكانت هى الثأر المدبر من القوات الخاصة بقيادة المقدم إبراهيم الرفاعى..

ولأن نتائج هذه الإغارات كانت أليمة بالنسبة للجانب الإسرائيلى قرروا إدخال الطيران المعركة لمجابهة الاستنزاف المصرى باستنزاف مضاد.. ويقول «زيفى تشيف» فى كتابه «الفانتوم فوق النيل» أن الإغارة المصرية على لسان بور توفيق ليلة ١٠-١١ يوليو ٦٩ هى التى أنهت الجدل داخل القيادة الإسرائيلية حول حتمية تدخل الطيران فى المعركة.. بينما قال المتحدث العسكرى الإسرائيلى أن «الحياة التى أصبحت لا تطاق على الجبهة الشرقية دفعت القيادة الإسرائيلية لاستخدام الطيران الذى كانت كل الآراء تصر على الاحتفاظ به للمستقبل.

إسرائيل افتتحت هذا التصعيد فى حرب الاستنزاف بتنفيذ الخطة « بوكسير» التى شملت ٥٠٠ طلعة طائرة تقذف ٢٥٠٠ قنبلة على أهداف منتخبة خلال ١٠ أيام وهى مواقع الدفاع الجوى المصرية والرادارات ومواقع المدفعيات، وكان من الطبيعى أن تتعدل الخطط المصرية بناء على هذا التغيير وجاء هذا التعديل من منطق إفشال الاستنزاف المضاد والرد على العمق بالعمق والغارات الجوية بغارات مثلها، وجاءت أول هجمة مصرية جوية منظمة منذ يونية ٦٧ فى ظهر ١١ سبتمبر ٦٩ بقوة ٦٠ طائرة اختيرت لها أهداف عسكرية فى العمق.

رغم ضراوة القصف:

ومع نهاية عام ٦٩ كان واضحا أمام القيادة الإسرائيلية أن الاستنزاف المضاد لم يؤت ثماره وتقرر إطلاق يد الطيران الإسرائيلى لمهاجمة أهداف مصرية مدنية وعسكرية بعد الحصول على تصديق من وزير الدفاع ورئيسة الوزراء ، وبدأ التنفيذ فجر ٧ يناير ١٩٧٠ بطلعة جوية فوق سماء القاهرة اخترقت حاجز الصوت وأحدثت فرقعة شديدة لتعلن بدء مرحلة جديدة من تصعيد حرب الاستنزاف، واستخدمت فيها لأول مرة طائرات الفانتوم..

وخلال الشهور الأربعة الأولى من عام ٧٠ وصل إجمالى القصف إلى ٣٨٣٨ طلعة جوية نفذت خلالها إسرائيل ٣٦ غارة فى العمق المصرى والباقى على الجبهة وتخللت هذا القصف جرائم أخلاقية تتنافى مع كل المواثيق الدولية تتمثل فى قصف مصنع حديد أبوزعبل فى ٢٢ فبراير ثم قصف مدرسة أطفال بحر البقر فى ابريل.

ورغم ضراوة القصف الجوى نجحت القوات المسلحة المصرية فى إقامة مواقع وحدات صواريخ الدفاع الجوى لمجابهة الطيران الإسرائيلى، وقد شهدت المرحلة الأخيرة من حرب الاستنزاف عملية تدمير الحفار كينتنج فى أبيدجان عاصمة ساحل العاج، والذى كانت إسرائيل قد اشترته من كندا لاستخدامه فى البحث عن البترول فى خليج السويس واستطاعت عناصر من القوات البحرية المصرية تدميره بالتنسيق مع المخابرات العامة.

ومن أشهر وأقوى العمليات فى حرب الاستنزاف ما سمى بـ «أسبوع تساقط الفانتوم» والذى نجحت فيه صواريخ الدفاع الجوى المصرية خلال الأسبوع الأول من يوليو ٧٠ فى إسقاط طائرات الفانتوم والسكاى هوك.

وخلال الفترة حتى ٧ أغسطس كانت الطائرات الإسرائيلات التى أسقطها

الدفاع الجوى المصرى ١٧ طائرة، بينما أصيبت ٣٤ طائرة أخرى وهى الفترة التى أعلن فيها أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل تصريحه الشهير أمام الكنيست بأن «الطيران الإسرائيلى يتآكل».

ومع توالى وتصاعد الأحداث زاد الإحساس لدى القيادة الإسرائيلية بأن الاستنزاف المضاد هو استنزاف آخر لإسرائيل وبدأت تتصاعد موجات السخط مع الإعلان عن الخسائر اليومية، ووجدت الولايات المتحدة أن استمرار هذه الحرب لا يحقق مصالحها ولا مصالح إسرائيل فتقدم وزير الخارجية الأمريكى بمبادرته الشهيرة التى حملت اسمه والتى نصت على أن تعلن أطراف النزاع فى الشرق الأوسط تنفيذ وقفا محدودا لإطلاق النار مدته ٩٠ يوما.

ما ضرورة حرب الاستنزاف التى كانت باهظة التكاليف ؟! وهل أدت إلى تعطيل أو تأخير حرب أكتوبر ٧٣ ؟! وهل كان الدخول فيها خطأ سياسيا؟ وما تأثير نتائجها على حرب اكتوبر ؟!

بدون عودة شبر واحد :

هذه الأسئلة طرحتها دراسة لهيئة البحوث العسكرية بوزارة الدفاع صدرت عام ١٩٩٨.

ووصلت إلى أن أرباح هذه الحرب عسكريا وسياسيا للجانب المصرى فاقت خسائرها برغم أنها لم تحقق استعادة شبر واحد من الأرض المحتلة، وعلى الرغم من أنها تضمنت أخطاء فى التقدير العام للموقف والذى تأسس على اقتصار الحرب على نطاق الجبهة فقط وباستخدام القوات البرية كعامل رئيسى، فإذا بالعدو يدفع بقواته الجوية والبحرية ويمتد مسرح العمليات ليشمل حدود مصر الشرقية بالكامل إلى عمق الوادى، مما اضطر القيادة المصرية إلى تعديل جذرى فى الخطة لمواجهة الموقف والرد عليه بالمثل.

وكذلك كانت هناك بعض أخطاء كادت إسرائيل تمسك فيها زمام المبادأة وخصوصا بعد توسعها فى استخدام قواتها الجوية، وكانت هناك أخطاء فى التصعيد والتهدئة تعمد العدو فيها إحراج القيادتين السياسية والعسكرية ضمن خطة لزعزعة النظام ودفع القوى الشعبية لفقد الثقة فى قيادتها.

أيضا كانت الحملة الدعائية المصرية للحرب أقل من الحدث نفسه، مما أدى إلى ارتفاع صوت الاستنزاف المضاد نتيجة حملة الدعاية الإسرائيلية الشاملة.

والأخطر من ذلك هو القصور فى إمكانية إحداث التوازن بين إمكانياتنا وإمكانيات العدو ويرجع هذا لقرار القيادة السوفيتية غير المعلن أن يقتصر إمدادها لمصر على الأسلحة التى تحقق التوازن الدفاعى فقط.

وقد حددت دراسة هيئة البحوث العسكرية سبعة آثار لحرب الاستنزاف أولها أنها أدت إلى تعديل مسار القوات المسلحة لترتقى بتنظيمها وتسليحها وأساليب تدريبها.. والثانى هو بدء بناء عقيدة القتال المصرية التى تتمكن من مجابهة الفكر الإسرائيلى العسكرى.. وعلى سبيل المثال تم التوصل إلى استراتيجية قتال الرجل للدبابة التى طبقت بنجاح فى السادس من اكتوبر ٧٣.. ولولا العدد الكبير لعمليات العبور أثناء الاستنزاف ما توصلنا إلى الوسائل المساعدة التى أدت لنجاح العبور الشامل فضلا عن الحرب الالكترونية التى كتب ميلادها خلال مرحلة الاستنزاف.

آثار ونتائج أخرى :

الأثر الثالث أن حرب الاستنزاف هى التى فتحت عيوننا على ما يجب أن يكون عليه الهيكل التنظيمى للقوات المسلحة، والأثر الرابع أنها حطمت الحاجز النفسى تجاه القوة الإسرائيلية بعد الهزائم العربية فى ثلاث حروب متواصلة

٤٨-٥٦-٦٧ بينما كانت حرب الاستنزاف هى الوحيدة التى لم تنتصر فيها إسرائيل.. والأثر الخامس هو إدراك المقاتلين المصريين لمسئولياتهم وللنتائج التى يمكن أن تحققها دقة التخطيط.

والأثر السادس هو مجموعة الخبرات المكتسبة من تأثير النجاح والفشل والتى أدت إلى بناء إطار حرب اكتوبر من ناحية توقيت بدء الحرب وحجم القوات المشتركة وأعماق المهام وأسبقيات تحقيقها واتجاهات التعاون والتنسيق.

أما التأثير السابع فكان داخل إسرائيل التى لم تستوعب الدرس رغم خسائرها الكبيرة فى المعدات والأفراد، وقد أعماها هذا عن الجهود المصرية التى تبذل حتى تضيق الفجوة التكنولوجية، وكان همها الأكبر هو ترميم ما دمرته تلك الحرب وبناء خط دفاعى قوى يستند إلى مانع فريد يحبط آمال المصريين فى مجرد التفكير فى عبور قناة السويس.

ربما يكون أبلغ حديث عن نتائج حرب الاستنزاف هو ما ذكره الجنرال عيزرا وايزمان فى كتابه « علىّ أجنحة النسور» حين قال :

«عندما وافق المصريون على إيقاف النار فى أغسطس ٧٠ فسرنا ذلك بأنه اعتراف منهم بأنهم لم يتحملوا القصف من جانبنا، ولكن حرب الاستنزاف التى أريقت فيها دماء أفضل جنودنا انتهت بأن أصبح للمصريين حرية العمل لمدة ٣ سنوات للتحضير لحرب اكتوبر، وعلى ذلك فمن الجنون أن نقول أننا كسبنا حرب الاستنزاف بالعكس فإن المصريين رغم خسائرهم هم الذين استفادوا منها أكبر فائدة بينما أخذ قادتنا «قادة إسرائيل» يرددون أننا كسبنا حرب الاستنزاف، فأثروا بذلك على عقولنا بدلا من القول أننا فشلنا فى تدمير شبكة صواريخ الدفاع الجوى المصرى.

الفصل الخامس

أكبر تحالف فى نهاية القرن العشرين !

- قبل غزو الكويت : تجاهل عراقى لكل المساعدات المصرية أثناء الحرب مع ايران ومعاملة سيئة للمصريين.

- حافظ الأسد اشترك فى التحالف الدولى حماية لسوريا من العراق ولأن صدام دعم أعداء سوريا فى لبنان.

- لم يكن فى وسع صدام حسين أن يسرح مقاتليه العاطلين.. فبحث لهم عن حرب !

حرب الخليج تعتبر بحق ثالث حرب عالمية من حيث حجم التحالف العالمى، وقد كان الهدف واحدا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية وهو شكل جديد للعالم ولمنطقة الشرق الأوسط التى كانت مسرح عمليات للحربين فى النصف الأول من القرن العشرين، وقد نبهت هذه الحروب شعوب المنطقة إلى أهمية التحرر والاستقلال حتى لا تستغل أراضيها فى شىء لا يعنيها.

وإذا كانت الحروب ضرورة حتمية لإحداث تغييرات اجتماعية وسياسية فى العالم، فإن الأطراف التى تدير الصراع أو تراقب وتتابع، كل منها له حساباته واحتياجاته ومصلحته القومية، والحفاظ على أمنه، والظفر بأكبر قدر ممكن من الامتيازات.

وإذا كانت نتيجة حروب النصف الأول من القرن هى ظهور قوتين عظميين، امتدت بينهما حرب باردة قاربت الخمسين عاما تخللتها حروب مختلفة منها الأهلية أو نزاعات على الحدود.. إلا أن هذا لا يجعلنا نغفل أنه كانت هناك حروب تحالف فى النصف الأخير من القرن، بدايتها حرب «التواطؤ الثلاثى»

على مصر عام ١٩٥٦ التى تمت فى إطار تحالف ثلاثى محدود، أعقبته بعد ٣٥ عاما حرب شملت ثلاثين دولة غربية وعربية للتحالف فى حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ ضد العراق من أجل تحرير الكويت.

لقد شكل المحور المصرى السعودى السورى، عقب غزو الكويت، قلب المعارضة العربية لصدام حسين، وأصبح العمود الفقرى للتحالف المضاد للعراق، وبغياب ذلك المحور لم يكن شن حرب لتحرير دولة الكويت ممكنا.

وقد ادعى بعض المعلقين، عربا وأجانب، أن أطراف المحور الثلاثة لم تجتمع إلا إذعانا لرغبة الولايات المتحدة، أو طمعا فى الحصول على مكافأة من واشنطن، سواء كانت المكافأة سلاحا أم مالا أم تأييدا سياسيا.. ولكن هذا بعيد تماما عن الحقيقة.

فقد تشكل المحور العربى من الدول الثلاثة، لأن كلا منها رأت فى حركة صدام تهديدا خطيرا لمصالحها الحيوية، وتجاوزا لا يمكن السكوت عليه لكل مبادىء الشرعية، وصممت على إفشال محاولته وفرض هيمنته على المنطقة، إذ لو نجح صدام فى محاولته تلك لاستطاع تهديد أمن السعودية وجعلها عرضة للابتزاز، والعمل على تهميش دور مصر على الساحة العربية، وتعريض نظام الحكم فى سوريا لخطر داهم، ولعل الحرب لو شنت فى غياب المشاركة العربية لغدت حربا على نحو مختلف.

غرور وولع بالقتال:

الحقيقة تقول أن صدام أصبح يشكل خطرا، لأنه اعتبر نفسه المنتصر فى حربه مع ايران ويتطلع إلى زعامة بالمنطقة العربية، فضلا عن غروره وولعه بالقتال، ليس هذا فحسب، بل لأنه كان يواجه مصاعب مالية جمة يبحث لنفسه عن مخرج منها، كانت لديه قوات مسلحة هائلة، دون عدو يقاتله، أو هدف

تحققه، لم يكن فى وسعه تسريح هذه القوات، خشية تفاقم البطالة المدمرة والعواقب الاجتماعية الخطيرة، كان من الواضح أنه يحتاج إلى أن يشغل قواته فى جبهة أخرى وعدو جديد.

فى العامين التاليين لانتهاء الحرب العراقية - الايرانية زادت العراق من ضغطها على الكويت.

وقام بتمهيد الطريق لعمل عسكرى ضد الكويت بتحييد ايران بالتفاوض معها للوصول إلى حل نهائى للمشاكل بينهما، وبدأ فى حشد قواته على الحدود مع الكويت، وتحسس رد الفعل الأمريكى تجاه ذلك، ويبدو أن صدام تجاهل إعادة تأكيد إدارة بوش «الأب» على مبدأ «عقيدة كارتر» التى كان أساسها قوات الانتشار السريع الأمريكى التى أسست فى اكتوبر ١٩٧٩، وتقوم هذه القوة بوضع خطط لأى طوارئ فى منطقة الخليج.

ثم أنشئت عام ١٩٨٣، فى ظل إدارة الرئيس ريجان القيادة المركزية المسئولة عن هذه القوات، وأساسها حماية «النفط»، وقد أنيطت بالقيادة المركزية مسئولية «شبه الجزيرة العربية والخليج العربى وخليج عدن والبحر الأحمر مع قوس يبدأ من مصر والسودان وصولا إلى القرن الأفريقى ويمتد إلى أفغانستان وباكستان، على بعد حوالى أربعة آلاف ميل، بينما سوريا ولبنان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب وإسرائيل تتبع للقيادة الأوروبية للقوات الأمريكية.

وكان من رسم السياسة الجديدة للقيادة المركزية فى عهد «بوش الأب» والذى عرضها هو «نورمان شوارزكوف» الذى كان يشغل منصب نائب رئيس هيئة الأركان بالجيش الأمريكى، وأصبح مسئولا عن قوات التحالف فى حرب تحرير الكويت، وأحصى شوارزكوف ما لايقل عن ١٣ نزاعا جاريا فى منطقة الشرق الأوسط، وأنه يجب على القيادة المركزية أن تطور خطة عمليات تعالج أسوأ هذه النزاعات.

محاولات الحل :

ومع أن الرئيس مبارك والملك فهد ظلا يعملان على نزع فتيل الأزمة بين العراق والكويت، بمناشدتهما الالتزام وضبط النفس أو التوسط بينهما من وراء الكواليس، إلا أن هذا لم يكن له صدى، وشعر القائدان العربيان «مبارك وفهد» بصدمة شديدة لعدوان صدام على الكويت، لاسيما بعد الجهود الجبارة التى بذلها كلاهما لتهدئة الأوضاع ، فبادرا على الفور إلى معارضته والوقوف فى وجهه، وأصدر مجلس جامعة الدول العربية بناء على اقتراحهما فى ٣ أغسطس عام ١٩٩٠ قرارا بإدانة العدوان العراقى والمطالبة بانسحاب العراق فورا من الكويت دون قيد أو شرط.

وأدرك الملك فهد على الفور - حسب ما جاء فى مذكرات «الأمير خالد بن سلطان» قائد قوات التحالف العربى فى حرب الخليج - أن السعودية قد حاق بها الخطر، وأنه لا توجد جدوى للاعتماد على ما يسمى بـ «الحل العربى» فبادر على الفور فى جس نبض الولايات المتحدة وبريطانيا، لمعرفة مدى التزام الدولتين بالدفاع عن أمن المملكة، مما أسفر عن زيارة «ديك تشينى» وزير الدفاع الأمريكى فى ٦ أغسطس ١٩٩٠، ووصول طلائع القوات الأمريكية بعد ذلك فى أقل من ٤٨ ساعة.

وكان لدى الرئيس مبارك أسبابه التى جعلته ينضم إلى التحالف ضد صدام حسين، إذ أدرك أن صدام لم يصدقه القول، حين وعده بعدم اللجوء إلى القوة، وأحس الرئيس بالحرج والألم لعدم الالتزام بالوعد الذى كان قد نقله للكويتيين والسعوديين والأمريكيين أيضا.

مصالح مصرية حيوية :

ووجد الرئيس مبارك أن المصالح المصرية سوف تتعرض للخطر، إذا

سمح للعراق بالهيمنة على مسرح الشرق الأوسط، ولم يكن مستعدا لمخاطرة واتاحة الفرصة للعراق لإبعاد مصر عن منطقة الخليج، وهى المنطقة التى عبرت مصر دوما عن اهتمامها الراسخ بها، كقوة داعمة للاقتصاد العربى، وقد أسهمت مصر فى حماية الخليج أثناء الحرب العراقية - الايرانية، وأعلنت أمن الخليج جزء لا يتجزأ من أمن مصر.

وهناك سبب آخر استاءت لأجله مصر، وذلك بعد مساهمتها بشكل ضخم فى المجهود الحربى العراقى، أثناء حربها مع إيران، إذ أرسلت مستشارين عسكريين وأسلحة، وما يقرب من مليون ونصف المليون من المصريين للعمل فى الحقول، ومختلف قطاعات الاقتصاد، مما مكن العراقيين من الانصراف إلى المجهود الحربى لكن صدام لم يعترف علانية بهذه المساعدة أبدا، والأسوأ من ذلك أنه سمح للعراقيين بإساءة معاملة المصريين إلى أبعد الحدود.

أما سوريا فكانت أكثر أعضاء التحالف خشية من سيطرة العراق وعدوانه، كان صدام مصمما على معاقبة منافسه القديم الرئيس حافظ الأسد لوقوفه إلى جانب ايران خلال الحرب العراقية - الايرانية، ولو سمح لصدام بابتلاع الكويت، لكان النظام السورى هدفه التالى، دون تردد.. ففى السنة السابقة لغزو الكويت حاول صدام تقويض وضع سوريا فى لبنان، بإرسال الأموال والأسلحة إلى العماد ميشيل عون، وإلى سمير جعجع قائد القوات اللبنانية.

ولذا كان اشتراك الأسد فى التحالف موضع ترحيب كبير لسببين : الأول أن سمعة الأسد كرئيس يؤمن بالقومية العربية، ساعدت على إضفاء صفة الشرعية على التحالف لدى الرأى العام العربى، ثانيا لأن علاقات الأسد الوطيدة مع ايران ساعدت على ضمان حيادها خلال أزمة الخليج، وقد أتت هذه العلاقة ثمارها.

ويقال أن بعض مؤيدى صدام حاولوا إقناعه بالانسحاب من الكويت قبل فوات الأوان، وتقول معلومات حول هذا « إن صدام دعا الملك حسين وعرفات وعلى سالم البيض الزعيم الاشتراكى اليمنى الجنوبى، لتناول الغداء فى بغداد أوائل يناير عام ٩١، وبينما هم يناقشون موضوع العاصفة المرتقبة، ولم يبق سوى أيام قلائل على انتهاء فترة إنذار الأمم المتحدة ، التى كانت محدد لها ١٥ يناير ٩١، استجمع على البيض شجاعته، وقال يبدو أنه لا مفر من الحرب الآن، ولكن على الرغم من أننا جميعا فى قارب واحد، فإنك ياصدام تنفرد وحدك بتسيير الأمور، والوضع خطير، ولا يمكن لشخص واحد أن يعالجه بمفرده، وأعتقد أنه يجب استشارتنا فى كل مرحلة ومشاركتك فى القرارات.

توكلنا على الله :

وتذكر التقارير العسكرية التى حصلت عليها أجهزة المعلومات الأجنبية والعربية حول ما جرى فى يوم ١ أغسطس ١٩٩٠ بأنه فى تمام الساعة الرابعة والنصف، ترأس صدام اجتماعا بمقر قيادة الفيلق السابع العراقى استمر لمدة ساعتين واشترك فيه قادة ورؤساء أركان الجيش العراقى، وفى هذا الاجتماع تم وضع خطة الغزو للكويت.

وبدأ الهجوم العراقى باندفاع ثلاثة ألوية من فرقة «توكلنا على الله» وقد ساعدت طبيعة الحدود الجغرافية بين العراق والكويت على إخفاء تحركات القوات العراقية فى الساعات الأخيرة قبل الغزو.

وفى هذا الوقت وصلت للرئيس مبارك ثلاثة تقارير، وذلك عندما استيقظ على صوت د. أسامة الباز على التليفون يقرأ له هذه التقارير التى وصلت تباعا إلى مكتبه.. الأول، كان من سفير مصر بالكويت، يؤكد أن القوات العراقية احتلت فى الساعة الثالثة صباحا مخفرين للشرطة على الحدود الكويتية العراقية.

الثانى : من سفير الكويت فى القاهرة يبلغ الرئيس رسميا، بأن الكويت تتعرض منذ ثلاثة ساعات لعمل عسكرى عراقى لم تتضح أبعاده بعد.

الثالث : يضيف أن المظليين العراقيين احتلوا فى الثالثة والنصف فجرا مطار الكويت الدولى وقاعدة أحمد الجابر الجوية، مما يؤكد بداية عملية عسكرية واسعة النطاق.

وعندما تلقى الرئيس مبارك أنباء الغزو العراقى للكويت، كلف فى صباح اليوم نفسه الفريق يوسف صبرى أبو طالب والفريق صفى الدين أبو شناف بإعداد تقرير عن الموقف العسكرى وعن الغزو واحتمالات تطوراته وتأثيره على الأمن القومى المصرى، وكان رئيس هيئة العمليات قد أعد مؤتمرا لعرض الموقف بصورة كاملة، وعرضت ثلاثة خرائط من الحجم الكبير للعراق والكويت ومصر، ورسم عليها مجموعة من الدوائر والجداول وبعض التصورات النظرية عن الغزو والقوات العراقية وخبرتها وتسليحها وتطرق النقاش لتأثير الغزو العراقى المباشر على الأمن القومى المصرى، ومسألة اختلال التوازن وخاصة العسكرى فى منطقة الخليج.

واستمرت الاجتماعات على مدى ثلاثة أيام متتالية، وفى أحد الاجتماعات أعلنت عدة تصورات منها :

- إن القوات الأمريكية لن يمكنها السكوت أو التغاضى عما يحدث لتأثيره بصورة مباشرة على المصالح الأمريكية، وأن الولايات المتحدة لديها من الخطط الجاهزة لمواجهة الموقف الذى يتفاوت بين الضربات الجوية والبحرية والمواجهة الشاملة.

- احتمال قيام إسرائيل بضربة خاطفة للعراق لأن الغزو واستمرار الحشود العراقية داخل الأراضى الكويتية، يمثل خللا فى التوازن بمنطقة الخليج الأمر الذى سيؤثر على استقرار المنطقة.

- أن للغزو العراقى للكويت تأثيرا مباشرا على الأمن القومى المصرى لتأثيره المباشر على التنمية الاقتصادية والاجتماعية

بشكل عام خاصة فيما يتعلق بقناة السويس التى يعبر منها ٥٠٪ من البترول القادم من الخليج وسفن البضائع التى تقدر بنحو ٢٤٠٤ ملايين طن.

- هذا بالإضافة لتأثير الغزو على عودة العمالة المصرية بالكويت والعراق والتى تقدر بـ ١٧ ألف عامل فى الكويت و٦٠٠ ألف فى العراق و٨٠٠ ألف فى باقى دول الخليج.

- ان إمكانيات العراق العسكرية هى التى ستحدد تحركاتها وأفعالها فى المرحلة المقبلة بغض النظر عن النيات الطيبة والتصريحات، وأن ميزان القوى بين دول الخليج والعراق يختل بنسبة كبيرة لصالح العراق.

وبحلول شهر ديسمبر عام ٩٠، كانت معظم القوات الرئيسية للتحالف الدولى قد وصلت للأراضى السعودية ولمناطق التجمع الرئيسية فى المنطقة الشرقية، كما كانت باقى قوات الدعم قد أقلعت بالفعل من موانيها، وتم تجهيز قطع الغيار والذخائر لمدة ثلاثة شهور قتال متتالية من القتال. وكانت حرب يناير ٩١ هى أكبر تحالف لحرب فى نهاية القرن العشرين.

وقد أسفرت حرب أكبر تحالف عالمى عن نتائج لم يكن لها أن تكون دون قيام هذه الحرب وإحداث التغيير السياسى والاجتماعى بالمنطقة، فلم تعد العمالة العربية هى العمالة الوحيدة بالدول العربية، ولكن صحبتها جنسيات مختلفة باكستانية وهندية وسريلانكية.

والعامل السياسى الأهم هو أن معظم الدول الخليجية كانت تعارض الوجود العسكرى الأمريكى على أراضيها. وأن تكون له قواعد ثابتة. ويقول شوارزكوف فى مذكراته، أن الحكومات العربية بوجه خاص كانت أحرص على سيادتها من أن تدع القوات الأمريكية تعسكر على أرضها.

وحتى قيام هذه الحرب لم تكن هناك قاعدة عسكرية أمريكية إلا فى سلطنة عمان، وذلك باستخدام جزيرة «مصيرة».

ولكن بعد الحرب أصبح للولايات المتحدة قواعد فى كل من الكويت والسعودية والبحرين وقطر.

وإذا كانت هذه الحرب قد منحت قوات التحالف الغربى بقيادة الولايات المتحدة فرصة كبيرة وسانحة لتوسيع رقعة صفقات السلاح بهذه المنطقة، والعمل على دعم التعاون والمشاركة فى التدريب، وأعطت الولايات المتحدة فرصة عمرها، بانشاء الأسطول الخامس البحرى لها منذ قيام هذه الحرب لحماية منطقة الخليج المانحة «للنفط» لها. وتأمين هذه المنطقة سواء من روسيا أو إيران، أو حتى من الأفعال الشاذة لبعض الجيران العرب وعلى رأسهم «العراق».

الفصل السادس

الأمريكيون قتلوا ٦١٨ ألف أمريكى ![(١)]

سبب الحرب : شقاق رهيب حول تحرير العبيد الزنوج !

- ولايات الجنوب : أعلنت الانفصال لتحمى اقتصادها الظالم !

- ولايات الشمال : أعلنت الحرب لكى تفرض مبادىء التحرر بالقوة !

وسط الحرب الأهلية التى عرفها العالم تتميز الحرب الأهلية الأمريكية «١٨٦١ -١٨٦٥» بأن أسبابها المعلنة كانت «أخلاقية» ومبدأية تتعلق بتحرير العبيد، وأن نتائجها أيضا انعكست بشكل مباشر على ظهور الولايات المتحدة الأمريكية فى شكلها الموحد والمعاصر.. الذى تطور انطلاقا من هذه الحرب الطاحنة لتصبح القطب الأوحد فى ميزان القوى العالمية، كما تتميز أيضا بأنها الحرب التى خسر الشعب الأمريكى فيها أكبر قدر من أرواح أبنائه بين الشماليين والجنوبيين، وهى الخسائر البشرية التى لم تعرفها الولايات المتحدة بعد ذلك فى أية حرب تالية حتى لو كانت الحرب العالمية الثانية أو حرب فيتنام. أو حتى فى الهجوم الإرهابى الأخير.

المثير أن عدد من ماتوا أثناء الحرب الأهلية الأمريكية بسبب المرض وسوء الأحوال الصحية كان ضعف عدد من سقط فى ساحات المعركة، وهو الأمر الذى يدل بشكل مباشر على الأوضاع فى الوطن الأمريكى فى ذلك الوقت. ويقدر عدد الذين سقطوا من الشماليين بحوالى ٣٦٠ ألف قتيل وعدد من سقطوا من الجنوبيين بحوالى ٢٥٨ ألفا وهو ما يصل بالعدد الإجمالى للخسائر البشرية إلى أكثر من ستمائة ألف قتيل وهو الرقم الذى يدل بشكل مباشر على

---

(١) ايهاب الزلاقى

مدى الكارثة التى عاناها شعب الولايات المتحدة خلال سنوات الحرب الأهلية.. وبيد الأمريكيين أنفسهم.

خلافات معقدة :

ويتفق معظم المؤرخين على أن الحرب الأمريكية لم تحدث بين ليلة وضحاها فقد كان هناك العشرات من الأسباب الواضحة للعيان والتى كانت تقرب من وقوع الحرب، إذ لم يفلح السياسيون فى ذلك الوقت فى تقليل مناطق الخلاف بين الشمال والجنوب، لأن الأمر كان أعقد كثيرا من مجرد الخلافات السياسية حيث وصل إلى نمط الحياة والاقتصاد وسلوكيات البشر، وهو الأمر الذى صنع كتلتين فعليتين فى الولايات المتحدة الناشئة لم تتمكنا من الامتزاج أو الانصهار بشكل طبيعى.. وعوضا عن ذلك وصل بهما الأمر إلى رفع السلاح.

ولكى يمكن فهم أسباب الحرب الأهلية بوضوح يجب أن تلقى نظرة على الاختلافات العميقة بين الولايات الشمالية والجنوبية، تلك التى شكلت الأرضية الخصبة لانفجار الحرب، فمنذ البداية كان الانفصال بين الشمال والجنوب يعود لعوامل جغرافية طبيعية . ففى الجنوب وجد المستوطنون الأوائل المناخ الدافىء والتربة الخصبة المثالية لنمو زراعة التبغ، وبالفعل بدأوا فى إنشاء العديد من مزارع التبغ الكبيرة ومعها جلبوا المئات من العبيد الأفارقة للعمل فى هذه المزارع، وفيما بعد زادت المزارع لتشمل محاصيل أخرى مثل القطن وقصب السكر وغيرهما والتى ازدهرت بشدة فى الجنوب.

وبالطبع كانت قوة العمل الرئيسية فى كل هذه المزارع من العبيد، وتأسس نمط حياة ريفية مبنى على الاقتصاد الزراعى المستبد، الذى يقف على أكتاف قوة العمل المكونة أساسا من العبيد الذين ليست لهم أية حقوق على الإطلاق. على الجانب الآخر لم تكن التربة الملوثة أو المناخ فى الشمال صالحين لتأسيس

مثل هذا النمط الاقتصادى الزراعى.. ولذلك اعتمد اقتصاد الشمال على التجارة أكثر من الزراعة وهو ما أدى بدوره لتركز المدن الكبرى فى الولايات الشمالية.

الشماليون «أو اليانكيز» كانوا أكثر تفاعلا مع عوامل التغيير والحداثة فى قيم المجتمع وهو الأمر المعتاد فى المدن عنه فى الريف، ومن هذه القيم ترسخت قيمة العمل الشاق والتركيز على التعليم وعلى الاستقلال الاقتصادى . والأهم من ذلك الاعتقاد فى أن للمجتمع الحق أن يقرر ما هو أخلاقى وما هو غير أخلاقى.

وبينما أخذ الشماليون يتطلعون لمستقبل أفضل.. وأكثر تطور احتفظ الجنوبيون بالقيم الكلاسيكية القديمة التى تأبى الحركة إلى الأمام، يدعمهم فى ذلك الاستمتاع بكميات الثروة الناتجة عن النمط الاقتصادى الناجح. وبدأ الخلاف الحقيقى بين نمطين مختلفين من التفكير وطريقة الحياة فى البروز مع الحديث عن العبودية والرق فى الولايات المتحدة.

فمع بدايات القرن التاسع عشر كانت رؤية معظم الشماليين تعتبر الرق عملا خاطئا وضد كل الأخلاق الدينية والإنسانية. وبدأت عدة حركات سياسية فى العمل على إلغائه تماما. وعلى الجانب الآخر كان الجنوبيون يعتقدون أن اقتصادهم سينهار كلية بدون وجود الرق خاصة أن لديهم عقيدة راسخة فى أن السود أقل منزلة من البيض!

انفجار حتمى :

هذه الأفكار لم تكن بعيدة عما يجول فى خاطر النخب السياسية فمثلا وقف السيناتور «ويليام سيوارد» من نيويورك فى عام ١٨٥٨ ليقول أن الاختلافات بين الشمال والجنوب هى «نزاع متعذر الكبت»، وأن موضوع العبودية هو القلب فى هذا النزاع. وشهد الكونجرس الأمريكى سلسلة من

النقاشات الحادة بين النواب الجنوبيين والشماليين حول موضوع إلغاء العبودية خلال السنوات العشرة من منتصف القرن التاسع عشر.

حرصا على عدم تفكك الدولة تم اتخاذ بعض الإجراءات فى هذا الشأن، تم اعتبارها نوعا من المساومة السياسية لإرضاء جميع الأطراف والتى تم إقرارها فى الكونجرس، ومنها مثلا السماح بوجود العبودية مع منع التجارة فى البشر داخل واشنطن العاصمة.

وعلى الجانب الآخر كان هناك أحد القوانين الخاص بمقاطعة كولومبيا والذى نص على ضرورة إعادة الشماليين للعبيد الهاربين، هذا القانون تحديدا كان من القوانين التى واجهها الشماليون بشدة عبر الالتفاف عليه حيث تم تنفيذ عملية أطلق عليها « سكة حديد الأنفاق».. وهو نظام لتسكين وتهريب وتوطين العبيد الفارين، وكانت الطرق فى هذه العملية تؤدى من ولايات العبيد إلى الولايات الحرة وإلى كندا، وفى هذه الأجواء الملتهبة شارك الأدب بدوره فى تدعيم قضية حرية العبيد حيث ظهرت رواية «كوخ العم توم» التى كانت منشورا واضحا للجنوبيين بتغيير الأفكار القديمة.

وفى إطار الصراع السياسى والقانونى المحتدم فى هذه الفترة ظهر قانون كانساس - نبراسكا فى عام ١٨٥٤ الذى أجازه الكورنجرس لتشكيل مقاطعتى نبراسكا وكانساس وسمح فيهما بالعبودية وقال القانون أنه عند اكتمال وضع المقاطعتين كولايتين أمريكيتين، يمكن أن يتم هناك تصويت حر بين شعبيهما للاختبار ما بين جواز العبودية أو عدم جوازها. واعتبر القانون أن هذا الأمر هو ترسيخ لمبدأ السيادة الشعبية ولكن الكثير من أهل الشمال عارضوا هذا القانون لخوفهم من أن فكرة العبودية لو دخلت للمقاطعات الجديدة فلن تخرج منها أبدا.

ومع فوز الزعيم الأمريكى «إبراهام لينكولن» بالانتخابات الأمريكية عام ١٨٦٠ خشى الجنوبيون من أن هذا الرجل سيحجم الرق أو يلغيه تماما. وبدأ

الكثير من القادة الجنوبيين فى الحديث علنا عن الانسحاب من الاتحاد الأمريكى اعتمادا على مقولات سادت فى هذه الفترة من أن الولايات الجنوبية تمتلك من القوة والنفوذ والثراء ما يمكنها من تنفيذ هذا المخطط.. وهو أمر لا تستطيع الولايات الشمالية الوقوف ضده قانونا، خاصة أن الاتحاد الفيدرالى قام بين دول حرة مستقلة تستطيع الانسحاب منه فى أى وقت.

انفصال الولايات:

بالفعل ومع حلول شهر ديسمبر من نفس العام كانت ولاية «ساوث كارولينا» هى أولى الولايات المنسحبة من الاتحاد وبعدها بفترة قليلة تبعتها ولايات «ميسيسبى»، و«فلوريدا» و«الباما»، و«جورجيا»، و«لويزيانا». وفى شهر فبراير من عام ١٨٦١شكلت الولايات الستة فيما بينها الولايات الاتحادية الأمريكية وقامت بانتخاب «جيفرسون ديفز»- من ولاية «ميسيسبى» - رئيسا لها، ولكن لينكولن أعلن بوضوح فى خطاب تنصيبه فى شهر مارس من نفس العام أن الاتحاد الفيدرالى يدوم للأبد وأنه سيستعمل السلطة التى منحته إياها الأمة لاستعادة ممتلكات الاتحاد فى الجنوب إشارة للولايات الستة المنفصلة.

كان من بين "أملاك الاتحاد الحصن العسكرى فى سومتر بميناء «شارلستون» فى «ساوث كارولينا» والذى قام الاتحاديون «المنفصلون» بإطلاق النار عليه فى ١٢ ابريل وأجبروه على الاستسلام فى اليوم التالى.. هذا الحادث هو الذى افتتح الحرب الأهلية رسميا، لأن لينكولن استدعى قوات الاتحاد لاستعادة الحصن وهو ما اعتبرته الولايات الجنوبية إعلانا بالحرب. وانضمت إليها ولايات «فرجينيا» و«اركنساس» و«نورث كارولينا» وتم اعتبار مدينة «ريشموند» عاصمة «فرجينيا» هى عاصمة الاتحاد المنفصل عن الاتحاد الأصلى.

اندلعت الحرب الأهلية بضراوة وكان لاتساع جبهة القتال بعرض الولايات المتحدة أثر كبير على سير الأحداث حيث يمكن القول أن هذه الحرب شهدت جبهتى قتال رئيسيتين هما الجبهة الشرقية والجبهة الغربية.

وكانت توقعات قادة الشمال أن الحرب سوف تنتهى تماما خلال ثلاثة أشهر ولكن الانتصارات السريعة والمتلاحقة فى البداية لجيوش الجنوب أكدت أن الحرب ستدوم طويلا. وكانت انتصارات الجنوبيين فى معركة «بول رن» التى أجبر فيها الجنوبيون القوات الشمالية على الانسحاب المهين إلى واشنطن العاصمة.

الأكثر دموية :

وكان يوم المعركة التى أطلق عليها موقعة «أنتيتام» هو أكثر دموية فى تاريخ الحرب الأهلية الأمريكية حيث قتل أكثر من ٢٠٠٠ شمالى و٢٧٠٠ جنوبى وبلغت الإصابات فى الجانبين حوالى ١٩٠٠٠ إصابة.. مات منهم بعد ذلك حوالى ٣٠٠٠ مع ذلك اعتبر الشماليون أنفسهم منتصرين فى ذلك اليوم لأن الجنوبيين قاموا بالانسحاب.

ولم يفوت الرئيس الشرعى «إبرهام لينكولن» هذه الفرصة حيث انتهز أجواء الاحتفال بالنصر فى إحدى المعارك الكبرى وقام فى ٢٢ سبتمبر ١٨٢٢ بإعلان أمر تمهيدى لتحرير العبيد رسميا، وقال الأمر الرئاسى أن جميع العبيد القاطنين فى الولايات المتمردة هم أحرار. ولم يشر الأمر للوضع فى الولايات المؤيدة للاتحاد، ولكن لنكولن أعلن رغبته فى التحرير الكامل والنهائى وللعبيد فى كل الولايات المتحدة الأمريكية.. وهو الأمر الذى ساعد فيه بالفعل فى عام ١٨٦٥ عندما مارس ضغطا على الكونجرس لإقرار التعديل فى المادة الثالثة عشرة من الدستور والتى ألغت العبودية نهائيا فى كافة أنحاء الولايات المتحدة.

خطة بسيطة :

خلال المعارك المحتدمة كان الرئيس «إبراهام لينكولن» يحاول الوصول إلى صيغة عسكرية موحدة تضمن لقواته الانتصار، وكانت خطة «لينكولن» البسيطة هى توحيد قيادة القوات الشمالية تحت قيادة رجل واحد، والضغط بكامل قواته بطول الجبهة وعرضها على القوات الجنوبية لتحقيق النصر. ووجد لينكولن فى الجنرال «جرانت» الشخصية التى يبحث عنها، وبالفعل فى ٩ مارس ١٨٦٤ تولى «جرانت» قيادة كل الجيوش الشمالية المحاربة، وقام بجمع حوالى ١١٨ ألف مقاتل تحت قيادته واستعد للسير لمواجهة الكونفيدراليين فى معركة يخرج منها منتصر واحد واضح، وبالفعل واجه «جرانت» غريمه «لى» الذى لم يستطع أن يجمع أكثر من ٨٦ ألف مقاتل فى ٥ مايو فى معركة «وايدلدرنس» التى استمرت يومين. وعانى الطرفان كثيرا من الخسائر الفادحة ولم يستطع طرف منهما إعلان الانتصار.

واشتبك الطرفان مرة ثانية فى ٨ مايو وكانت الخسائر أكبر ولكن دون منتصر أيضا. وتحرك جرانت بقواته فى اتجاه مدينة «ريتشموند» حيث قابل قوات «لى» فى ١ يونيو. ووقف ٥٠ ألف مهاجم فى مواجهة ٣٠ ألف مدافع فى مساحة خمسة كيلومترات لتحصد المدفعية أرواح حوالى ٧٠٠٠ جندى من الطرفين. وشعر «جرانت» أن استراتيجيته خاطئة حيث يمكن أن يتحصن «لى» فى ريتشموند ليطول زمن الصراع وحجم الخسائر.

ولذلك حاول بشكل نهائى القيام بضربة عنيفة وسريعة تنهى الأمر بأكمله ولكنه لم يستطع ذلك.. وانتهى به الأمر لفرض حصار ضارب على مدينة «بيتسبرج» التى تحصن بها «لى» مع قواته، واستمر هذا الحصار الطويل لمدة زادت على تسعة أشهر.

وخلال هذه الفترة قاد اجنرال «وليام شيرمان» حملة شمالية على المحور الشرقى لإنهاء نفوذ باقى القوات الجنوبية العاملة.

وقامت قوات شيرمان بعملية مسح كاملة ومأساوية لمساحة بلغت ٨٠ كيلومترا تم تدميرها عن آخرها فى طريقها لولاية فيرجينيا للانضمام لقوات «جرانت» التى أحكمت السيطرة على «لى».

فى ٩ ابريل عام ١٨٦٥ قدر الجنرال «لى» الذى بلغت كل القوات الباقية معه حوالى ٥٠ ألف جندى فى مواجهة قوات الشمال البالغة ١١٠ آلاف أن الأمر ميئوس منه ويعتبر الاستمرار فى القتال انتحارا، فكتب رسالة إلى «جرانت» يطلب فيها لقاءه للاتفاق على شروط الاستسلام.. وبالفعل التقى الرجلان فى ١٠ ابريل وعرض «جرانت» شروطا كريمة للاستسلام قبلها «لى» وهو شاكر. وكانت تلك اللحظة تعنى الهزيمة الكاملة للجنوب الانفصالى. وبحلول يوم ٢٦ مايو قام آخر المحاربين فى جيش الجنوب الجنرال «أدموند كيربى» بالاستسلام النهائى.

الثمن الباهظ :

انتهت الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة وانتهت العبودية والرق فى جميع أنحاء الولايات، واحتفظ الاتحاد الفيدرالى بكل ولايته وضمن تماسك أمريكا وصعودها كدولة عظمى ولكن الثمن كان باهظا سواء بعدد القتلى الذين تجاوزوا ٦٠٠ ألف قتيل، أو بالدمار الاقتصادى الذى عاشته الولايات لكنه كان أكثر فداحة فى الجنوب الذى انهار اقتصاده تماما.

وفعليا أثناء وبعد فترة الحرب التى غيرت هى الأخرى الكثير من مفاهيم القتال السائدة فى هذه الفترة.. لدرجة أنه أطلق عليها أول حرب حديثة، خاصة أن الجنود فيها قاتلوا للمرة الأولى تحت قيادة ميدانية موحدة، وقدمت هذه

الحرب للمرة الأولى مناطيد المراقبة (الأب الشرعى لطائرات التجسس) والسفن المدرعة والألغام والغواصات، كما أنها كانت حربا شاملة بالمفهوم الحديث حيث استخدم الطرفان فيها كل المصادر المتاحة لهما فى ذلك الوقت.

إن الحرب فرضت إلغاء العبودية لكن الضغط الشعبى المتوالى هو الذى استطاع تغيير المفاهيم والأفكار الاجتماعية المتوارثة عن احترام حقوق الزنوج، وهى الحقوق التى حصلوا على معظمها فعلا بعد عشرات السنوات من انتهاء الحرب الأهلية.

الفصل السابع

«المينى بومب» تدمر الكهوف وتحرق مخازن الذخيرة(١)

د. فوزى حماد : الجموح الأمريكى قد يؤدى لاستخدام السلاح النووى!

د. حامد رشدى : المخزون الذرى ٥ آلاف ضعف ما ظهر فى الحرب العالمية الثانية !

د. عبد الرحمن سلامة : الأفغان يستطعيون تصنيع «قنابل الفقراء» !

فى أغسطس ١٩٤٥ ألقى الأمريكان قنبلتهم النووية على اليابان فانتهت الحرب العالمية الثانية بكارثة ذرية. وبعد أكثر من نصف قرن عاد شبح الحرب النووية يطرح احتمال تكرار المأساة. ويلوح من جديد بإمكانية تحول الصراع الكامن بين الدول النووية إلى مواجهة حقيقية لا تخلف وراءها سوى الدمار.

والسؤال الذى تفرضه مجريات الأحداث الراهنة هل كانت القنبلة النووية التى سقطت على كل من «هيروشيما» و«نجازاكى» منذ ٥٦ عاما هى الأخيرة؟! وهل نحن مقبلون على حرب نووية أخرى ؟!

قبل أن نجيب .. تعالوا لنعود بالذاكرة قليلا لنستوضح أبعاد الكارثة.

ولعل الأرقام ترسم لنا ملامح الصورة التى أحدثتها قنبلة اليورانيوم وقتها.. وكانت تزن عند سقوطها فوق مدينة «هيروشيما» ١٢٫٥ ألف تنت "TNT" ، وهى القدرة التدميرية لها. وكان من نتائجها مصرع ١٤٠ ألف قتيل من مجموع سكان المدينة البالغ – وقتها – ٣٥٠ ألف نسمة، وسقوط مائة ألف

---

(١) روزاليوسف – ألفت سعد ٢٦/١٠/٢٠٠١

جريح، وتدمير وإحراق ٩٠٪ من مباني المدينة متمثلة في ١٢ ميلا مربعا من مساحتها الكلية.

أما في مدينة «نجازاكي» فقد أسقطت الولايات المتحدة قنبلة البلوتونيوم «٢٣٩» التي تزن ٢٢ ألف «تنت» وعلى الرغم من أن القوة التدميرية لقنبلة «نجازاكي» كانت تفوق قنبلة «هيروشيما» المعروفة باليورانيوم «٢٣٥» فإن خسائر «نجازاكي» كانت أقل حجما لوجود تلال بالمدينة صنعت حائلا دون انتشار مساحة التدمير، فقد سقط بسببها ٧٤ ألف قتيل ، وجرح ٧٥ ألفا من مجموع سكان المدينة البالغ وقتها ٢٨٦ ألف نسمة، وتم تدمير ٤٫٥ ميل مربع من إجمالي مساحة «نجازاكي» - ١٣ ميلا مربعا، أي ما يزيد على ثلث مساحتها.

لم تنته المأساة عند هذا الحد، بل خلفت القنابل الذرية جيلا من المشوهين والمرضى والمصابين بالتخلف العقلي، وظهرت أعراض الشيخوخة المبكرة على الناجين، ومعاناتهم الواضحة من صعوبة التنفس، وضعف القدرة على الإبصار وعدم التركيز وليونة البشرة، كما أصيب معظم الأطفال حديثي الولادة ممن تعرضوا للإشعاع بالتخلف العقلي ونقص النمو.

لم تتوقف الإصابات عند حد الجروح أو فقد الأعضاء والتشوهات، وإنما امتدت إلى تعرض المئات من المصابين لضغوط نفسية بسبب الحروق الواضحة على أجسامهم وإزدياد حالات سقوط الشعر والنزيف المستمر، كما ارتفعت أعداد المصابين بالنوبات العصبية وعدم الاتزان النفسي، وقلة التركيز الذهني والإحباط والجبن، وصاحبت تلك الأعراض حالات من الدوار والصداع والإغماء.

ضبط النفس التام :

إذا كان هذا هو حجم المأساة الناجمة عن استخدام السلاح الذري قبل

أكثر من نصف قرن، فكيف يمكن أن تكون الصورة الآن وقد تطور السلاح النووى إلى أبعد مدى ؟!

وما شكل الحرب النووية القادمة ؟!

يقول د. فوزى حماد أستاذ العلوم النووية ورئيس هيئة الطاقة الذرية الأسبق بعد استخدام القنبلة الذرية فى نهاية الأربعينيات كان هناك شبه اتفاق على ألا يتكرر ذلك الحدث مرة أخرى، وخاصة بعد تقدم الاتحاد السوفيتى - السابق - فى المجال النووى، مما خلق توازنا بين الدولتين العظميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، لذلك ورغم شدة الصراعات فى «فيتنام» و«كوريا» فقد كان هناك نوع من ضبط النفس التام وعدم تصعيد الصراع إلى حد استخدام السلاح النووى، لكن فى ظل المناخ الحالى الذى يسوده التوتر قد يحدث استخدام لذلك السلاح، وقد صرحت بالفعل مصادر رسمية باحتمال استخدام السلاح النووى.

رغم غرابة موقف كل من الاتحاد السوفيتى والصين - القوة النووية الخامسة المعترف بها - وذلك بتأييدها مهاجمة الولايات المتحدة لأفغانستان، فإن احتمال رفض الولايات المتحدة ترك المنطقة بعد القضاء على «طالبان» سوف يوجد مناخا يرجح استخدام السلاح النووى مع أن هناك اتفاقا بين الدول النووية على ألا تكون إحداها البادئة باستخدام هذا السلاح، لكن العالم تسوده الآن حالة من الفوضى يمثلها الإرهاب من جانب ومن الجانب الآخر الجموح الأمريكى

وعن مدى تطور السلاح النووى منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن، يقول د. فوزى حماد لقد حدث تطور هائل وتحولت القنابل الذرية إلى قنابل هيدروجينية تفوق الذرية فى قدرتها التدميرية مئات المرات، وتم تصنيع ما يسمى بالقنابل النظيفة التى تؤدى إلى تدمير أكثر مع عدد أقل من الضحايا

البشرية، كذلك تم تصنيع القنابل النووية الصغيرة التى لا تزيد زنتها على كيلو تنت واحد، وهذا النوع مصمم لكى يفجر أماكن محددة، لكنها تنفذ إلى عمق المكان ليحدث التدمير فى عمق الأرض وهذا النوع من المرجح استخدامه فى أفغانستان لوجود الكهوف وأماكن الاختباء للأشخاص أو المخازن، هذا إذا تطورت الأمور إلى وضع أسوأ، وما يزيد من احتمالات استخدام السلاح النووى عدم استقرار الوضع الداخلى فى باكستان -وهى دولة نووية- وشدة المعارضة قد تؤدى إلى سقوط الحكم الحالى، وإذا ما تصاعد الموقف هناك فلن نعرف من سيمتلك التكنولوجيا النووية، وهذا كله له تداعياته على الجانب الهندى.

وعلى الرغم من أن «الصين» تلزم الوضع الحيادى إلا أنها فى وضع المراقب، وإذا كانت قد تعايشت -نوويا- مع كل من الهند وباكستان، فإن التواجد الأمريكى فى المنطقة قد يخل بهذا التوازن.

خطورة الوضع النووى :

ومعروف - كما يقول د. حماد - أن الدول النووية الكبرى تمتلك ٣٠ ألف رأس نووى، وبعد الاتفاقات الأخيرة تقرر تخفيضها إلى عشرة آلاف رأس، بل أن الأمريكيين ساعدوا الروس فى فك هذه الرؤوس التى تتكون من اليورانيوم «٢٣٥» والبلوتونيوم «٢٣٨»، والمفترض أن تستخدم هذه الرؤوس فى الأغراض السلمية، أما أخطر ما يحدث الآن فى المجال النووى بسبب الأحداث الأخيرة، فهو أن الهند وباكستان عندما قامتا بتفجيراتهما النووية رفض العالم هذه التفجيرات وفرضت الأمم المتحدة والولايات المتحدة عقوبات على كل منهما، لكن بعد تعاون البلدين إثر أحداث سبتمبر أسقطت الولايات المتحدة تلك العقوبات، مما يعنى الاعتراف الضمنى بشرعية التفجيرات التى حدثت فى البلدين وبأنهما أصبحتا رسميا دولتين نوويتين مثل الدول الخمس المعروفة، وهو وضع قد يسمح

لدول أخرى مثل إسرائيل بأن تقوم بتفجيراتها النووية، أو يعترف بها كدولة نووية، وهذا القدر من الشرعية الذى منحته الولايات المتحدة لكل من الهند وباكستان قد يؤدى إلى خطورة الوضع النووى فى العالم.

ويقول د. حامد رشدى القاضى، رئيس هيئة الطاقة النووية الأسبق :

«الكيلوتنت» إلى «الميجاتنت» كما أن مخزون هذه القنابل يساوى خمسة آلاف ضعف كافة التفجيرات التى حدثت فى الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من ذلك فلا أرى احتمال استخدام القنابل النووية ضد أفغانستان، بدليل أن الأمريكيين لم يقدموا على استخدام السلاح النووى ضد الفيتناميين حتى بعد دخولهم السفارة الأمريكية فى «سايجون» وذبح الدبلوماسيين الأمريكيين هناك.

وحاليا تجرى أبحاث لإنتاج قنابل نووية تكتيكية صغيرة ليست لها قوة تدميرية عالية، وللأسف تشارك إسرائيل فى هذه الأبحاث، وليس معروفا هل ستستخدم هذه القنابل فى الحرب الحالية أم لا ومن غير المحتمل استخدام القنابل النووية النمطية، ولا سيما أن الجنود الأمريكيين متواجدون فى المنطقة، وهذا السلاح يستخدم للردع وليس للحرب.

وبالنسبة للصراع الذى قد ينشأ بين الدول النووية الكبرى فلا أرى - والكلام للدكتور حامد رشدى - أنه قد يتطور للأسوأ، لأن الروس وافقوا على التدخل الأمريكى فى المنطقة خوفا من التهديد الذى تمثله «طالبان» والصينيون أيضا يكرهون «تنظيم القاعدة» فلم يغب عن ذاكرتهم ما فعله «طالبان» فى تماثيلهم «البوذية»، ومع ذلك فليس فى اعتقادى أن هذه الدول سوف ترضى بأن تقلب الولايات المتحدة ميزان القوى فى المنطقة.

قنابل الفقراء :

لكن السلاح النووى لم يعد هو الأقوى بعد ظهور السلاح البيولوجى الأكثر فتكا بالبشر

ويرى د. عبد الرحمن سلامة رئيس مركز الأمان النووى السابق أن تكتل الدول النووية فى منطقة واحدة بداية من روسيا والصين والهند وباكستان وأيضا إيران التى لها نشاط نووى لم يعلن عنه حتى الآن، يزيد من احتمالات القلق وحدوث اضطرابات، أما داخل أفغانستان فهناك قلق بالغ لإمكانية استخدام أسلحة الدمار الشامل خلال الحرب الحالية، ولا أستبعد وجود أسلحة لدى الأفغان ذات عناصر إشعاعية تصم مواد نووية بسيطة يمكن استخدامها فى تصنيع قنابل نووية بدائية، لكنها ذات أثر فعال مثل الكوبالت والبولتونيوم واليورانيوم « ٢٣٥ » شديدة التخصيب

فهذه العناصر كان من السهل تهريبها والحصول عليها من جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق وهى تسمى «قنابل الفقراء»، وقد أتاحت ثورة المعلومات التكنولوجية سهولة تجميع هذه العناصر الإشعاعية والبيولوجية التى تعد أسلحة الدولة الصغيرة غير القادرة على الدخول إلى النادى النووى!.

يضيف د. سلامة إن احتمالات استخدام الولايات المتحدة للسلاح النووى ليست مستبعدة، فقد استخدمت الأسلحة المحملة باليورانيوم المخصب فى حرب الخليج وفى «البوسنة» ولانزال الأمراض الإشعاعية التى يعانى منها الآلاف حتى الآن من شعب العراق و... البوسنة أوضح شاهد على تلك الفعلة

الفصل الثامن

٧٠٪ من ضحايا الحروب

نساء تعرضن للاغتصاب!! (١)

- اليهود عاملوا النساء باعتبارهن غنائم حرب كالأرض والإبل والمواشى.
- الجنود الروس اغتصبوا آلاف الألمانيات فى الحرب العالمية الثانية !
- اليابانيون اغتصبوا آلاف النساء خلال حربهم مع الصين وأجبروا الآباء والإخوة على اغتصاب بناتهم وشقيقاتهم.

كل ما كان يهمنى فى الحرب ضد البوسنة هو الأرض والنساء لأن الاثنين يخلقان الحياة..

مقولة قالها الجنرال «ملاديك» قائد القوات الصربية السابق فى البوسنة الذى يحاكم حاليا فى محكمة جرائم الحرب بسبب جرائمه التى ارتكبها ضد الإنسانية وضد النساء فى حرب البوسنة.

وإذا كانت مقولة «ملاديك» كفيلة بأن توضح المأساة التى عاشتها المسلمات فى البوسنة فإن وقائع التاريخ تؤكد أن استخدام النساء كوسيلة من وسائل الحرب لم يكن قاصرا على البوسنة فقط بل امتد إلى جميع مناطق النزاع فى العالم.. حيث تؤكد الإحصائيات أن ما يقرب من بين ٧٠٪ من ضحايا النزاعات الأخيرة مدنيون، ٧٠٪ منهم من النساء أغلبهن تعرضن للاغتصاب..

والأمر لا يقف عند حد الحرب الحديثة بل إن التنكيل بالنساء فى الحروب

---

(١) سهير شمردل - ميرفت الحطيم

يمتد إلى أزمنة سحيقة وكانت الحرب العالمية الثانية واحدة من أكبر الحروب التى تم التنكيل بالنساء فيها، وهو ما دفع النجمة العالمية «صوفيا لورين» لتقديم فيلم عن ظاهرة اغتصاب النساء فى الحروب تحت عنوان «امرأتان».

وفى الفيلم الايطالى قامت صوفيا بدور أم وابنتها المراهقة تم اغتصابهما على أيدى جنود الحلفاء أثناء نزوحهما من مدينتهما التى تعرضت للقصف.. وقامت صوفيا بتجسيد مشاعر المغتصبة باقتدار فنالت عن دورها فى الفيلم جائزة الأوسكار عام ١٩٦١، ورغم المأساة التى قدمتها صوفيا لورين فى فيلمها فان استعراض تاريخ المرأة واستغلالها فى الحروب يكشف عن مآس أعظم لا يمكن من فرط بشاعتها تقديمها فى أفلام..

ففى الحروب البدائية كانت النساء مادة للهجوم المباشر خاصة فى الحرب بين اليونان القديمة والرومان.. وكان اليهود فى حروبهم يتعاملون مع النساء باعتبارهن من غنائمب الحرب كالأرض والإبل والمواشى، وكانت الأسيرات منهن يتحولن غالبا إلى جوار أو خادمات وفى أفضل الأحوال كن يجبرن على أن يكن خليلات للجنود..

يظهر ذلك من حرص اليهود على أسر العذارى وهو ما تكشف عنه نصوص العهد القديم والذى جاء فيه أن قبائل اليهود اجتاحت دولة الكنعانيين وأخذت غنائم حرب عبارة عن أغنام وماشية بالإضافة إلى ٣٢ ألف فتاة عذراء.

طقس المعارك :

وبمرور الوقت تحول اغتصاب النساء إلى تكتيك أساسى من تكتيكات بعض الحروب هدفه النيل من الروح المعنوية للطرف الأخر وكسر شوكة وعزيمة جنوده بضربهم فى أعز شىء لديهم وهو شرفهم .. وأصبح اغتصاب النساء طقسا من طقوس أرض المعارك ومجالا لاستعراض قوة القوات المنتصرة.

ورغم تقدم مفاهيم حقوق الإنسان فإن هذه العادة الوحشية امتدت إلى الحروب الحديثة، وكانت الحرب العالمية الثانية هى أكثر حرب تم فيها انتهاك النساء وسجلت منظمة حقوق الإنسان العالمية أن النساء والفتيات ينتهكن بكل خسة فى كل المناطق المحتلة والمهاجمة من العالم.

ففى قرية «بوردوابيفكا» الأوكرانية قام الفاشيست خلال الحرب العالمية الثانية بالاعتداء على كل امرأة وفتاة يصادفونها، وفى إقليم «بريزوروفكا» وإقليم «سمولنيسك» استباح الجنود الألمان المخمورون السيدات والفتيات التى تتراوح أعمارهن ما بين ٦ إلى ٣٠ سنة.

وفى مدينة «سمولنيسك» قام القائد الألمانى بفتح بيوت للدعارة من أجل الضباط فى أحد الفنادق التى تم إغلاقها وقام القائد الألمانى بأخذ الفتيات والنساء عنوة إلى الفندق وتم سحلهن فى الشوارع من أذرعتهن وشعورهن.

وفى مدينة «لفوف» كان هناك ٣٢ سيدة يعملن فى المصانع. قام الجنود بالقبض عليهن وفى البداية تم اغتصابهن ثم قام الجنود الألمان بقتلهن. ولم يقف الأمر عن هذا فقط.. بل إن الجنود الألمان قاموا بجرجرة الفتيات والنساء الصغيرات فى مدينة «لفوف» أيضا إلى حديقة «كيزكيوزكو» حيث قاموا باستباحة الفتيات بمنتهى الوحشية، وتصادف ذلك مع مرور أحد القساوسة المسنين وكان يحمل فى يده صليبا وحاول هذا القس منعهم ولكنهم ضربوه ثم قتلوه فى النهاية.

هروب من الغزاة:

وبالقرب من مدينة «بوريسوف» فى «بيلوروسيا» هربت ٧٥ فتاة وامرأة من جنود الغزاة فوقعن فى أيدى القوات الألمانية.. فقاموا باغتصابهن ثم قتلوا ٣٦ منهن، كما قام ضابط ألمانى يسمى «هومر» بإصدار أوامره إلى الجنود فساقوا

إحدى الفتيات وتدعى «بلشوكوفا» -١٦سنة - إلى الغابة حيث قاموا باغتصابها، وبعد قليل ساقوا بعض النساء إلى نفس المكان بالغابة فوجدوا «بلشكوفا قد تم تعليقها ميتة على لوحة بالقرب من الأشجار، كما قام الألمان بقطع صدرها فى حضور هؤلاء النسوة.

ولم تنحصر هذه الممارسات الوحشية فى جنود الألمان والمحور فقط بل امتدت إلى جنود الحلفاء أيضا فعندما بدأت موازين الحرب فى الانقلاب اجتاحت القوات الروسية برلين واحتلتها عام ١٤٥، وقام الجنود الروس باغتصاب مايزيد على «١١٠» آلاف امرأة بناء على تقديرات منظمات حقوق الإنسان، رغم أن أقل تقدير وضعه المراقبون لعدد النساء المغتصبات فى برلين كان ٨٠٠ ألف امرأة.

كما أعطى الجيش الفرنسى تصريحا ضمنيا بالاغتصاب لجنود مراكش العاملين معه عام ١٩٤٣- ١٩٤٤ فقام هؤلاء الجنود باغتصاب كل النساء اللاتى لم يستطعن الاحتماء بالجبال وهذه القصة تم إثباتها وصدرت أحكام بالسجن ضد هؤلاء الجنود.

وخلال الحرب الصينية اليابانية استخهدم الجنود اليابانيون نفس الأسلوب ضد النساء الصينيات خاصة فى بلدة «نانكنج» الصينية والتى تعد حكايات اغتصاب النساء فيها من أعنف حكايات اغتصاب النساء فى الحروب.

فلقد جاء فى التقارير الواردة عن تلك القرية أنه لو تشابكت أيدى القتلى فى هذه المجزرة لوصلت هذه الأيدى إلى مسافة ٢٠٠ ميل.. ووزنهم كان ١٢٠٠ طن، ومن بشاعة المجزرة أن بعض الذين قتلوا قد تم دفنهن أحياء.. وتم اغتصاب من ٢٠ إلى ٨٠ ألف امرأة صينية كما أجبر الآباء على اغتصاب بناتهم.. بل أجبر الأبناء على اغتصاب أمهاتهم.. والأخوة على اغتصاب أخواتهم.

بيوت للدعارة:

وفى كتاب «اغتصاب نانكنج» قدمت الكاتبة الصينية ذات الجنسية الأمريكية «إيريس شانج» -٢٩عاما- مستندات إدانة الجنود اليابانيين.. إذ قالت فى كتابها لقد عبر اليابانيون بوابات نانكنج باحثين من باب إلى باب عن الجنود وكانوا يقتلون كل من يقف فى وجههم مع أخذ ١٤ ألف جندى أسرى كما حرقوا المئات أحياء بالجازولين، وكانوا يدخلون البيت يقتلون من يصادفهم ماعدا الفتيات الصغيرات فلقد تم ترحيلهن إلى بيوت دعارة، وحتى السيدات الحوامل فقد طرحوهن أرضا وقام كل أفراد الوحدة العسكرية باغتصابهن. وكان يتم اغتصاب «١٠٠٠» سيدة كل يوم.. كما كان يتم قتل غالبية اللائى تم اغتصابهن.. وكانت حوادث الاغتصاب تتم فى الشوارع والميادين بل داخل مبنى جامعة الإقليم.

وفى عام ١٩٩٢ اعترفت الحكومة اليابانية رسميا بأن الجيش الامبراطورى أقام بيوتا للدعارة وأرغم مايزيد على ٢٠٠ ألف امرأة على ممارسة البغاء للترفيه عن الجنود اليابانيين.. وغالبية هؤلاء النساء من شبه الجزيرة الكورية ومن الفلبين والصين وهولندا.

ولقد قامت مجموعة من هؤلاء النساء وهن عبارة عن خمس عشرة سيدة برفع دعوى يطالبن حكومة طوكيو بدفع تعويضات تصل إلى ثلاثة ملايين دولار كشفوا فيها أن الحكومة اليابانية خدعتهن وأخذتهن بالقوة إلى مواخير فى تايوان وشنغهاى لتقديم خدماتهن للجنود اليابانيين فى الفترة ما بين ١٩٣٧-١٩٤٠.. هذا ولاتزال هناك تسع قضايا فى المحاكم تطالب بتعويضات من الحكومة اليابانية وبينما رفضت الحكومة الأمريكية ٦ دعاوى منها بحجة أن المحاكم الأمريكية غير مخولة للنظر فى مثل هذه القضايا

وبنغاليات أيضا :

ومن الصين إلى بنجلاديش امتد مسلسل اغتصاب النساء فى الحروب فبعد إعلان استقلالها عام ١٩٧١ اجتاح الجنود الباكستانيون بنجلاديش وقاموا باغتصاب ما لا يقل عن ٢٠٠ ألف امرأة بنغالية.. وبعض هؤلاء النسوة بقين يعملن فى بيوت دعارة خاصة بالجيش، والعديد من النساء تم طلاقهن ورفض أزواجهن استقبالهن، كما رفضتهن عائلاتهن على الرغم من مجهودات الحكومة لإصلاح أوضاعهن بإعلانهن بطلات قوميات.

كما لعب الاغتصاب دورا فى الحرب الفيتنامية.. إذ أصبحت واحدة من البلاد التى ترتكب فيها الفاحشة بشكل كبير من جانب الجنود الأمريكيين بهدف نشر الفزع فى قلوب الفيتناميين.. ووصل الأمر إلى حد تعرض الآلاف من الباحثات عن اللجوء السياسى للاغتصاب وقتلن فى خليج تايلاند وفى بحر جنوب الصين.

وخلال السنوات العشرة الماضية تفشى الاغتصاب فى السلفادور وفى ليبيريا وفى يوغسلافيا السابقة.. وخلال النزاع المسلح الدائر بين السنغال وموريتانيا والذى ظل دائرا لمدة ١٣ عاما تم اغتصاب آلاف الموريتانيات داخل السنغال كنوع من الثأر لما قامت به الحكومة الموريتانية من نزع ملكيات أراض يمتلكها بعض السنغاليين على الشاطئ الشمالى لنهر السنغال.

ورغم كل هذه الأحداث المأساوية فإن وقائع اغتصاب نساء البوسنة على أيدى الجنود الصرب تظل فى مقدمة الوقائع المأساوية التى شهدها العالم خلال السنوات الأخيرة، فمنذ الأيام الأولى لصراع البوسنة والهرسك والنساء المسلمات يتعرضن للخطف والاغتصاب والتعذيب من جانب الصرب.

ولم يتوقف الأمر عند مجرد اغتصاب هؤلاء النساء، بل إن العديد من

الجنود كانوا يقومون باستعباد هؤلاء النسوة وبعد حجزهن لمدة أيام أو أسابيع يقومون ببيعهن نظير مبالغ من المال إلى رجال آخرين للتمتع بهن! بل امتدت وقائع الاغتصاب إلى البنات الصغيرات المسلمات.. فعلى سبيل المثال وفى عام ٩٢-٩٣ فى مدينة «فوكا» التى أطلقت عليها جماعات حقوق الإنسان اسم «قلب الظلام» تمت ممارسة أعمال اغتصاب وتعذيب وحشية ضد نساء وفتيات مسلمات لا تتعدى أعمار بعضهن الثانية عشرة.

ولقد أشارت تقارير منظمات حقوق الإنسان إلى تعرض ما يزيد على ٣٠ ألف امرأة للاغتصاب فى البوسنة وكما جاء فى تقرير للاتحاد الأوروبى فإن الهدف الرئيسى من الاغتصاب كان هو التطهير العرقى حيث كانت النساء البوسنيات فى معسكرات الاغتصاب يخيرن بين أمرين إما الاغتصاب أو التعذيبوالقتل.

مخيمات للاغتصاب :

ولم يقف ما فعله الصرب بالنساء فى البوسنة أثناء الحرب عند ذلك الحد فقط ولكن أيضا أسسوا وأنشأوا مخيمات للاغتصاب المنظم يحبسون فيها النساء بعد اغتصابهن وبعد أن يتأكدن من حملهن يأتون لهن بالطبيب لمتابعة الحمل حتى الولادة أو حتى تمر الفترة الأولى من الحمل والتى من الممكن أن تجهض فيها المرأة نفسها.

وولادة هؤلاء الأطفال غير المرغوب فيهم كانت دائما ما تذكر النساء بالجراح العميقة التى تعرضن لها، وكثيرات منهن تخلين عن هؤلاء الأطفال بينما قامت أخريات بقتل أطفالهن وقليلون من اللائى تركن أبناءهن على قيد الحياة ولكن كيف سيعيش هؤلاء ؟

وفى مكان آخر ومنطق آخر للحرب وبالتحديد فى روندا تكرر نفس الوضع

مع النساء فقد اغتصب مئات الآلاف من الرونديات فى الحرب، ووصل عدد الأطفال الذين ولدوا من عمليات الاغتصاب المنظم إلى خمسة آلاف حسب إحصائية المكتب القومى للسكان هناك.

وبالرغم من أن أية وكالة أو جمعية استطاعت تقدير العدد الكلى للنساء اللائى ذبحهن هناك إلا أنه أقل التقديرات قالت أن خمسين ألف امرأة رواندية تعذبت واغتصبت وقتلت، وبعض المراقبين أكدوا أن النساء اللاتى لازلن على قيد الحياة حتى الآن قد تم اغتصابهن بلا استثناء.

وإذا كان الوضع أقل من ذلك فى الجزائر، إلا أن الاغتصاب والعنف الجنسى كان أحد أسلحة الحرب هناك، حيث كشفت مجلة «جون أفريك» الفرنسية أن عنف المتطرفين تجاه النساء بدأ فى السبعينيات وتضخم وإزداد بعد ذلك.

وفى مارس عام ١٩٩٤أصدرت الجبهة الإسلامية المسلحة منشورا استباحت فيه النساء غير المحجبات وقالت «إنهن أصبحن أهدافا عسكرية». وذلك بالرغم من أن معظمهن من المسلمات.. وللالتفاف حول تحريم الاغتصاب فى الإسلام أحل الإرهابيون زواج المتعة، رغم تحريمه فى المذهب السنى.

وهكذا أصبح اغتصاب نساء الجزائر ملفوفا بورقة زواج المتعة الذى لم تعرفه الجزائر مع هذه الأحداث عام ١٩٩٤.. وكان الإرهابيون يتزوجون النساء لعدة ساعات ويغتصبوهن تحت ستار الزواج.. وقد أعلنت وزارة الصحة الجزائرية أن مايقرب من ٢٠٠٠ امرأة تم اغتصابهن على أيدى المتطرفين، هذا بخلاف النساء اللاتى خفن الفضيحة ولم يفصحن عما حدث لهن.. ومازال عدد الأطفال الذين ولدوا من جراء تلك الممارسات سرا فى الجزائر حتى يومنا هذا.

تجارب مريرة :

وإذا كانت الأرقام ليست كافية للكشف عن حجم الكارثة التى تتعرض لها النساء خلال الحرب فإن تجارب المغتصبات المرة، ربما تكشف عن ذلك حيث تحكى سيدة من سيراليون فى الثامنة والثلاثين من عمرها أن قوات المتمردين قامت بمهاجمة قريتها عام ١٩٩٧ ولأنها قاومت عملية اغتصابها داخل الأرض التى كانت تقوم بزراعتها فإن الجنود قاموا بقطع ذراعيها وهى تعيش الآن فى مخيم بلدة هوريه .. وتكررت واقعة مشابهة مع سيدة سيراليونية أخرى فى مايو عام ٢٠٠٠ وتقول السيدة وهى من اقليم ماكيينى أنها كانت تقوم بإرضاع طفلها لكنها فوجئت بخمسة من متمردى قوات الجبهة المتحدة الثورية.. قاموا جميعا باغتصابها وهو ما تسبب فى إصابتها بمرض جنسى.. مازالت تعانى منه حتى الآن فى صورة نزيف لا تعرف كيف تمنعه كلما تذكرت الواقعة.

وفى شرقى جمهورية الكونغو الديمقراطية عثر على العديد من النساء اللاتى قتلن إبان الجولة الأولى من النزاع « ١٩٩٩-٢٠٠٠» وهن عاريات تماما وعلى أجسادهن آثار الاغتصاب.

ومن النسوة اللاتى تقدمن بشكاوى اغتصاب ثلاثة من النساء البوسنيات لأنهن تعرضن للاغتصاب بشكل مستمر على أيدى رجال ميليشيات الصرب بين عامى ٩١-٩٥ وقد وافقن على تصويرهن.

وتحكى امرأة من سوفاريكا بكوسوفو واقعة اغتصابها بأسى وتقول : إن جنود الصرب قاموا بوضع قطعة من الإسفنج المبلل تحت عنقى وألقوا بى على مقعد طويل وصعقونى بالصدمات الكهربية لعدة ساعات، ثم وضعونى على منضدة طويلة وأحضروا هراوات وطلبوا منى أن أركع وأدخلوا هراوة فى شرجى ثم أجبرونى على الجلوس على هراوة وصرت أنزف فأقبل واحد منهم واغتصبنى ثم توالى الآخرون على».

وتروى إحدى البوسنيات مأساتها وتقول: اغتصبنى اثنان من جنود الصرب ثم جاء آخرون من أفراد الميليشيات الصربية يريدون اغتصابى وعندما قلت لهم لا هددونى بأنهم سيلقون ابنى من النافذة وقالوا أننا نريد أن تلدى طفلا من الصرب.. وقالوا لى أيضا .. أننا سنفعل كل شىء حتى لاتفكرين مجرد تفكير فى العودة.

وتروى سيدة نيجيرية تدعى «باريه إبراهيم ماجازو» -١٧سنة- أنها تعرضت للاغتصاب خلال الحرب الأهلية على يد أحد الجنود وعندما ذهبت للشكوى تلقت ١٨٠ جلدة بالسوط بتهمة أنها أقامت علاقة غير شرعية خارج نطاق الزواج !!

وشهدت باك بوجسيم وهى صينية أنها تعرضت للاغتصاب المتواصل من قبل الجنود اليابانيين رغم أنها كانت حاملا وتقول إن ٥٠ ضابطا كانوا يقومون باغتصابى يوميا وعندما كنت أرفض كنت أضرب بالعصا ضربا مبرحا.

الفصل التاسع

الجهاد والاستشهاد

على الطريقة اليهودية !!(١)

فى ١٤ مايو القادم تمر الذكرى الرابعة والخمسون على قيام الدولة العبرية فى فلسطين، وطوال هذه السنوات ونحن وغيرنا - بل حتى الإسرائيليين أنفسهم - يتساءلون بقوة سؤالا مثيرا حول العلاقة الوثيقة بين إسرائيل والحرب، وهذا الاستنفار الدائم فى الجيش الإسرائيلى، ونزعة العنف الغريبة التى تسيطر على الشخصية اليهودية عامة والإسرائيلية خاصة، وخلاصة هذا السؤال هو هل ولدت إسرائيل بالحرب فقط أم وجدت لها أيضا؟! وهل هى دولة دائما فى حالة حرب بالفعل لضمان وجودها وأمنها فقط أم أن الأمر له أبعاد نفسية ودينية ؟!

هذا الجدل الذى أثارته مثل هذه التساؤلات وتداعياتها نحاول إنهاءه من خلال دراستنا هذه التى نتناول فيها مفهوم الحرب أو «الجهاد» الخاص لدى الصهاينة والذى يوصف بالإرهاب - وفقا للمعايير المعاصرة - وأبعاده على المنطقة طوال الفترة الطويلة الماضية !

التوراة والعنف :

رغم الفصل الواضح بصورة أو أخرى بين الصهيونية السياسية والدينية منذ الظهور الحقيقى لأنشطة حركة الصهيونية العالمية فى نهاية القرن الماضى، إلا أنه لم يكن ممنوعا على زعماء الصهيونية السياسية ترديد بعض الفقرات التوراتية أو التلمودية الداعية لإثارة العنف أو ما يشبه الدعوة للجهاد فى

(١) السابق - اسلام كمال.

الإسلام.. كما يشير المستشرقون عند حديثهم حول المقارنة بين العنف فى اليهودية والجهاد الإسلامى. تلك الدعوات كان لها أثر السحر على عناصر الحركات والعصابات الصهيونية عندما كان يرددها أحد القادة الصهاينة عليهم.

وأبرز من كان يتلاعب بمثل هذه الألفاظ كان «مناحم بيجين» مؤسس واحدة من أبرز العصابات الصهيونية المسلحة «الإيتسل» أو المنظمة العسكرية الإسرائيلية وأستاذه «زائيف جابوتينيسكى». أن هذا يحسم فكرة الأبعاد الدينية للعنف اليهودى ضد الفلسطينيين قبل وبعد قيام دولة إسرائيل.

إن هذا يصور لنا مدى الاستغلال الصهيونى لما يمكن أن يطلق عليه نظرية الجهاد والاستشهاد على الطريقة اليهودية.. حيث كانوا يتعمدون تأصيل هذه المفاهيم لحث اليهود والمستوطنين المتشددين على العمل معهم بحجة بناء دولتهم وكانت نتائجها واضحة من خلال تعبئة أعداد كبيرة ممن آمنوا بهذه المفاهيم المستجدة.. فاليهودية لاتدعو للجهاد بل القتل ولا الاستشهاد لسمو الجنس اليهودى؟!

حقائق وجدل:

وهناك العديد من الحقائق الذى تثير جدل آخر حول هذا الحسم وأهمها أن عددا كبيرا جدا من عناصر العصابات الصهيونية كانوا عبارة عن مرتزقة يهود يتمتعون بخبرات حربية.

وتعد أحداث النازية ضد اليهود وهذه الأوهام التى رسختها الحركة الصهيونية بمثابة التبرير القوى للعنف اليهودى الذى بدأ خلال فترة ما قبل قيام الدولة اليهودية من خلال هجمات العصابات الصهيونية الكثيرة على القرى العربية.

والمعروف أن هناك عددا كبيرا من العصابات الصهيونية تزدحم بأنشطتهم

الإرهابية الصفحات التاريخية لهذه الفترة التاريخية المتوترة، ولكن من أبرزها كانت عصابات الهجاناة أو «الدفاع» والأرجون والبيتار والبلماح والشترن والجحل والايتسل وغيرها، ولقد تم تشكيل أولى هذه العصابات «الهجاناة» وأكبرها على يد «جابوتينيسكى» وأتباعه رغم أنه كان يعارضها فى البداية حيث كان يرغب فى الاحتفاظ بالفيلق اليهودى الذى تم تشكيله فى الحرب العالمية الأولى.

وكانت نواة هذه العصابات من المستوطنين اليهود الأوائل فى الجليل الأعلى وأخذت غطاء «سرى للغاية فى بداياتها حتى إنهم كانوا يجمعونهم بحجة العمل فى تعبيد الطرق والسكك الحديدية فى منطقة المستوطنات الشمالية «تل حى وكفار جلعادى وهامارا ومتولاح» وكانوا يستثيرون حماس الشباب الصهيونى بحجة أن العرب يهجمون عليهم ويقتلونهم دون سبب، والأغرب من ذلك أن هذه العصابات اعتمدت على العمليات الانتحارية فى فترة من فترات نشاطاتهم؟!.

لقد كانوا يعتبرون الدفاع عن مستوطنات الجليل الأعلى «شرفا وطنيا» وأن المال والرجال يجب أن يعبأ من أجل ذلك، ولقد قتل فى أول مواجهة لهذه العصابات ضد العرب فى مارس ١٢٠ حوالى سبعة يهود منهم أبرز قادتهم فى هذه الفترة «ترومبلدور» ولقد استغلها جابوتينيسكى فى ترسيخ مفهوم «الاستشهاد الصهيونى»؟!

وكان أهم الأهداف من تشكيل العصابات الصهيونية - حسب تعبيرهم - أنها هدفت لكسر الصمت الصهيونى تجاه القوى العربية المعادية لهم.

ولقد تبلورت الأنشطة الصهيونية لإثارة العرب مع نهاية عام ١٩٣٠ برفع العلم الصهيونى على حائط البراق وإنشاد النشيد الصهيونى الذى أصبح فيما بعد النشيد الإسرائيلى بالإضافة إلى الهتافات المثيرة التى أطلقها المتظاهرون

اليهود يومها، وبررت الوكالة اليهودية نفسها هذه الاضطرابات بتوسيع اختصاصات العصابات الصهيونية واستعراض قوتها؟!

وازدادت موجات العنف والإرهاب الصهيونى عنفا مع تشكيل عصابة «الارجون» فى ١٩٣٧، ولم ينجح قادة الهجاناة والارجون فى إخفاء عنفهم ووحشيتهم وإرهابهم ومن أبرزهم رازائيل وشترن ويعقوب ميريدور وبيجين، وتميزت الأرجون عن بقية العصابات الصهيونية بالعنف العلنى الشديد وبعمليات الاغتيالات وقتل العرب بدون ذنب، ويجب هنا أن نشير إلى أن بعض القيادات الصهيونية لم تكن قادرة على ممارسة مهامها كقادة على عدد من الفصائل العاملة فى فلسطين، وتتضح نزعة العنف الصهيونية فى سخرية قادتهم من دعوة الوسطاء إلى السلام بقولهم «أنهم يريدوننا أن نستسلم للعرب ونخبرهم بالوقت والمكان المحددين لقتلهم ونعطيهم أسماء المهاجمين وعناوينهم»؟!

لا مبالاة بريطانية :

ومن الواضح أن أنشطة جماعات الإرهاب الصهيونى كانت مرتبطة فى تلك الفترة بمدى اللامبالاة البريطانية والتى كانت تتأثر بصورة ما بالضغوط العربية عليها لكنها فى النهاية وصلت إلى حد بيع الأسلحة البريطانية علانية لمنظمة «الارجون» الصهيونية والتى اعتبرت هذا بدورها إنجازا كبيرا ميزها عن بقية العصابات الصهيونية ؟!

وكان هذا كله تمهيدا لإعلان قيام الدولة اليهودية فى ١٤ مايو ١٩٤٨ بعد صدور القرار الأممى بتقسيم فلسطين لدولتين يهودية وعربية، والذى يعد بمثابة النتيجة الرئيسية لسنوات العنف والإرهاب الطويلة، وتبلورت هذه النتيجة مع نهاية حرب ٤٨ لانتصار قذر للعصابات الصهيونية والتى أخذت الشكل النظامى، حتى إنه كان واجبا على كل المستوطنين والمهاجرين اليهود خاصة

ذوى الخبرة العسكرية أن ينضموا لهذه العصابات لفترات معينة، ولقد مهد ذلك لتأسيس الجيش الإسرائيلى بوحداته الأولية فى عام ١٩٤٩، على يد رئيس وزرائهم الأول «دافيد بن جوريون» والذى كان من أول قراراته مع تقليده مهام منصبه لانتهاجه منهجا استراتيجيا أمنيا لضمان استمرارية وجود هذه الدولة؟!

مصيبة مدمرة:

كل هذا يوضح أن الحرب لدى اليهود والصهاينة ليست هذه المصيبة المدمرة التى يتجنبها البشر لتداعياتها السلبية بل إنها وسيلة استراتيجية للبقاء بكيانهم وسط أعدائهم العرب، ومع الوصول لمرحلة ضمان البقاء التى بدأوا يشعرون بها خلال منتصف الخمسينيات - وحاليا أيضا- مع الاعتراف الدولى بدولتهم وتشعب علاقاتهم وقوة إمكانياتهم العسكرية، كانوا يخططون لحرب جديدة ضد أية دولة عربية منها مصر وسوريا ولبنان - حسب المستجدات وقتها- لتوسيع كيانهم وتقويته وكانوا يستغلون أى توتر لتصعيد الموقف إلى حد الحرب.

ويؤكد على ذلك «موشيه شاريت» أول وزير خارجية إسرائيلى وثانى رئيس وزراء فى يومياته خاصة أنه كان من القلائل الذين انتقدوا هذه الاستراتيجية وكانوا يحلمون بالعيش فى أمان مع استغلال الفرص الأكيدة فقط لتوسيع كيانهم، ولذلك كانت تتولد الخلافات بينه وبين بن جوريون كثيرا، وعلى الرغم من أن «بن جوريو» كان يبدو أنه من الصقور الأوائل إلا أنه كان يخاف الدخول فى حرب تنتهى بخسارتهم خاصة فى الأعوام الأولى من قيام دولتهم، ولكن كان يثير هذه الفكرة فى رأسه العسكريون المحبون لسفك الدماء ومنهم «موشيه ديان» الذى وصفه الكثيرون منهم «بالمتهور» وكان مخططا ومنفذا لتوترات واشتباكات ما قبل العدوان الثلاثى فى الضفة الغربية والقطاع، واستطاع أن يقنع بن جوريون بمكاسب الاشتراك مع إنجلترا وفرنسا فى العدوان الثلاثى؟!

تصور «يوميات شاريت» مدى اهتمام القادة الإسرائيليين بالحرب كأنهم يعيشون من أجلها، وكان تبريرهم الوحيد أن الحرب التى يريدونها هى دائما ما تكون بمثابة ضربة وقائية من أى هجوم عربى عليهم خاصة فى الفترات الأولى عندما كانت دولتهم صغيرة، فهم بصورة دائمة فى حالة حرب يشعرون أن أية دولة من الدول العربية المحيطة بهم ستهاجمهم فى أية لحظة.

ومن هنا أتت استراتيجية الدفاع المستمرة رغم أنهم دائما المهاجمون حيث يعتبرون الهجوم خير وسيلة للدفاع بل إنه فى الواقع خير وسيلة لاكتساب بعض الشعور بالأمان، وتعتمد هذه الاستراتيجية الأمنية على خلفية دينية فى كتبهم المقدسة حيث يتخفى الهجوم تحت اسم الدفاع حتى يكونوا دائما الضحايا لا المعتدين ؟!

شعور بالأمان

تحقق لهم نوع ما من الشعور بالأمان بالنسبة للجانب المصرى بعد حرب العدوان الثلاثى والتى انتهت بوضع قوات الأمم المتحدة للفصل بين الدولتين، وكان قلقهم شديدا من الجانب السورى فركزوا استعداداتهم للحرب على الناحية الشمالية خلال فترة ما بعد العدوان الثلاثى وأوائل الستينيات حتى أنه كادت أن تنشب حرب بين سوريا وإسرائيل وتجمعت حشود عسكرية من الدولتين، لكنها منعت فى لحظاتها الأولى.

المثير للدهشة أن الحكومات الإسرائيلية مع تواليها ومرور السنوات لا تتغير ولديها خططها التقليدية للاستفزاز وإثارة الغضب العربى وتصعيد الأمور لحد الحرب خلال شهور أو أقل.

محصلة هذه الاستفزازات الإسرائيلية حتى الآن هى خمس حروب وانتفاضتان وعشرات المجازر فى حق الفلسطينيين واللبنانيين.

وعندما وقعت النكسة فى ٦٧ قال عنها الإسرائيليون أنها «انتصارغير معقول» لكن عندما حققنا نصرنا العظيم فى حرب اكتوبر اعتبرها الإسرائيليون «خدعة» يزعمون أن المصريين استغلوا انشغال اليهود فى صلواتهم للقيام بحربهم كأنها سرقة، وتشير المحللة الإسرائيلية ديفورا عومير فى كتابها «مفاجأة فى منتصف الحياة» أنهم صلوا لربهم حتى يكون كل شىء على ما يرام، وأن تستمر دولتهم على وجه الأرض فى أول وأقوى تهديد حقيقى لوجودها .

وترتيبا على ذلك فان التحول السياسى التاريخى الذى حدث فى إسرائيل بعد انتصار اكتوبر وصعود «الليكود» هذا الحزب اليمينى الذى لم يتجاوز العام الأول من عمره لرئاسة الحكومة بزعيمها الصهيونى «مناحم بيجين» يؤكد أن هذه الدولة وجدت بالحرب وتعيش بها ولها لأن الشعور بالأمن هو الذى يحركها .

لا يهم العمل أو الليكود المهم الأمان، «جولدا مائير سقطت فى عنفوانها السياسى وفى اللحظات التى كانت تردد فيها كلماتها المتغطرسة رغم أنها كانت تتمتع بشعبية جارفة حتى وقعت هزيمة اكتوبر وأثبتت فشلها فى إكساب الشعب الإسرائيلى الشعور بالأمان؟!..

وعلى نفس الوتيرة سقط باراك أمام شارون ويعدون الآن لإسقاطه لأنه لم ينجح فى توفير الأمن للإسرائيليين رغم بطشه الوحشى بالفلسطينيين، هذا لأن الاستراتيجية واحدة من وقت قيامها وحتى اليوم ؟!

ضمان البقاء :

الإسرائيليون لايؤمنون إيمانا كاملا بالحرب فهى مجرد وسيلة لتحقيق الأمن والإبقاء على دولتهم، والدليل على ذلك أنهم مع أول هزيمة فى حرب أدركوا أنها ليست الوسيلة الوحيدة للوصول للأمن وضمان بقاء كيانهم خاصة أنها كادت أن تقضى عليهم تماما، فاتجهوا لوسيلة أخرى هى السلام كخيار

استراتيجى لتوفير أمنهم وحمايتهم لفترة مع التركيز على البديل الدائم وهو الحرب مع الاستفادة من الأخطاء وتعزيز القوة العسكرية، وهذا ما حدث بالفعل خلال السنوات الأخيرة.. يلعبون على ورقة السلام حتى يصلوا لمرحلة التنازلات المؤلة فيتجهوا لخيار الحرب لتعطيل السلام وانقاذهم من التنازلات وصعود نتنياهو وشارون يؤكد ذلك !!

والواضح أن السلام هو خيار اضطرارى مؤلم أجبرهم نصر اكتوبر على الاتجاه له، وهذا ما تثبته تصريحات القادة الإسرائيليين من بيجين إلى باراك وشارون، رغم أن تصريح «بيجين» بعد عودته من القاهرة فى نهاية عام ١٩٨١ - والتقى خلالها مع الرئيس مبارك وعزاه فى وفاة الرئيس الراحل السادات - والذى مفاده أن الرئيس مبارك وعده «بالسلام الأبدى» ولم يعتربها كلمات فقط كان يعبر بها عن مدى أهمية السلام لهم وقتها كخيار لتوفير الأمن، بل وعد حقيقى!!

ديان المتهور :

كانت حرب اكتوبر حربنا للسلام .. يتلاعب بعض المحللين الإسرائيليين بالألفاظ ويعتبر حرب اجتياح لبنان عام ١٩٨٢ مشابهة لها فى الهدف لأن غرضهم منها كان السلامة والأمان للجليل المحتل والمستوطنات الشمالية من تهديدات الفدائيين الفلسطينيين خاصة أنهم يطلقون عليها «حرب سلامة الجليل»، وكما كان «موشى ديان» المتهور الذى يوقع الصهيونى المحنك «بن جوريون» فى الخطأ أوقع «شارون» المتغطرس بيجين فى فضيحة الغزو الإسرائيلى لبيروت وسببوا القلق والتوتر للجليل لا السلامة كما كانوا يريدون مع تشكيل حزب الله؟!

لكن على الرغم من الأضرار التى لحقت بإسرائيل واليهود من الحروب إلا أنها حققت لهم بعض المكاسب منها صدور إعلان «وعد بلفور» بإقامة دولة

لليهود فى فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧، وصدور قرار تقسيم فلسطين لدولتين يهودية وعربية وإقامة الدولة اليهودية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عامى ٤٧ و٤٨، وتوسيع نطاق الدولة اليهودية عن حدود القرار الأممى.

بعد انتهاء حرب ٤٨ أو حرب الاستقلال كما يطلقون عليها، والفصل الدولى بين إسرائيل وعدوها الأخطر والأكبر مصر بقوات الأمم المتحدة بعد انتهاء حرب العدوان الثلاثى، وتحقيق بعض من الحلم الصهيونى بتوسيع حدود دولتهم باحتلال الضفة الغربية بما فيها القدس وقطاع غزة والجولان وسيناء .

بانتهاء حرب ٦٧، والنجاح فى الإبقاء على كيانهم بتدخل من الولايات المتحدة وتوقيع أول اتفاقية سلام مع دولة عربية «مصر» وضمان أمنهم من الناحية الجنوبية لوجود مناطق واسعة منزوعة السلاح من الجانبين مع انسحابهم من سيناء كلية بعد انتهاء حرب اكتوبر بأول هزيمة صريحة لإسرائيل منذ قيامها.

والحرب الوحيدة التى لم تحقق فيها إسرائيل مكاسب هى حرب «سلامة الجليل» أو غزو لبنان حيث خرجوا بفضيحة وصداع خطير فى رأسهم اسمه «حزب الله» وكذلك لم ينجح الخيار العسكرى لشارون لإنهاء انتفاضة .

خيار الحرب :

عموما فإن أهمية استراتيجية «خيار الحرب» واضحة للغاية على هذه الدولة عسكرية الطابع والمتميزة على كل جيوش المنطقة جوا وبحرا ومدرعات وأسلحة، حتى إن «بن جوريون» علق قرار إعلان الدولة عدة أيام حتى يدرس الوضع العسكرى مع قادة العصابات الصهيونية، ورغم أن البعض أكد أن هذا القرار بمثابة تدمير الهيكل الثالث عليهم لكنه قرر إقامتها بعد ترتيب أوراقه للحرب بتشجيع من باقى قادة الهجاناة.

ويحاول الإسرائيليون وفقا لخطة استراتيجية طويلة الأمد عدم التقليل من قيمة الحرب وفوائدها عليهم بعد الحديث الطويل عن السلام خلال السنوات الأخيرة مع استثناء بعض الفترات.

وتعتمد الخطة على إنتاج مئات الأفلام فى السينما الإسرائيلية عن البطولات العسكرية الإسرائيلية المفبركة وتأثيرها فى الإبقاء على وجود كيانهم حتى الآن وترسيخ هذه المعانى فى المناهج التعليمية لكل المراحل الدراسية لأنها بالفعل دولة دائما فى حرب، تجند كل شعبها إلا المتدينين فى الجيش منذ الثامنة عشرة وحتى الإحالة إلى المعاش مع الاختلاف بين النساء والرجال ليبقوا على دولتهم وليشعروا بالأمن.. إنها بحق دولة الخوف.

الباب الثانى :

الفصل الأول

الحياة ممكنة بدون عدو ![1]

د. مراد وهبة : لا فرق بين الأصولية المسيحية والأصولية الإسلامية إلا فى آيات الإنجيل والقرآن.

- المطلوب الآن تعاون دولى واضح لإضعاف كل الأصوليات الدينية .. وتقوية العقل.[2]

د. أحمد كمال أبو المجد : الحوار أو الدمار.. ولن يقوّم حوار إذا أصرت حضارة على أنها الأرقى !

- وثيقة رسمية للحوار بين الحضارات عطلتها أحداث الإرهاب فى الولايات المتحدة.

د. أحمد عكاشة : أطفال غزة وأهالى نيويورك مصابون بمرض مشترك اسمه «اضطراب ما بعد الكرب» !

- لا توجد كراهية أبدية .. وإذا أحست الشعوب بمصداقية السلام .. تنسى ما حدث بسرعة.

لما يرتفع فجأة صوت الحرب ؟ وهل صراع الأديان ضرورة حتمية ؟!

وهل الإسلام لا يستطيع التعايش مع العصر ؟! وإلى أى مدى يرث كل شعب كراهية آخر بسبب الحرب ؟!

هذه الأسئلة وغيرها نطرحها على ثلاثة مفكرين مختلفى الميول والاتجاهات.. إذ حين يرتفع صخب الضجيج لابد أن نطلب صوت العقل.. هكذا

(١) السابق - ميرفت فهمى.

(٢) الأصولية الإسلامية حق.

طرحنا الأسئلة على مفكر كبير هو الدكتور مراد وهبة لنستكشف ونحلل لماذا تسيطر الأصولية على العالم.. وعلى المفكر الدكتور أحمد كمال أبو المجد لنعرف إن كانت هناك آفاق لحوار الحضارات .. وعلى الدكتور أحمد عكاشه أستاذ الطب النفسى الأشهر لنحلل الجوانب النفسية للشعوب خلال الصراع.

الشهادة الأولى : ا ضعاف الأصوليات :

نبدأ بالمفكر والفيلسوف الدكتور مراد وهبة .. ونسأله هل الصراع بين الحضارات له أسباب دينية فقط أأم أن له أسبابا سياسية واجتماعية ؟!

يقول د. مراد وهبة :

فى تقديرى أن الصراع الحالى هو صراع ثقافات مشحونة بأصوليات دينية، هذه الأصوليات شاعت وانتشرت ابتداء من السبعينيات وسبب هذا أنه كلما حدث تخلف يضعف التفكير العقلانى والإنسان يسقط فى وهم أنه يمتلك الحقيقة المطلقة.

إذا تحرر الإنسان من هذا الوهم يفهم أنه ليس فى إمكانه أن يمتلك الحقيقة المطلقة وبالتالى يصبح الحوار ممكنا، الحوار يمتنع مع الأصوليات الدينية.

فالصراع الحالى بين الحضارات هو صراع بين أصوليات دينية داخل الحضارة الواحدة، والأصولية الدينية لا توجد فى الإسلام فقط وإنما أيضا فى المسيحية . ففى أمريكا توجد أصولية مسيحية تبلورت سنة ١٩٧٩ حين نشأ حزب أصولى مسيحى، وفى نفس العام تفجرت الثورة الأصولية الإسلامية فى إيران وفى نفس العام أصدر كارتر قرارا بتدعيم أفغانستان ماليا وعسكريا لمواجهة الشيوعية متمثلة فى غزو الاتحاد السوفيتى.

سألناه : لماذا تظهر الأصوليات فى وقت واحد ؟

قال فى سنة ١٩٤٨ أصدر دالاس كتابا بعنوان «حرب أم سلام» وفى هذا الكتاب يقول أنه من أجل التخلص من الكتلة الشيوعية أمامنا طريقان : سلبى وإيجابى. الطريق السلبى هو إعطاء معونات اقتصادية وعسكرية لتقف الدول ضد الشيوعية، أما الطريق الإيجابى فهو تكتيل جميع الأديان.. وبدأوا فعلا سنة ١٩٤٨ فنشأ مجلس الكنائس العالمى ليضم جميع المسيحيين، ثم نشأ المؤتمر الإسلامى لاستيعاب جميع القوى الإسلامية. وفى ١٩٧٠ عقد مؤتمر فى سويسرا لإجراء حوار بين الأديان وكان المهيمن على هذا يهدف لتحقيق هدف اقتصادى.

ثم جاء الاستعمار الأوروبى للدول العربية، ثم جاء تأييد الغرب لإسرائيل.. هذه تجارب مريرة عقدت العلاقة بين العرب والغرب .. اليوم تخلصنا من صراع الدعاة والمبشرين والحروب الصليبية صارت تاريخا وانتهى الاستعمار ولكن قضية إسرائيل مستمرة لأنها تريد هيمنة، ولذلك فإننى أعتقد أن الصراع ليس صراعا دينيا وإنما هو منافسة ثقافية يريد البعض تحويلها إلى صراع ويريد العقلاء تحويلها إلى تعارف يوظف إيجابيا.

من المستفيد من إثارة وتغذية هذا الصراع ؟

– فى اعتقادى أن إسرائيل تغذى هذا الصراع لأنها تريد أن يكون العرب فى جانب والغرب فى جانب آخر لتظل منفردة بالجانب الغربى.

كيف يمكن التعايش بين الأجناس ؟

لابد من إيجاد نظام دولى قائم على العدل سواء فى الموارد أو فى الحياة الاقتصادية أو فى الإطار القانونى فقانون الفيتو الذى تتمتع به بعض الدول هو

عقبة فى إزالة الصراع. ومن أسباب الصراع أيضا تطبيق معايير مزدوجة فأحيانا يقبل من الغرب ما لا يقبل من العرب، كما لابد أن يلعب الإعلام دورا فى ذلك فالإعلام يعطى صورا وانطباعات فإذا استقرت صورة ذهنية سيئة لدى الغرب عن العرب تؤدى إلى رسم صورة منفرة وقبيحة.

كيف نقلص حدة الصراع ؟!

ما حدث فى ١١ سبتمبر يجب أن نضعه فى حدود واضحة .. سيأخذ وقته ولكن لا يجوز أن تثبت معنى الصراع، الذى حدث عدوان تدميرى إرهابى استنكرناه ويجب ألا نحول المسار الذى تأدبنا به من قبل الحادث وهو ضرورة الحوار بين الحضارات. لا نريد أن ننهزم فى هذه المعركة. يجب أن نعود سريعا لاستئناف الحوار بين الحضارات لأن البديل شر كبير إما الحوار أو الدمار.

ليس مطلوبا من أحد أن يتنازل عن خصائصه الثقافية فلا شك أن هناك أوجه اختلاف وأوجه اتفاق فدعونا نركز على أوجه الاتفاق والتلاقى وهى عديدة.

الشهادة الثالثة : قلق الشعوب :

انتهى حوار الدكتور أحمد كمال أبو المجد ولكن هناك جوانب أخرى لما يجرى نناقشها مع الدكتور أحمد عكاشة رئيس الجمعية العالمية للطب النفسى .. سألناه :

هل يؤثر صراع الحضارات على الشعوب من الناحية النفسية، وهل الكراهية التى تسببها الحروب أو الصراعات هى كراهية أبدية من شعوب تجاه شعوب أخرى ؟

يقول الدكتور أحمد عكاشة : توجد علاقة واضحة بين الأمراض النفسية والحروب، فإذا كانت الحرب وراء هدف أو عقيدة والشعب كله وراء هذه الحرب

تقل الأمراض النفسية، الصحة النفسية فى التمركز حول الآخرين حول العقيدة، وعندما يكون هناك هدف فى حرب للأمة أو الشعب تختفى الأمراض النفسية، ثم بعد انتهاء الحرب تبدأ الأمراض النفسية ويبدأ كل فرد فى المعاناة.

ولكن بعض الحروب تقوم لأسباب غير عقائدية وليست لها علاقة بهدف عام، وهنا يحدث صراع شديد بين الواجب العسكرى وبين أخلاقيات الإنسان فتظهر الاضطرابات النفسية، وعندما يوجد قتل أو تدمير، ويشاهد الإنسان هذا يحدث ما يسمى «اضطراب ما بعد الكرب» .. لأنه تعرض لنوع من الكرب لا يستطيع أن يتحمله أى إنسان، وهذا يتضح فى أطفال غزة الذين أصبح ٨٠٪ منهم يعانون من هذا المرض، لأنهم رأوا ذويهم يقتلون أو يعذبون، وهذا المرض يعانى منه حاليا سكان نيويورك.

وأعراض هذا المرض هى الخوف الشديد والهلع واضطراب فى النوم وصعوبة فى التركيز واسترجاع صورة الحدث مع أحلام وكوابيس مستمرة وتجهم وهذا يصحبه قلق شديد واضطراب.

من السبب فى هذه الأمراض - أ صلا ؟

للأسف المتسببون فى الأمراض النفسية لهذه الشعوب هم قادة لديهم خلل عقلى بداية من الاسكندرالأكبر ونابليون ونيرون وهتلر.. هؤلاء ليسوا أصحاء لأن من يتخذ قرارا بموت الناس هو إنسان غير سليم. وفى الحربين العالميتين الأولى والثانية فى أوروبا مات ٣٠ مليون شخص وفى سنة ١٩٥٦عندما جاء الهجوم على مصر وتم تحليل ذلك اتضح أن إيدن كان يتعاطى عقاقير منبهة تسبب خللاً فى اتخاذ القرار فأحيانا قرارات الحرب تتخذ بواسطة قادة لديهم خلل نفسى، ولذلك أعتقد أن ما تم فى ١١ سبتمبر لضرب المدنيين الأمريكيين هذه عملية إرهابية فيها خلل وأيضا ضرب الأفغان فيه خلل.

هل ما حدث فى ١١ سبتمبر والتركيز على أن العرب المسلمين هم المتسببون فى موت المدنيين الأمريكيين ممكن أن يسبب كراهية أبدية من الغرب تجاه العرب والإسلام ؟

الصورة الأبدية غير موجودة وإلا ما كانت ألمانيا بعد أن احتلت البلاد الأوروبية قامت بإنشاء الاتحاد الأوروبى فالحكومات حسب مصالحها يتم التحالف بينها. أما بالنسبة للشعوب فهى تنسى بسرعة إذا كانت هناك مصداقية فى العلاقات. فإذا حدث صلح بين إسرائيل والفلسطينيين وأخذ الفلسطينيون حقوقهم سيحدث تقارب وتعايش بينهم وينسون ما حدث فالكراهية والتعايش بين الشعوب تتضح طبقا لتصرفات طرف تجاه الآخر.

ففى أوروبا الحروب الصليبية لم يكن لها تأثير فسنجد الثقافة والحضارة الإسلامية انتشرت فى أوروبا انتشارا كبيرا جدا وحتى القرنيين السادس عشر والسابع عشر. فقد كانت المقررات الطبية فى أوروبا هى كتب الرازى وابن سينا حتى جاء السويسرى وحرق هذه الكتب وقال لابد أن تكون دراسة الطب من أوروبا.

هل تعتقد أن الصراع بين الحضارات سيزداد بين الأمم فى السنوات القادمة وكيف يمكن للشعوب أن تتعايش فى أمان؟

خلال القرون السابقة حدث تمازج بين الحضارات مما يعطينا أملا فى التعايش.

ولكن توجد حضارات تتعالى على حضارات أخرى. فطبقا للصورة الذهنية عند الغرب فإن الحضارة الإسلامية هى عنف وإرهاب، وقتل ولكن إذا تم تصحيح هذه الصورة الذهنية يمكن أن يحدث تقارب بين الحضارات العربية

والإسلامية والغربية[1] وإذا كان هناك تعال من حضارة على أخرى فمن الصعب التفاهم.

لابد من الحوار بين الحضارات وتوضيح وسائل الإعلام الصورة الصحيحة عن الإسلام.

ما نتيجة صراع الحضارات على الشعوب ؟

نتيجة هذا الصراع تحدث أمرين للشعوب : إما أن تصاب بالقلق والتوتر ويضعف جهاز المناعة عند الإنسان ويصبح معرضا لكثير من الأمراض. وإما أن يحدث شيء آخر وهو اللامبالاة وعدم الاهتمام بأى شيء، لأن كثرة الصدامات والإحباط المستمر تؤدى إما إلى عدوان شديد جدا أو لا مبالاة تجاه المواقف.

ولحل الصراعات بين الشعوب نحتاج إلى رجال سياسة واقتصاد وعلم نفس وأطباء نفسيين لعمل دراسة عن الصراع بين الحضارات ومحاولة تقريب وجهات النظر ووضع قواعد للحوار.

ولابد أن يتغير مفهوم الحكام في العالم بألا يبحثوا عن أمجاد خاصة فالحرب ليست مجدا دائما وهى دمار أولا.

---

(١) قال تعالى : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ فهم فى رأيى يتعمدون سوء الفهم.

الفصل الثانى

الرب لا يحتاج جيوشا[1]

- ثمار الكراهية : انطواء كنائس الشرق وانتشار التصوف الزائف وميلاد حركات التكفير والإرهاب.

- الله القدوس زارع الحب لا يمكن أن يكون فى خدمة جماعات مسلحة ومرتزقة تتسلح بالدين.

- المصالح الشخصية تطغى على التصورات الدينية وقد تحالف العباسيون والفرنجة والأمويون وبيزنطة.

أعوذ بالله من أن أكتب هذه السور دفاعا عن الحروب الصليبية، أو عن أية حروب دينية، فإيمانى هو دعوة للحب، حتى للعدو إن كان لى أعداء، والمسيحية لا تأمر بالحروب، ولا تحبذ حل القضايا المحتدة بالسلاح، ولا تبارك أبدا العنف والقهر والظلم، أمور دوما هى ثمار مرة لكل الحروب، كما أن المسيحية ترفض مقاومة المعتدى عنفا إلا إذا كان الأمر واجبا وطنيا أو دفاعا عن قيم روحية أو حفاظا على العرض، ولا مفر منه، كما حدد ذلك القديس أغسطنيوس.

كلماتى هذه محاولة لقراءة تاريخ تلك الفترة التى امتدت أكثر من مائتى سنة، من ١٠٩٦م إلى ١٢٤٢م، إنه تاريخ تدفق الحملات الصليبية على الشرق وعلى الغرب، فلم تكن بلدان شرق أوروبا بمنأى عن خطر هذه الحملات. ولم تسلم جزر البحر المتوسط من سطوتها وعنفها.

والتاريخ يذكر لنا أن أحد أسباب هذه الحروب الصليبية اقتصادى

---

(١) د. الأنبا يوحنا قلته.

وسياسي، أما السبب الاقتصادى فكما يقول سيد على الحريرى ، فى كتاب «الأخبار السنية فى الحروب الصليبية»: « أنه حصل قحط ببلاد أوروبا عدة سنوات مترادفة، نتجت عنه فيها مجاعة عظيمة وكثر اللصوص وصارت مدنهم وقراهم لا تتحملهم. لذلك بادروا نحو أراضى المشرق الخصبة.. وأزعم أن السبب السياسى هو رغبة البابا فى توحيد بلدان أوروبا نحو هدف قوى ليكفوا عن قتال بعضهم البعض. والسعى لاستعادة النفوذ المسيحى فى المناطق التى سيطر عليها العرب».(١)

ملاحظات مهمة :

ينبغى فى دراسة تاريخ الحروب الصليبية أن ننأى بالإسلام دينا، وبالمسيحية دينا، عن دوافع وأسباب هذه الحروب. فهى لم تكن موجهة ضد الإسلام وإن حاربت بلاد المسلمين. فإنما هى محاولة للخروج من أزمات اقتصادية ومجاعات، وحرب لاستلاب الغنائم والثروة، واتخذت من الصليب راية. تماما كما حدث فى كثير من الفتوحات الدينية الأخرى. (٢) لقد كانت غزوات فردية أو جماعية محدودة، ولكنها تمضى دوما باسم الله وباسم الدين.

ويقول الباحث المسلم محمد سيد كيلانى فى كتابه «الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى»: «الواقع أن الحروب الصليبية كان سببها الرئيسى الرغبة فى تخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين. فقد كان زوار قبر المسيح يقابلون صعوبات جمة ومتاعب عظيمة، ولا عجب فى ذلك فقد كانت الأحوال فى بلاد الشام فى أقصى درجات الفوضى وتقاسم البلاد الشامية عدة أمراء كل منها فى حروب دائمة مع من يجاوره. وكانت أنباء اضطهاد زوار بيت المقدس تصل تباعا إلى أوروبا مع الحجاج العائدين من المشرق..»

---

(١) قلت : وهذا سبب دينى

(٢) يقصد الإسلام : والفتوحات الإسلامية كان هدفها نشر الإسلام

إنها حروب سياسية واقتصادية تتخذ من الدين نقطة انطلاق، ولعل ما فعله معاوية بن أبى سفيان الخليفة الأموى مثال على ذلك فقد فتح قبرص سنة ٢٨هـ وانتزعها من بيزنطة وصالح أهلها على دفع الجزية، لم يرغمهم على الإسلام ولم يترك عندهم حامية، فلقد كان الهدف سياسيا حتى لاتصبح الجزيرة معبرا لجيوش بيزنطية إلى دمشق، واقتصاديا إذ إنه اكتفى بجزية قدرها سبعة آلاف دينار فى كل عام.[١]

ثلاث إمبراطوريات :

يمكن القول بأن الوضع السياسى فى منتصف القرن الثامن الميلادى «النصف الأول من القرن الثانى الهجرى» بعد انتصار العباسيين قد تبلور فى وجود ثلاث قوى عالمية وهى :

- الإمبراطورية الإسلامية، العباسيون فى بغداد والأمويون فى الأندلس والصراع بينهما على أشده.

- الإمبراطورية المسيحية الشرقية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية .

- دولة الفرنجة - الكارولنجين «اللاتين» والصراع بين بيزنطة وروما لا يهدأ والمعارك بين حكام الإمارات الأوروبية لا تتوقف.

وحتى نتعلم من التاريخ فإن المصالح الشخصية تطفى كثيرا على التصورات الدينية أو حتى على العقائد الإيمانية. لقد قام عهد واتفاق بين العباسيين وبين الفرنجة، وكلاهما يشد أزر الآخر، فالعباسيون يطاردون الأمويين والفرنجة تطارد بيزنطة.. وعلى الجانب الآخر قام عهد واتفاق بين الأمويين فى الأندلس وبين بيزنطة فى القسطنطينية كمعاهدة لصد أعداء الطرفين.

---

(١) لا إكراه فى الدين.

أضف عاملا آخر أسهم فى إذكاء روح الحرب ضد الشرق، وهو عامل الفرسان المرتزقة التى كانت تبحث لها عن معركة من أجل الغنائم والأسلاب والجوارى والنفوذ، بل قامت عدة غزوات سريعة سواء من الشرق أو من الغرب هدفها الحصول على المغنم.

فى خضم هذه الأمواج المتلاطمة شرقا وغربا وانهيار نظم الحكم، وضياع قدسية الأراضى المقدسة، ولا ننسى أننا فى نهاية القرن العاشر وفى السنوات الأولى للقرن الحادى عشر والغيبيات ونفوذ رجال الدين وقدسية البابا فى الغرب، وأمير المؤمنين فى الشرق، تلك أمور يمكن أن تشرح لنا معنى خطاب البابا أربان الثانى الذى تسلم رئاسة الكنيسة الكاثوليكية بعد وفاة البابا فيكتور الثالث وتوج فى ٨ مايو سنة ١٠٨٨، ورأى أن حال المسيحيين وصل إلى قمة المأساة الطاحنة فى كل الشعوب المسيحية.

والمرتزقة فى الشرق والغرب يحيلون الحياة إلى جحيم، فأمراء الأراضى المقدسة يعيثون فيها فسادا.. والسلاجقة يهددون بيزنطة والشعب الاسبانى يساق ضحايا مؤامرات المغامرين والطوائف وصعاليك البحر يشنون الغارات على الشواطئ المسيحية.

دعوة البابا:

انطلقت الحملات الصليبية تلبية لدعوة البابا، وبدافع الحماس الدينى ظاهريا، أما حقيقة الأمر فإنه قد حصل قحط ببلاد أوروبا عدة سنوات متصلة نتجت عنه مجاعة عظيمة وكثر اللصوص وصارت مدن أوروبا وقراها لا تتحملهم، لذلك بادروا نحو أراضى المشرق الخصبة.

ولابد من أن تتخيل حال العالم الإسلامى والعالم المسيحى خلال مائتى سنة من الحروب والدمار والسبى وكيف كانت تمضى الحياة خلال الحروب

الدينية البشعة وما ارتكب فيها من وحشية يندى لها جبين المؤمن الحقيقى مسلما كان أم مسيحيا.

سبع حملات بدأت الأولى منها فى ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦م بقيادة الراهب بطرس الناسك، الذى اشتكى فيما بعد من فرسان الحملة وأطلق عليهم «اللصوص» فقد أعملوا التدمير والنهب في المدن المسيحية قبل وصولهم إلى شواطئ الشرق العربى، ضمت هذه الحملة جيوشا ثلاثة من ألمانيا وفرنسا وايطاليا، وعند وصولهم للقدس أعلن الألمانى جود افرى ملكا على القدس، وملكا على جثث سبعين ألفا قتلوا فى المدينة من المسلمين والمسيحيين الشرقيين ومن الغزاة.

فشل الحملات :

وجاءت الحملة السابعة سنة ١٢٤٢م - ٦٤٧هـ بقيادة القديس لويس التاسع، وحدث فى دمياط ما روته كتب التاريخ من أسر ومن فدية، وانتهت تلك الحروب بفضل الحملات الصليبية فقد هزمت من الجيش المصرى بقيادة الأشرف ملك مصر سنة ١٢٨٥م - ٦٠هـ ولكنها حروب تركت آثارا عميقة بعد مائتى سنة شهدت أعظم المآسى، ثم انتهت الصراعات بين أوروبا والعرب فى الأندلس بسقوط غرناطة عاصمتهم فى يد الأوروبيين سنة ١٤٩٢م - ٨٩٧هـ وكان الشرق والغرب قد وافقا على هذا الواقع، عاد الشرق إلى حضن أبنائه، ولكن مخلفات الحروب لا تنتهى بانتهاء سفك الدماء، فقد زرعت فى وجدان الشعوب آلاما وشكوكا لم تزل حتى اليوم تطوف بخيال البشر فى كل مكان.

ثمار الكراهية :

وهذه بعض الثمار المرة التى خلفتها الحروب الدينية والصليبية فى العصور الوسطى :

أولا : زرعت بذور العداء المستحكم بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى، وسيظل هذا العداء قرونا طويلة، فلم تكف الغزوات على الشواطئ العربية لجلب الغنائم والأسرى والرقيق، ولم يقف المسلمون مكتوفى الأيدى بل سينتقم الترك فيما بعد حتى تسقط القسطنطينية فى أيديهم، ويجد الغرب بلدانه مرة أخرى تحت رحمة السيف التركى الذى سيتوغل فى شعوب شرق أوروبا ويدق أبواب النمسا ويهز كرسى روما بعد أن أسقط كرسى بيزنطة.

أما فى البلدان العربية، فقد خلف الصليبيون وراءهم ميراثا كله أشواك وسموم فى وجدان الشعوب العربية، فانطوت كنائس الشرق على ذاتها، وبدأت فى الضمور والذوبان فى المجتمع الإسلامى، ولكن ينبغى أن تقال كلمة حق، فالشعوب العربية الإسلامية لم تتعامل مع أبنائها من العرب المسيحيين كأعداء، بل تركت لهم مساحة من حرية العقيدة والعبادة وقد أدرك الوجدان المسلم العربى الانتماء الأصيل والحقيقى الذى يربط مسلمى الشرق ومسيحييه، وظلت الأماكن المقدسة تحت سيادة المسلمين، ملتقى الحجيج بغير عسف أو قسوة.

حركة الأقوياء :

هل اختفى العداء بين الشرق والغرب ؟! إن القرن التاسع عشر سيعود بأهل الغرب مستعمرين للشرق العربى، ولكن بعد أن أسقط الغرب شعار الدين المسيحى، وتسلح بالعلم والقوة، ومزق أواصر الإمبراطورية\ التركية وعادت أوروبا من جديد تبسط نفوذها على عالمنا الشرقى، وسيظل التاريخ حركة الأقوياء لا يرحم ضعيفا أو جاهلا، وستظهر الحقيقة ساطعة لتقول للبشر : إن الصراع ليس صراع أديان أو قيم روحية، ليس حربا بين الإسلام والمسيحية، وإنما الصراع الحقيقى هو صراع السلطة والمال واللذات، فبعد كل هذه الحروب المدمرة مازالت المسيحية ساطعة متوهجة، ومازال الإسلام ساطعا متوهجا،

وستكون الغلبة لا شك فى ذلك لمن حمل للإنسان المحبة والرحمة والعدل والأخوة، فالأقوياء فى حركة التاريخ ليسوا من يحملون السلاح، وإنما من يحملون رسالة الروح والقيم، وليس كما ادعى ميكافيللى بأن النبى الذى لم يحمل سلاحا قد هزم.

ثانيا : سيطرة الأساطير والخرافات والشعوذة، ونشأ تراث أدبى وفقهى عربى بعيدا كل البعد عن أصول المسيحية وعن أصول الإسلام، فقد ظهر إبان الحروب الصليبية فقهاء على غير علم يدعون إلى الانتقام من المسيحيين، كما ظهر فى أوروبا أدعياء يشحنون النفوس للإنتقام من المسلمين.

هرب كثير من المسلمين إلى مكة يتخذون من الحرم مكانا، يباشرون فيه نوعا من الرهبنة ابتدعوها، كثر المتسولون والكسالى، وتفرغ الكتاب للرد على النصارى والشعراء لهجائهم والتنديد بهم.

روح الحزن :

كل هذه المصائب التى تراكمت على الناس والتى سببتها هذه الحروب ولدت عند الشعب فى الشام وفى مصر وفى فلسطين روح الحزن والاستسلام، وانتشر الشذوذ الجنسى انتشارا كبيرا، مع انتشار التصوف الزائف، وبخاصة بين الجنود الأكراد والترك، فالتجأ الناس إلى الخرافات والأساطير والأحلام يرون فيها الأنبياء والرسل، وظهرت أسطورة «قراقوش» القاسى الجبار وجعل منه الناس سخرية لهم وترويحا عن أنفسهم، وانتشر الدجالون والنصابون وكثر المحتالون والمشعوذون وراجت فنون السحر وأقبل الناس على الأحجبة والتمائم، وشغل الناس بالحديث عن الجنة ونسائها وبخاصة الشاعر ابن القيم الجوزية الذى أسرف فى وصف حوريات الجنة، وظهر فقهاء مثل تقى الدين بن تيمية الذى شنها حربا على النصارى، وكثر استعمال كلمة الكفر والكافرين ولايزال

ابن تيمية هو المصدر الأساسى لحركات التكفير والهجرة والإرهاب فى العالم الإسلامى.(١)

هل انتهت مأساة الإنسانية التى نسجت خيوطها الحزينة حروب الفرنجة، خلال قرنين من الزمن، بعد أن زرعت شوكا ساما من العداء والكراهية ؟!

عصر جديد :

وكأن قوة خافية تحرك التاريخ الإنسانى دون أن يدرى البشر، لقد حسم التاريخ أمره، وسلم العثمانيون أمر العالم الإسلامى فراح هذا العالم تحت وطأة حكم الخلفاء العثمانيين فى غفوة طويلة عميقة امتدت قرونا، بينما سلم التاريخ للغرب حكم اكتشاف العوالم الجديدة، ففتح القارات واخترق أسرار العلوم، ومضى شوط بعيد حتى بدا واضحا أنه امتلك ناصية التقدم فى العلوم الطبيعية وفى الفلسفة، وولد عصر جديد.

ومن أسوأ ما خلفته تلك الأزمنة الدامية الكئيبة، أزمنة الحرب والدين تراث أدبى فى العالم العربى من الشعر والخطابة والرسائل، يفيض بالعداء للمسيحيين جميعا شرقيين وغربيين، فالتهجم على العقائد الدينية والسخرية منها، وتصوير الأمم المسيحية كأمم همجية بلا أخلاق أو نظام، وإثبات تهم الكفر والوثنية بهم، وتفنيد مزاعمهم حول شخص السيد المسيح، لقد راجت سوق الخطابة إبان الحروب الصليبية، لأن الحاجة ماسة إلى استخدامها فى التحريض على الجهاد والكفاح فى سبيل الدين والترغيب فى قتال الكفار أعداء الإسلام، وبعد أن كانت الخطابة قبل هذه الحروب تتركز حول الإمامة والإمام والدعوة إلى الخضوع التام إلى الخليفة الفاطمى الذى هو ظل الله فى أرضه ولم يكن هناك جهاد أو كفاح وخفت صوت العاصفة واختفت المشاعر الرقيقة.

(١) ابن تيمية هو شيخ الإسلام الفقيه المجاهد -رحمه الله- وتلميذه ابن القيم كان من العلماء الكبار العاملين -رحمه الله- وهو تلميذ ابن تيميه

الرب .. والنصر :

لقد تساءل الكثيرون من أبناء المسيحية ترى لماذا لم ينصر الرب جيوشه لتخليص بيت المقدس مهده وأرض آلامه وقبر قيامته، كأن الرب فى حاجة إلى جيوش ليحقق خلاص العالم أو لنشر رسالة الإيمان، وكأن الله - وحاشا الله - ينبغى أن يكون فى خدمة جماعات مسلحة تتذرع بالدين وتنشر الرعب والفوضى وتسلب كل حقوق الآمنين، وتسلك سلوك الوحوش الضارية، أترى الله تبارك وتعالى يحابى المؤمنين اسما لا فعلا، وحياة المتمسحين فى الدين كذبا ورياء، أو جهلا وضلالا، أم أن الله القدوس، النور، الحب فى عون دعاة السلام، زرا ع الحب، بناة الأمن والطمأنينة.

إن الدين والتدين لا يعصمان من الهزيمة العسكرية، ولا يمنعان الكوارث أو الآلام، فالله له حكمته وإرادته الإلهية السامية التى لا ندركها بعقولنا المحدودة، وليس كل من يقول يارب .. يارب، يدخل ملكوت السماوات، وليست عند الله محاباة، والتقرب إلى الله القدوس له درب واحد، أن يتقدس الإنسان فى جهاد روحى متصل، والدين إن لم يكن عقيدة راسخة، وحياة معاشة، وحركة إلى الأفضل، وأخلاقا نبيلة ممارسة، لا قيمة له، ولا فاعلية، فقد اشترط الكتاب المقدس على المؤمن أن يكون بارا حتى يحيا «البار بالإيمان يحيا» لأن الإيمان بدون ممارسة إيمان ميت أو قل أقرب إلى الأسطورة.

عصر الحروب والتدين :

لقد عاش المسيحيون القادمون فى حملاتهم الصليبية مائتى سنة على أرض الشرق العربى، وقد ظله الإسلام وبسط فيه نفوذه وشرائعه، أقاموا المستوطنات بلغة عصرنا أو الإمارات بلغة ذاك العصر، عصر الحروب والتدين، أكلوا من طعام العرب وشربوا من مائهم، تشبهوا بهم، كما تشبه العرب بهم،

وأضحت هذه الإمارات ملتقى الغرب المسيحى بعاداته وتقاليده وطقوسه، والشرق الإسلامى بعاداته وتقاليده وطقوسه، ولا شك أن كلا الطرفين أثر فى الطرف الآخر تأثيرا عميقا بامتداد قرنين من الزمان، بين الحرب والسلام، بين التجارة والمصاهرة أحيانا، بين تعايش سلمى على أرض الواقع وما تفرضه سنة الحياة اليومية.

ولا أشك لحظة أن الغرب المسيحى حاول أن يكتشف الإسلام الدين الجديد، وما يحمله من مفاهيم جديدة حول الله، والشرائع الإلهية، والدنيوية أو اليوم الآخر، كما لا أشك لحظة أن المسلمين تأثروا كثيرا بنسك وقداسة بعض الرهبان والقديسين، فزيارة القديس فرنسيس الأسيزى للسلطان الكامل بدمياط ١١٨٢- ١٢٢٦ تركت آثارا عميقة وكشفت للمسلمين أن هناك مسيحيين غير صليبيين، على الرغم من أن الحملات الصليبية لم تنقطع بل اتصلت دفاعا وهجوما بين الغرب وبين الأتراك حتى بداية القرن السابع عشر، لعل آخر محاولة لانقاذ بيت المقدس كانت بين سنة ١٦٠٧-١٦٠٨ حين نزل فريناند الأول ملك توسكانى إلى جزيرة قبرص وفشلت هذه المحاولة التى ختمت أحلام أوروبا المسيحية فى تخليص الأراضى المقدسة بعد أن استطاع الأتراك أن يثأروا للمسلمين كما سبق أن أشرت إليه.

أسئلة خطيرة:

وأزعم أن الإسلام الذى واجهه مسيحيو الغرب طرح أسئلة خطيرة وجادة فى فكرهم وفى فلسفتهم، بل فى شئون حياتهم الاجتماعية، فهو الدين الذى طرق أبواب أوروبا فى إلحاح متصل حتى سقطت العاصمة الثانية وبعض مدن أوروبا بين أيدى المسلمين، ولم يكن غزوا كسابق عهدهم بغزوات أهل الشمال أو التتار، وإنما كان غزوا دينيا قبل كل شىء،

وظل يطوق حدود أوروبا فى الجنوب وفرض سيادته على بعض جزر البحر المتوسط وزحف فى محاولات مستميتة لفتح فرنسا ووصل إلى بوردو، وقام بعدها بمحاولات لفتح سويسرا، هذا الدين الآتى من قلب الصحراء فى شبه الجزيرة العربية نجح خلال نصف قرن أو أقل أن يحول المشرق والمغرب كله إلى إمبراطورية إسلامية عربية.

ظل هذا الدين مجهولا لا ترى أوروبا فى اتباعه إلا بربرا يغزون ويفتحون البلاد عنوة ويستولون على الغنائم والكنوز والجوارى، إنها الصورة التى طبعت فى ذهن الغرب المسيحى، وقد شهد مأساة الانفصال بينه وبين الشرق المسيحى ثم شهد الغرب المسيحى كيف استكان العالم المسيحى الشرقى للحكام الجدد،

بعض المؤرخين رأوا فى الإسلام جلادا للحضارة الهلينية والبعض الآخر رأى فيه عقابا من الله على انقسام وصراع الكنائس، وآخرون قالوا أنه عقاب على فساد حكام بيزنطة أو هو تأديب للشرق المسيحى المتمرد على الكنيسة الأم فى روما، لم يتبين المؤرخون إلا بعد ذلك بزمن طويل، أن الإسلام دين له كل مقومات الدين وهو يحمل فى طياته نظاما للحياة وللمجتمع، وحضارة ستعيش موازية للحضارة المسيحية ومنافسة لها

الفصل الثالث

صاحب نظريات الحرب

خجول مات بالكوليرا !(١)

- اكتشف الشروط العامة لكل حرب بعد الحروب التى خاضها ضد نابليون فى صفوف الجيشين الروسى والألمانى !

- رغم خبرته وشجاعته فى القتال لم يتقلد منصبا قياديا وعمل مديرا للمعهد الحربى بألمانيا .

- الحرب العالمية الأولى كانت ثمرة سيئة لتجاهل أفكاره والولايات المتحدة استعانت بآرائه فى حربها ضد الإرهاب.

لكل عصر أشكاله الخاصة للحرب وظروفه المحددة وأسلحته وقياداته العسكرية التى تحكم التعامل مع الحرب وطريقة إدارتها، لكن كل هذه الأشكال تحكمها قواعد عامة واستراتيجيات للعمل ثابتة الأسس تعرف بنظرية الحرب، والمفاجأة التى نقدمها هنا أن صاحب نظريات الحرب فى العصر الحديث وهو «كارل فون كلاوزفيتز» الذى لقب بأبى الاستراتيجية الحديثة كان خجولا مات بالكوليرا بعد أن عجز جسده عن التصدى لهجمات الوباء اللعين.

وعلى الرغم من أن «كلاوزفيتز» رحل عن العالم عام ١٨٣١ أى قبل التطور الكبير فى طبيعة الحرب والأسلحة الحديثة التى تطورت أكثر من مرة خلال القرن الماضى فان نظرياته بقيت خالدة على مر العصور ومازالت قواعده هى الأسس العريضة التى يستفيد منها خبراء الاستراتيجية والعسكرية فى إدارتهم لأى حرب، خاصة أن «كلاوزفيتز» استفاد من حروبه التى خاضها ضد

---

(١) ناهد عزت.

نابليون ضمن صفوف الجيشين الألمانى والروسى فى تقديم تحليلات لطبيعة الحرب ونظرياتها ومحاولة اكتشاف الشروط العامة لكل حرب بالاعتماد على التاريخ المعاصر وبالعودة لأصل النزاع وهو ما لم يفعله أى مؤلف عسكرى قبله.

ولأن الفكر العسكرى الأمريكى فكر حديث معاصر يفتقر إلى الأصالة التى تميز الفكر العسكرى الأوروبى فإن المفكرين العسكريين الأمريكيين يقتفون أثر «كلاوزفيتز» فى حروبهم وآخرها حربهم ضد الإرهاب فى أفغانستان.

فى البلاط الملكى :

ولقد لعبت نشأته العسكرية دورا كبيرا فى حياته وأفكاره، فهو ولد الجنرال «كلاوزفيتز» فى يونية ١٧٨٠ فى مدينة برج بإقليم «بروسيا» شمال ألمانيا الحالية. وكان والده ضابطا فى جيش بروسيا «ألمانيا الحالية»، ثم عمل موظفا بمصلحة الضرائب بعد إصابته فى إحدى المعارك، وسار «كلاوزفيتز» على خطى والده. وفى عام ١٧٩٢ انضم إلى الجيش البروسى وشارك فى الحملة المعروفة باسم حملة «نهر الراين» ١٧٩٣-١٧٩٤ ضد الجيش الثورى الفرنسى ودرس العلوم العسكرية فى المعهد الحربى ببرلين. وبفضل أستاذه استطاع دخول البلاط الملكى والتعرف على كبار رجال المجتمع البروسى آن ذاك والزواج من «الكونتيسة» مارى فون بروك.

وشارك «كلاوزفيتز» فى معركة «جينا» عام ١٨٠٦ ضد الجيش الفرنسى بقيادة نابليون بونابرت ووقع أسيرا فى أيدى الفرنسيين فى «بريسلاد» جنوب غربى بولندا وظل أسيرا حتى عام ١٨٠٨ . وحين عاد إلى بروسيا انضم للخدمة فى صفوف الجيش الروسى خلال حملة نابليون على روسيا عام ١٨١٢ وهناك تميز «كلاوزفيتز» كواحد من أبرز الضباط فى هيئة أركان الجيش الروسى، كما يعود إليه جانب من الفضل فى نجاح عملية الانسحاب الاستراتيجى التى نفذها

الروس فى تلك المعركة. وكذلك فى نجاح المفاوضات التى أسفرت عن اتفاقية «توروجن» التى مهدت الطريق عام ١٨١٢ لإقامة تحالف بين بروسيا وروسيا وبريطانيا ضد نابليون.

ثم عاد «كلاوزفيتز» للعمل من جديد فى الجيش البروسى وأصبح رئيسا للأركان خلال معركة «ووترلو» عام ١٨١٥ وكان له دور كبير فى هزيمة الجيش الفرنسى والخلاص نهائيا من خطر نابليون، وفى عام ١٨١٨ رقى «كلاوزفيتز» إلى رتبة جنرال وعين مديرا للمعهد الحربى، ثم تولى قيادة القوات البروسية التى تم نشرها لمراقبة الأحداث فى بولندا فى أعقاب ثورة ١٨٣٠ وهناك أصيب بالكوليرا وتوفى يوم ١٦ نوفمبر ١٨٣١.

نظريات مهمة :

ولقد أتاح له منصبه كمدير للمعهد الحربى لمدة اثنى عشر عاما مجالا واسعا لكتابة دراساته التاريخية.

وفى دراساته حاول «كلاوزفيتز» أن يؤرخ لمختلف المعارك والحروب التى قادها نابليون، لكن أهمية تلك الدراسات تبقى فى الجوانب الفنية العسكرية الخالصة التى اهتم بها، لهذا فإن كتاباته لاقت اهتماما واسعا من الدارسين الألمان وتركت أراؤه المختلفة أثرها فى نمط التفكير العسكرى الألمانى بشكل عام.

ولم تقف أفكار «كلاوزفيتز» عند حد النظريات الحربية الخالصة، بل إنه قدم تحليلات تتفق مع علم العلاقات الدولية المعروف حاليا والذى يشكل أساسا لفنون الدبلوماسية والاستراتيجية، لذلك فإن كلا من كارل ماركس وفريدريك إنجلز مؤسسى الفكر الاشتراكى اهتما بمناقشة أفكاره فى كتاباتهما كما قام لينين زعيم الثورة الشيوعية فى روسيا بدراسة نظرياته السياسية عندما كان

يعيش في المنفى بسويسرا، ولذلك فإن بعض الخبراء يؤكدون أن النظرية الشيوعية حول طبيعة الحرب استمدت جانبا كبيرا من أفكار «كلاوزفيتز» بما في ذلك المفاهيم الشيوعية حول الحرب الامبريالية.

أبرز أعماله :

وبحلول منتصف القرن العشرين وابتكار أنظمة متطورة من الأسلحة الطويلة المدى تضاءلت أهمية نظريات «كلاوزفيتز» عن الاستراتيجية الحربية خصوصا لاقترانها الوثيق بأشكال الحرب البرية، لكن كثيرا من أفكاره الأساسية تظل ذات جدوى ونفع ملحوظين. ويظل كتابه «في الحرب» ، هو أبرز أعماله من حيث تأثيره العميق في كثير من خبراء الاستراتيجية والمؤرخين المعاصرين، وكذلك في عدد من المفاهيم الاستراتيجية الحديثة، وهو الكتاب الذي احتل مكانا منفردا في تاريخ الفكر العسكري. وقد أدت الانتصارات الألمانية الباهرة في الفترة من ١٨٦٦-١٨٧٠ إلى انتشار أفكاره في كل جيوش العالم التي بدأت تقلد النظام البروسي في كثير من النواحي.

وفي هذا الكتاب حلل «كلاوزفيتز» الحرب بمزيج من الفلسفة والتأمل والتجربة وبذلك اعتبر منشيء ومؤسس الفكر العسكري الحديث، وكتب «كلاوزفيتز» في كتابه «في الحرب» خلاصات تجارب الملك فردريك الثاني «الأعظم» ملك بروسيا وتجارب نابليون في حروبهما المختلفة لاكتشاف مقومات العبقرية العسكرية وتحليلها وبيان العلاقة الوثيقة بين السياسة والحرب، وذلك لتحديد العوامل المؤدية إلى الانتصار في الحرب كما قدم تعريفا للحرب قاد الفكر العسكري في أنحاء العالم لفترة طويلة من خلال مقولته الشهيرة عن الحرب بأنها مجرد امتداد للسياسة، لكن بوسائل أخرى.

وأكد «كلاوزفيتز» في كتاباته على ضرورة أن يكون لدى القائمين على

وضع السياسة العامة للبلاد إلمام ولو محدود بالشئون العسكرية ومن منطلق إدراكه لحقيقة أن معظم قادة الحكومات ليسوا خبراء عسكريين فإنه أوصى بأن يكون القائد الأعلى لقوات أى بلد واحدا من أعضاء الحكومة التى تدبر شئون هذا البلد، ويبدو أن عددا كبيرا من الساسة فى عصرنا الحالى قد أخذوا بهذه الوصية واستفادوا منها وأدركوا مدى صحتها من خلال النجاحات العسكرية التى حققتها بلادهم فى مختلف النزاعات التى خاضتها.

وقد أكدت كثير من التجارب العسكرية المعاصرة صحة ما أشار إليه «كلاوزفيتز» فى كتاباته من أن مستوى الشجاعة والفاعلية فى استخدام الوسائل العسكرية المتاحة لدعم توجهات السياسة الخارجية فى بلد ما، وتحقيق أهدافها، يتوقف على مدى قوة العلاقة بين كبار القادة العسكريين فى هذا البلد وحكوماتهم.

ويتوقف ذلك بدوره كما يقول «كلاوزفيتز» على مدى قدرة القائد العسكرى على إيصال وجهات نظره وقدرة رجل الدولة على إدراك العلاقة السكانية بين طبيعة الحرب وأهدافها وأسلوب إدارتها ووصف «كلاوزفيتز» تلك العلاقة بأنها علاقة لاتخلو من شىء من المفارقة وتقوم على محاور ثلاثة هى الشعب والقائد العسكرى مع جيشه والحكومة.

ويرى أن للشعب علاقة بطبيعة الحرب والقائد العسكرى مجاله إدارة الحرب فى حين تهتم الحكومة بأهداف الحرب، ولذلك ينصح «كلاوزفيتز» بضرورة معرفة شخصية حكومة العدو وشعبه وقدراتهم والصفات المتماثلة التى تجمع المتحاربين، بالإضافة إلى ضرورة دراسة العلاقة السياسية للعدو والأثر الذى ستحدثه الحرب فى مختلف الدول.

وعلى الرغم من أن أفكار «كلاوزفيتز» عن الاستراتيجية قد أثرت فى الفكر العسكرى بدرجة كبيرة خلال القرن التاسع عشر فإن فترة ما قبل الحرب

العالمية الأولى شهدت تدهورا فى التفكير الاستراتيجى الذى أدى إلى نشوب حرب كبرى ذات عمليات هجومية انتحارية تتسم بالثبات وعدم الحسم وخالية من أى تخطيط أو توجيه استراتيجى ولا هدف لها ولا يوجد من يعرف متى أو كيف يوقفها.

ودائما كان «كلاوزفيتز» حريصا على أن تتم الحروب فى أضيق نطاق وألا تتسع لتشمل أعدادا كبيرة فكان يرى أنه إذا كان تحطيم الأعداء كلهم يتم بتدمير عدو واحد منهم فإن من الواجب اعتبار هزيمة هذا العدو هدفا للحرب لأن الضربة المسددة إليه تصيب فى هذه الحالة مركز الثقل المشترك للحرب كلها، ولعل هذه الاستراتيجية هى التى استفادت منها أمريكا فيحربها الحالية ضد الإرهاب.

الفصل الرابع

حق الدفاع عن النفس[1]

- د. عائشة راتب هيبة أمريكا جعلت مجلس الأمن يقفز بالعقوبات إلى المستوى العسكرى فورا

د. أحمد رفعت :لا يوجد تعريف فى كل ميثاق الأمم المتحدة لكلمة إرهاب!

- د. أحمد أبو الوفا أخطر من حق الدفاع عن النفس .. حق الدفاع الوقائى.

د. أميرة الشنوانى · من يحاكم الدول الكبرى التى تؤوى الإرهابيين ؟!

متى يجوز إعلان الحرب لهذا السبب ؟ وهل هذا الحق مطلق ؟ ومن الذى يمنح الدول سلطة اتخاذ قرار بأن تدافع عن نفسها أم أنها ليست فى حاجة لقرار.. وإذا لم تكن كذلك فلماذا إذن منح مجلس الأمن للولايات المتحدة قراراً بحق الدفاع عن النفس ولدت عبارة «حق الدفاع عن النفس» سواء بين أفراد أو جماعات أو بين دول . كان هذا فى غياب السلطة التى تعطى من الحماية ضد أى عدوان.. بل إن القانون الجنائى فى كل بلدان العالم يقر هذا المبدأ، ولكن فى عام ١٩٤٥ وطبقا لميثاق الأمم المتحدة فى المادة ٥١ من الفصل السابع حدد الميثاق معنى الدفاع عن النفس واعتبره حقا طبيعيا للدول فرادى أو مجتمعين لدفع أى اعتداء مسلح على أى عضو من أعضاء الأمم المتحدة.

من جانبه قيد مجلس الأمن، وطبقا لميثاق الأمم المتحدة أيضا، هذا المبدأ فى أنه أولا لم يستخدم كلمة «حرب» فى ميثاقه لأن الأساس هو السلم والأمن العالميان وحدد شروطا لهذا منها أن يكون دفع هذا العدوان المسلح حاليا

---

(١) روزاليوسف سمير رضى

ومباشرا وداهما، بمعنى ألا يكون بعد فترة.. أسابيع مثلا.. لأن دفع العدوان فى هذه الحالة يكون قد انتفى.

غير أن الدكتورة عائشة تضيف : من حق مجلس الأمن اتخاذ مبدأ التدابير وهو ما يعرف بالعقوبات التصاعدية طبقا أيضا لأحكام الفصل السابع ولكن فى المادتين ٤٠ و ٤١ حيث الإجراءات المؤقتة غير العسكرية .. مثل الحصار الاقتصادى برا وجوا وبحرا وأخيرا الإجراءات العسكرية فى المادة ٤٢. وفى الحالة الأخيرة قفز مجلس الأمن بالإجراءات إلى المستوى العسكرى من أجل أمريكا وهيبتها باعتبارها أقوى دولة فى العالم.

مبدأ التناسب :

ويقول د. أحمد أبو الوفا الأستاذ والخبير الدولى بجامعة القاهرة هناك أيضا مبدأ التناسب بمعنى أن يتناسب رد الفعل أو دفع العدوان مع العدوان أو الحدث نفسه، بالإضافة إلى مبدأ ضرورة رد العدوان بشكل مسلح أو عسكرى، حيث لا توجد وسيلة أخرى لهذا الرد إلا اللجوء المسلح لوقف هذا العدوان.

ويضيف د. أحمد أبو الوفا مشكلة أفغانستان مثلا أعتقد أنه لا ينطبق عليها مبدأ الدفاع عن النفس، لأن الاعتداء الذى حدث فى نيويورك وواشنطن انتهى منذ أسابيع، وبالتالى تعتبر الأعمال الأمريكية من قبيل التأديب أو الأعمال الانتقامية، فطبقا لميثاق الأمم المتحدة هناك مبدأ حظر استخدام القوة لحل المشكلات، كما جاء فى المادة الثانية الفقرة الرابعة وحل المنازعات بالطرق السلمية كما فى المادة الثانية بالفقرة الثالثة.

إرهاب غير محدد :

يقول د. أحمد رفعت عميد حقوق الزقازيق وأستاذ القانون الدولى :

إن المشكلة الحقيقية فى تطبيق المادة ٥١ من الفصل السابع فى مسألة حق الدفاع عن النفس. أن القرار الصادر من مجلس الأمن هو حملة ضد الإرهاب وللأسف لا يوجد تعريف محدد فى الميثاق لتعريف الإرهاب والتفرقة بينه وبين الرد على احتلال أرض بالقوة.. مثلما يحدث فى فلسطين المحتلة أو لبنان أو الجولان فى سوريا ولأن ما يحدث فى تلك البلدان هو حق مشروع كفله القانون الدولى وميثاق الأمم المتحدة وقد تم تنفيذه بالفعل فى المشكلة العراقية الكويتية فى عام ١٩٩٠.

ويضيف د. أحمد رفعت أعتقد أنه كان يجب الأخذ بالنداء المتكرر للرئيس مبارك منذ ١٩٨٦ لعقد مؤتمر عالمى لمحاربة الإرهاب وتحديد تعريف محدد وواضح وسبل المكافحة المطلوبة للقضاء على هذا الوباء العالمى، حتى لا تكون هناك فوضى فى تطبيق القوانين الدولية وتفسيراتها المتعددة بين قوة كبيرة وأخرى صغيرة، لا حول لها ولا قوة.. وهنا سينمو الإرهاب تلقائيا فى كل بلدان العالم.

وقال د. أحمد رفعت : إن ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية فى حربها ضد الإرهاب وتجييش العالم ضد عدو مجهول المعالم والهوية يصنع من متطرفين مثل بن لادن وأيمن الظواهرى أبطالا وقديسين فى نظر العالم والشباب. لأن هذه القوة الكبيرة تحارب هؤلاء مع الوضع فى الاعتبار أن سياسة الكيل بمكيالين التى اتبعتها أمريكا مع إسرائيل فيما يحدث فى فلسطين يعزز ويقوى هذا الاتجاه.

وكان الأولى اتخاذ إجراءات أولية أيضا دون اللجوء العسكرى الكبير بمحاولة تجفيف منابع الإرهاب اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا أيضا.

إزدواجية المعايير :

وتلتقط د. أميرة الشنوانى أستاذ العلوم السياسية جامعة القاهرة خيطا آخر قائلة: إن حق الدفاع عن النفس الذى يرفعه هذا التحالف وطبقا لقرار مجلس الأمن الصادر فى ٢٩سبتمبر برقم ١٣٧٣ يظهر لنا مدى ازدواجية المعايير بين القوى الكبرى والصغرى فى تفسير القانون الدولى حسبما تراه هذه الدول الكبرى فقط.

أولا أن مبدأ الدفاع عن النفس الذى تحاول تطبيقه أمريكا لنفسها لا تطبقه لباقى الشعوب والدول الأخرى، وهذا ليس سلوك دولة عظمى يفترض فيها أن تطبق مبدأ «العدالة الكاملة» وليس العدالة المطلقة كما أعلن . فالشعب الفلسطينى يتعرض لمجازر من قبل الدولة الإسرائيلية يوميا ضد الأبرياء والمدنيين وتعتبره أمريكا إرهابا ضد إسرائيل.. وأن الشعب الفلسطينى يمارس حقه الطبيعى والقانونى فى مكافحة الإرهاب الإسرائيلى.

وتضيف د. أميرة الشنوانى : هناك أكثر من ١٥٠ دولة قد تم تحريرها واستقلالها عن طريق الثورات والانتفاضات والحروب ، فهل هذه الدول كانت تمارس إرهابا، بل إن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها خاضت حروب التحرر من أجل الاستقلال.

ثانيا – والكلام لايزال للدكتورة أميرة الشنوانى – هناك مطالب للولايات المتحدة محددة فى أفغانستان وهى بن لادن ومجموعة القاعدة الإرهابية، ولكن تجييش هذه الأساطيل لاقتحام أو الاعتداء على دولة عضو فى الأمم المتحدة لمجرد أن بها أشخاصا غير أفغانيين مثل بن لادن وأيمن الظواهرى وغيرهما لا يعطيها الحق فى غزو دولة مستقلة وقتل الأبرياء بها

ولا سيما أن هناك من الإجراءات القانونية الدولية غير العدوان المسلح

مثل حرب المعلومات أو القوات الخاصة لتحقيق هذا الهدف، بالإضافة إلى أن محاولة تغيير نظم حكم فى بلد من خلال العدوان باسم مجلس الأمن والأمم المتحدة، سيكون له تداعيات خطيرة فى المستقبل.

وتضيف إن أمريكا وانجلترا وكثيرا من دول الغرب المتحضر تؤوى إرهابيين سنوات طويلة ولاتزال، فما هو حكم مجلس الأمن وميثاقه الذى وضع فى عام ١٩٤٥ ثم إن إعلان الحملة الدولية التى تقودها الولايات المتحدة ضد منظمات دول أخرى تؤوى أو تساعد الإرهاب غير المحدد المعالم سيكون ما يطلق عليه فى العلاقات السياسية الدولية «حرب بالوكالة» أى بالوكالة عن إسرائيل ولصالحها، وهذا بالطبع سوف يؤدى إلى توتر فى منطقة الشرق الأوسط ويصنع بالطبع من نماذج الإرهاب والتطرف الدينى أبطالا يحتذى بهم من الشباب .. الأمر الذى يؤدى إلى فوضى.

الدفاع الوقائى :

وتقول د. عائشة راتب أستاذ القانون الدولى بجامعة القاهرة :

إن عدم المساواة فى التعامل مع المشكلات بين الدول واللجوء إلى تجييش العالم لتحقيق مصالح ونشر الحروب فى بقاع الأرض بهذا الشكل سيؤدى إلى فوضى لا يعلم أحد مداها، خاصة تطبيق ما يطلق عليه فى القانون الدولى حق الدفاع عن النفس. ولكن فى صيغة أخرى وهى الدفاع الشرعى «الوقائى» فهذا الأمر يثير كثيرا من اللغط لدى دول صغرى إمكانياتها العسكرية محدودة أمام الدول الغربية الكبرى.

وهو مصطلح تم الترويج له منذ فترة وهو حق التدخل عسكريا لضرب أو إجهاض قوات لدولة أخرى ليست فى حالة عدوان ولكن لتحقيق مصلحة كما حدث فى الاعتداء على مصر عام ١٩٥٦ من قبل فرنسا وانجلترا ومعهما

إسرائيل قالوا أنها حرب للدفاع الشرعى الوقائى.. وليست عدوانا للدفاع عن النفس، وحينما قامت إسرائيل بضرب مصر عام ١٩٦٧ أيضا رددت هذه المصطلحات.

وتضيف د. عائشة راتب إن البوادر الحقيقية لعدم المساواة هى الطريق الذى يؤدى إلى الإرهاب ونموه عالميا أشكاله تجسدت فى ضرب السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا، بالإضافة إلى عدم اختيار أمريكا العظمى فى لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة لفترة أخرى وما حدث أيضا فى مؤتمر حقوق الإنسان فى جنوب أفريقيا لأكثر من ثلاثة آلاف منظمة غير حكومية «أدربان» وما حدث أيضا فى سياتل وجنوا فى دول غربية وليست شرق أوسطية.

هؤلاء سواء كانوا من الشرق أو الغرب أحسوا بعدم العدالة سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية. هذا بالإضافة للمشاعر الغاضبة التى اجتاحت العالم بأسره من جراء قتل الأبرياء فى ١١ سبتمبر إلا أنها مشاعر أسى وحزن متبادلة بين الشعوب بعضها ببعض غربية وشرقية وليس بين الشعوب وبعض الحكومات للدول الكبرى.

غير محددة:

ويؤكد د. أحمد أبو الوفا أستاذ القانون الدولى قائلا: إن ممارسة حق الدفاع الوقائى الذى تمارسه بعض الدول الكبرى هى فكرة خطيرة للغاية لأنها غير محددة المعالم فضلا عن أنها تخدم فقط مصالح الدول القوية، وهو ليس حقا مشروعا للدفاع عن النفس، لأن الميثاق الدولى لا ينطبق عليه الذى يفترض واقعيا حدوث عدوان ويتطلب رد هذا العدوان.

وعن مدلول إعلان دولة أن دولة أخرى هى التى بدأت بالعدوان قانونا،

يقول د. أحمد رفعت أستاذ القانون الدولى أنه حدث مثلا بالنسبة لحرب ١٩٦٧ عندما اعتدت إسرائيل على مصر، ثم صرحت بأن القاهرة هى التى بدأت الحرب.. تلك ليست سوى مبررات سياسية إعلامية لإظهار الظلم الواقع على إسرائيل من أحد جيرانها.. وخاصة أنها تمتلك سيطرة إعلامية كبيرة فى الدول الغربية مما يساعدها على قلب الحقائق.

ويؤكد د. أحمد رفعت أن الولايات المتحدة الأمريكية والغرب سيعيد ترتيب أوراقه من جديد بعد حادثة ١١ سبتمبر الإرهابية لامتصاص غضب بعض الشعوب أولا والوقوف ضد الإرهاب الأسود الذى أصبحت الدول الغربية ليست بمنأى عنه ولا تستطيع هذه الدول الوقوف وحدها ضده دون تعاون الغرب مع الشرق للقضاء عليه.

أربع نقاط:

ويحدد د. أحمد أبو الوفا أستاذ القانون الدولى أربع نقاط تحتاج إلى إعادة نظر من قبل الدول الكبرى أولا لا يمكن أن يدفع الأبرياء ثمن أخطاء بعض الأشخاص أو الاعتداء على ممتلكات مدنية، ثانيا التعاون المخلص لمحاربة هذه المشكلة، ثالثا ضرورة تطبيق العدالة الدولية إذ إنه أس الملك داخليا وخارجيا.. لأنه إذا توخيت العدل امتنع العنف، رابعا إذا كان من حق الدولة اللجوء إلى الانتقام من أفراد دولة معينة لا يجوز الشطط ولكن مبدأ التناسب فى رد الفعل.

الفصل الخامس

بالوثائق : هتلر .. كان شاذا !(١)

وهتلر من أصل نمساوى وظل فنانا فاشلا لم يحقق شيئا فى فترة شبابه الأولى، ولكنه كان وطنيا متطرفا له أفكار صارمة ظن أنها تخدم وطنه، حتى انضم للجيش الألمانى إبان الحرب العالمية الأولى لتحقيق طموحه.،. فى هذه الأثناء منح ميداليتان شرفيتان بسبب إخلاصه وإصابته فى الحرب.

عقب إحساسه المرير بصدمة هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الأولى انضم عام ١٩١٩ إلى حزب «ميونخ» الذى عرف بـ «حزب العمال الألمان الوطنيين الاشتراكيين»، أو الحزب النازى كاختصار للأحرف الأولى ثم رأس هتلر هذا الحزب وأصبح يطلق عليه لقب «القائد» أو «الفوهرر» وعمل هتلر على توسيع الحزب وزيادة قوته.. وفى عام ١٩٢٣ قاد هتلر عملية انقلاب فاشلة عرفت آنذاك بـ «انقلاب حانة ميونخ» اعتقل على أثرها وأدين بالخيانة ولكنه أفرج عنه بعد أقل من عام.

فى عام ١٩٣٣ أصبح هتلر مستشارا لألمانيا، وشهدت الدولة فى عهده نهضة حقيقية لكنه أعلن الحرب التى أصبحت الحرب العالمية الثانية.. ويعزى الكثير من المؤرخين نجاحاته إلى الانهزامية وسهولة استسلام الدول الأوروبية وليس إلى قدراته العسكرية الخارقة.. وقد سارت الأمور لصالحه حتى هزيمته وحتى بعد توالى هزائمه فإن ألمانيا بزعامته ظلت تحارب حتى انتحاره عام ١٩٤٥.

طوال فترة الحرب العالمية الثانية عمل هتلر على محورين الأول عسكرى وقد تضمن فتوحاته العسكرية والحربية بما يعمل على نشر أفكار حزبه النازية وتوسيع رقعة الدولة الألمانية وبالتالى ضمان سيادتها على العالم.

(١) داليا هلال .

المحور الثانى يمكن وصفه بالمحور الفردى وقد عمل من خلاله على تحقيق انتقامه الشخصى وتنفيذ سياساته العنصرية بصورة منفصلة عن الخط العسكرى، لكنها تسير متوازية معه، وكان أعوانه يقدمون له باستمرار قوائم بأسماء المطلوب إعدامهم والتمثيل بجثثهم للتخلص منهم تماما من أجل سيادة الجنس الآرى الألمانى.

وهذه القوائم لم تكن تشمل أسماء اليهود وحدهم وإنما أسماء قبائل كاملة من الغجر والروس الذين كان يكرههم بشدة وكان يتم تجريد هؤلاء من حليهم الذهبية بل من الأسنان الذهبية والفضية أيضا وحرقهم فى أفران غاز كبيرة ثم تحويل بقاياهم لاستخدامها فى صناعة الصابون.[1]

الكثير من المحللين النفسيين يرى أن هذا المزاج السادى والانحياز الغريب إلى الملامح الآرية «ذهبية الشعر وزرقاء العيون» له ما يبرره فى الخلفية الجنسية عند هتلر. وهى النظرية التى تبناها المؤرخ الألمانى «لوثر ماختان» فى كتابه الجديد «سر هتلر : الحياة المزدوجة لديكتاتور».

يرى «ماختان» أن شذوذ هتلر، يعود إلى فترة إقامته فى الأحياء الفقيرة القذرة فى فيينا وهى الفترة التى شهدت تحوله إلى الكراهية الشديدة لليهود، وبدأ ازدهار الحركة النازية وولع هتلر الشديد بالكثير من زعماء الحزب النازى ومنهم «أرنست رويهم» و«رودلف هس» والذى يرى البعض أنه تعدى مجرد مرحلة الإعجاب الشديد بزعامة سياسية ما.. إلى مرحلة الافتتان الشخصى اللا أخلاقى بهم.

يقول «ماختان» فى كتابه أن «رويهم» مات أثناء ما عرف بفضيحة «ليلة

---

(١) بعض الكتاب والمؤرخين كذبوا مسألة أفران الغاز ومنهم رجاء رودى المفكر الفرنسى الذى أشهر إسلامه.

السكاكين الطويلة» عام ١٩٣٤ وقد وجده جنود هتلر فى سريره مع فتى صغير حين جاءوا لإلقاء القبض عليه.. وهو ما فسره المؤرخ الألمانى باعتباره محاولة من هتلر للتخلص من «رويهم» حتى لا يفضح العلاقة الشاذة بينهما.

ويؤكد المؤرخ الألمانى أن هتلر كان له أكثر من علاقة فى شبابه حتى إن قائمة أصدقائه ضمت شبابا محترفا للواط وبحلول العشرينيات من القرن الماضى صارت لهتلر رغبة شيقة مرضية.. هذه الرغبة تجلت تماما فى فترة الحرب العالمية الأولى التى حصل هتلر فيها على ميدالية الصليب الحديدى من الطبقة الأولى.

واستنادا إلى وثائق تاريخية تعود إلى فترة خدمة هتلر العسكرية فى الحرب العالمية الأولى، يؤكد المؤرخ نظريته.. ويقول هناك أوراق كان هتلر يصف فيها أحد زملائه من الجنود واسمه «أرنست شميدت» بأنه «حبيب» وفى وثيقة أخرى ينعته فيها زملاؤه فى الفرقة نعوتا مشينة، ويشيرون إليه قائلين «هتلر وشميدت عاهرته الرجل».. مثل هذه العبارات تكررت كثيرا فى حديث زملائه فى الجيش عنه.

وفى مذكرات «هانز مند» المسئول عن الذخيرة فى الفرقة - كما جاء فى كتاب ماختان - فقد جاءت فقرة تقول «هتلر يستلقى ليلا مع عشيقته ذات الصفات الرجالية «شميدت» وعندما سمعنا حفيفا بين الشجيرات ذات ليلة قام أحدنا بإضاءة بطاريته الكهربية وهناك كان اللواطيان سويا».

بناء على هذه الوثائق وعلى غيرها من الشواهد فقد استنتج المؤرخ الألمانى «لوثر ماختان» أن هتلر أقام كذلك علاقات شاذة مع كبار المسئولين الألمان وكذلك مع «رودلف هس» أحد كبار زعامات حزب النازى.

الباب الثالث :

الفصل الأول

حروب محمد على

كيف تولى محمد على حكم مصر:

فى الأرض الأوربية من الإمبراطورية العثمانية ظهر نجم جديد فى سنة ١٧٦٩فى مدينة قولة التى تطل على البحر سرعان ما ترك بصماته الواضحة على العالم العربى بصفة عامة وعلى مصر بصفة خاصة وهو تركى عثمانى، ولا يمت للألبانيين بصلة قرابة أو نسب وكانت شخصية محمد على تشع ذكاء وتتسم بالعبقرية وإلا لما عرف كيف يستغل أحداث اتاريخ ليعتلى عرش مصر ومنها يحاول أن ينشىء إمبراطورية عربية يتوارثها أبناؤه من بعده.

وقد عمل أبوه «إبراهيم أغا» على رأس كتيبة لحفظ الأمن فى مدينة قوله وانتقل إلى الرفيق الأعلى وابنه لم يزل صغيرا فقام حاكم المدينة بتربيته وتعليمه أصول الدين وركوب الخيل واستخدام السلاح وعندما شب عوده اشترك محمد على فى التجريدات التى توجهها حكومة المدينة لمتابعة وتعقب قاطعى الطرق أو لتحصيل أموال الدولة وتولى محمد على قيادة بعض هذه التجريدات فظهر نبوغه فى فن المباغتة ونجاحه فى أسلوب القيادة وعندما وصل محمد على إلى عمر يناهز الثمانى عشر ربيعاً تزوج من إحدى قريبات حاكم المدينة وأنجب منها خمسة أبناء وبنات ويقال إنه بعد عقد هذا الرباط المقدس عمل بتجارة الدخان.

وفى يوليو ١٧٩٨ اصطدم أمراء المماليك فى مصر بالفرنسيين الذين تمكنوا من احتلال مصر مدة تزيد قليلا عن ثلاثة أعوام وقد تخللت هذه المدة محاولاتهم فتح الشام ولكن حاصرهم الإنجليز وأباد منهم الطاعون الأعداد

الكبيرة. وظل مراد ومماليكه ومن انضم إليهم من عرب مصر شهوراً عديدة ينازعون الفرنسيين ملك الصعيد، ولم تطب للفرنسيين الإقامة بمصر فقد وجدوها دون ما توقعوا وشق عليهم بعدهم عن وطنهم فرنسا وخاصة عندما بلغهم من تألب الدول الأوربية ضد فرنسا وإرغامها على التخلى عن فتوحاتها فى إيطاليا منتهزين فرصة وجود نابليون بونابرت فى مصر ومعه جيش كبير فلم يتسع الوقت للفرنسيين لتحقيق آمالهم ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم مصر وهم نابليون، وكليبر، ومينو أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جهودهم للتغلب على الأخطار الداخلية والخارجية المحيقة بجيشهم وحكمهم ولم يكن الإصلاح الذى فكر فيه الفرنسيون وما استحدثوه من الدواوين والبحث العلمى الذى شرعوا فى إقامة قواعده مما يجذب إليه المصريون لأن الحكم الفرنسى لمصر أتسم بالشدة والعنف فكرهه المصريون فثار أهل القاهرة ضدهم مرتين الأولى فى عهد حكم نابليون والثانية فى عهد كليبر كما قام الفلاحون فى الريف بثورات طالما أتيحت لهم الفرصة.

وسعد أهل مصر بخروج الحملة الفرنسية ١٨٠١ من مصر وقد لعب الإنجليز يساعدهم العثمانيون الدور الأول فى إخراجهم نهائيا من مصر، أما القوات العسكرية البريطانية فكانت لا تزال مستمرة فى الجيزة وعلى الشواطئ الشمالية لمصر وتدخلت للإفراج عن أمراء المماليك الذين اعتقلهم العثمانيون وقت خروج الحملة الفرنسية لعاملين لعل أولهما أن انجلترا لم يعجبها أسلوب الغدر والمكيدة الذى استخدمه العثمانيون فى القبض على أمراء المماليك.

وثانيهما اعتقاد بريطانيا أن القوات العثمانية الآتية من الولايات الأوربية أو الآسيوية ليست على مستوى المقاتلين إنما هم شراذم من الانتهازيين النهابين كما توهم الإنجليز الذين استهواهم مظهر الأمراء وهم يرتدون زى الفروسية. أن نظام الأمراء عنصر أصيل فى الحكومة المصرية ولم يدرك الإنجليز أنه إذا منعت التجارة فى الرقيق الأبيض سهل القضاء نهائيا على المماليك.

قدم محمد على رأس جيش معظمه من الألبانيين رغم أن محمد على لم يكن ألبانيا ولم يدبر حوادث ارتقائه ولكنهم رأوا فيه رجل الموقف.

وكان أول ولاة مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها محمد خسرو باشا ولكنه لم يقو على إعادة تنظيم شئون الإدارة المالية كما لم يقو على إخضاع أمراء المماليك الذين وضعوا يدهم على الصعيد بعد أن أطلق الإنجليز سراحهم وبدأ نفوهم أيضا يمتد إلى الوجه البحرى مما ترتب عليه نقصان موارد خسرو المالية فاختل دفع مرتبات الجند فأنزلوا خسرو عن كرسى الحكم وهرب إلى دمياط مترقبا فرصة للرجوع إلى الحكم.

وتولى طاهر باشا كبير الألبانيين حكم مصر انتظارا لقرار الدولة العثمانية ومكث بالحكم ستا وعشرين يوما فقط حيث قتله رجلان من جنود الإنكشارية انتقاما مما جرى لخسرو واحتجاجا على محاباة طاهر للألبانيين ودفعه مرتباتهم المتأخرة.

واعتقد طاهر أنه لكى يحتفظ بكرسى الحكم الذى انتزعه من خسرو لابد أن يقف المماليك إلى جانبه فكاتب أمراءهم فى الصعيد وقبل أمراء المماليك التحالف معه وتوجه عثمان البرديسى إلى دمياط حيث حاصرها وعاد بخسرو أسيرا إلى القلعة.

وعينت الدولة العثمانية على باشا الجزايرلى والياً على مصر فاستدرجه البرديسى وقتله قبل وصوله إلى القاهرة ثم عاد الألفى - زميله من زعماء المماليك ومنافسه على الرياسة - وكان قد سافر إليها عند خروج القوات البريطانية من مصر سنة ١٨٠٣ وبدلا من الاتفاق معه قرر البرديسى الغدر به، ولكن نجا محمد الألفى من الكمين هذا وقد فرض الضرائب الباهظة على أهالى القاهرة فتحرك الألبانيون ضده وأقاموا أخيرا حاكم الاسكندرية خورشيد - واليا على مصر من قبل الباب العالى

ولعل أهم المشاكل التى واجهته هو سيطرة أمراء المماليك على الصعيد ونقص الموارد فضلا عن تخوفه من محمد على وقواته من الجند الألبان فحاول نقل محمد على وفرقته فلما لم يوفق طلب من السلطان أن يمده بجنود أقوياء فأعانه السلطان بالدلاة - أو الدالاتية وهم من أكراد أعالى سورية.

إلا أن الكوارث المتتالية أخرجت أهالى القاهرة عن حد الاحتمال فتوجهوا إلى عمر مكرم نقيب الأشراف وطالبوا خورشيد باعتزال منصبه ولما رفض حاصروه فى القلعة وفى يوم ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ توجهت جموع الشعب إلى محمد على وطلبوا منه أن يكون واليا عليهم بشروطهم لما يتوسموه فيه من العدالة فتظاهر أول الأمر بالتردد ثم عاد فقبل وقام عمر مكرم والشيخ الشرقاوى بإلباسه خلعة الولاية وفى ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ وصل مرسوم الدولة بخلع أحمد خورشيد - على أن يتوجه إلى الاسكندرية معززاً مكرماً حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى إحدى الولايات - وبتثبيت محمد على فى حكم مصر.[١]

ولم يكن لأى دولة أوربية فضلا فى تولى محمد على ولاية مصر حتى فرنسا التى ادعت أن قنصلها رشحه لدى السلطان بل إن فرنسا كان نفوذها قد ضعف لدى الباب العالى حتى أنه رفض سنة ١٨٠٤ الاعتراف بنابليون إمبراطورا على فرنسا - تحت ضغط الروسيا- ولكن بعد انتصار نابليون فى أسترلتز أواخر سنة ١٨٠٥ وتمزيقه التآلف الأوربى وإخراج النمسا من الحرب تغير موقف الدولة العثمانية فاتخذ نابليون سنة ١٨٠٦ من الدولة العثمانية صديقا ليدفع عنها الضغط الروسى ويربطها بعجلة فرنسا

ولكن الدولة قبلت صداقة فرنسا بشىء من الحذر فلما أرسلت انجلترا

---

(١) من الغريب أن أحداً من المصريين لم يطالب لنفسه بحكم مصر كوالى من ولاة الدولة العثمانية وإنما لجئوا إلى تعيين محمد على الأجنبى عن مصر ورغم أن الظروف كانت مهيأة للشيخ عمر مكرم باعتباره كبير علماء الأزهر ونقيب الاشراف والزعيم الشعبى الكبير

حملة فريزر سنة ١٨٠٧ وسرعان ما استولت على الاسكندرية حيث سلمها لهم حاكمها التركى أمين أغا وهو حاكم مستقل واقتنع القائد البريطانى بأن تموين اسكندرية بالماء والغذاء يستلزم احتلال رشيد وإنشاء مواصلات بين الثغرين وفشل القائد مرتين.

وكانت الحملة البريطانية صغيرة تعدادها ٦ آلاف مقاتل معتمدة على محمد الألفى وجنوده، ولم تكن انجلترا تعلم بموته فى ٢٨ يناير سنة ١٨٠٧ بالكوليرا عن عمر يناهز الخمس وخمسين عاماً ووصلت الحملة الإنجليزية بعد وفاته بأربعين يوما أى فى مارس سنة ١٨٠٧ وبموته تخلص محمد على من ألد أعدائه وأشدهم مراسا فى نفس الوقت الذى أرسل فيه محمد على حمله لمحاربة المماليك فى الوجه القبلى مكونة من ستة آلاف مقاتل نصفهم من الفرسان والنصف الآخر من المشاة وست سفن مسلحة وفى هذا الوقت مرض محمد على بالكوليرا ولكن نجح طبيبه الخاص فى علاجه وساعده قوة بنية محمد على.

وفى عام سنة ١٨٠٧ عقدت فرنسا مع الروسيا صلح تلست بهدف تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بينهما وكان نابليون يهدف من وراء هدا الصلح إلى حرمان انجلترا من حليفتها روسيا وإقامة روسيا رقيبا على النمسا ليتفرغ نابليون لإتمام اخضاع غرب ووسط أوربا مقابل أن تأخذ روسيا إمارتى البغدان والأفلاخ الدانوبيتين العثمانيتين وبهدف هام وهو العمل على خروج إنجلترا من مصر دون أن تحرز حملة فريزر آية انتصارات.

إن وسائل محمد على فى السنوات الأولى من حكمه لم تكن تتيح له أكثر من فرص التطلع من نافذته المصرية للأفق البعيد فلم يكن يملك أكثر من مجرد الاستطلاع إلى أن يستطيع تدريجيا أن يجمع جميع خيوط اللعبة فى يده وأن يقيم بناء حكوميا على أساس متين لأن فكرة تجزئة السلطان كانت موجودة قبل لحملة الفرنسية وخلقت العصابات الخاصة المسلحة وأهمل الإصلاح نهائيا

والطريف حقا أنه عندما اعتلى محمد على عرش مصر لم يكن له مرتبا ثابتا ولم يكن لأية وظيفة فى الدولة مرتبات ثابتة فكان محمد على يأخذ مرتبه من العوائد الجمركية على البن والبهار كما كان يفرض مبالغ على الأمراء والكشافين والصناجق وقت تعيينهم وعلى الملتزم الجديد بالوراثة بعد موت الملتزم. وهذه كلها لم تكن تدر دخلا منتظما بل لقد كان محمد على يرسل جانبا مما يجمعه إلى السلطان يزيد أو ينقص سنويا طبقا للظروف والأحوال فأحيانا يلتهم الوباء أعداداً كبيرة من الناس.

أما عن الموظفين فكانت دخولهم - غير المحددة - تأتى من الضرائب على مختلف مناشط الحياة فى مصر فلم يكن هناك بد من أن يجمع محمد على جميع السلطات فى يده وإن اتسم هذا الأسلوب بالدكتاتورية والعدوان على حقوق الشعب المكتسبة ولكن كانت نظرة محمد على تختلف فهو يعتقد أنها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع من خلالها الخروج من حالة الفوضى والضعف إلى أسلوب النظام والقوة.

ويمكن إيجاز وجهة نظره فى أن الأسلوب الذى كان سائدا قبل عهده كان من نتيجته فقر الحاكم والمحكوم معا وضعف الحكومة وهو يريد أن يخلق حكومة قوية ولا بأس من أن تتصف بالدكتاتورية فى سبيل تكوين جيش وأسطول قويين يحققان أهدافه فى تكوين إمبراطورية يتوارثها أبناؤه من بعده أو القيام بتطهير الترع وإقامة القنوات والجسور وشق ترع جديدة وإدخال حاصلات جديدة.

ولما كان زعماء الشعب هم الذين اختاروا محمد على واليا عليهم فقد أصدر محمد على قرارا فى أول عهده بحكم مصر ينص على مصادرة كل أراضى الدولة ما عدا حصص المشايخ ومن ينتسب إليهم أو يحتمى بظلالهم فما كان من هؤلاء إلا أن قاموا بشراء بعض الأراضى من أصحابها المحتاجين بأثمان تافهة فرد محمد على بإلغاء هذا القرار

ويقول بعض المؤرخون أنه لما كانت العشائر الألبانية أضعف من أن تحارب قوات المماليك فقد لجأوا إلى الغدر والمكيدة فى مذبحة القلعة سنة ١٨١١ فلطخوا يدى محمد على وهو الرجل الذى يمقت المذابح ويكره الوحشية بكل مظاهرها وكان هذا شرطهم الأول والأخير لقبولهم السفر إلى الجزيرة العربية ومحاربة الوهابيين واضطر محمد على إلى تنفيذ ذلك، وهو عندما يتكلم عن فترة حكمه يسقط هذا الحادث - الذى راح ضحيته زعماء المماليك وتم قتل الكثير منهم فى نفس اليوم فلم تقم لهم قائمة بعد هذا التاريخ - من فترة حكمه.

إن محمد على قد بدأ وعاش عثمانيا مسلما وكانت خطته إحياء القوة العثمانية فى ثوب جديد وصمم على أن يجعل من الدولة العثمانية مجتمعا يحيى فيه العربى والتركى واليونانى والصقلى حياة العمل والكرامة وأن يجد فيه الفرد مسلما أو غير مسلم النطاق الذى لا يمنع اختلاف الدين من العمل فيه والتعاون لمصلحة الجميع.

ومن مظاهر ذلك ما حدث عندما تفوه على أغا فى إحدى الاحتفالات بدمياط قائلا «صار الفلاحون العمى عساكر فمهما كانوا فلن يكونوا مثل عساكرنا الترك» فعندما بلغ محمد على ذلك أمر محافظ دمياط بضربه مائة نبوت على إليته ثم ينفى وإن عاد يصلب. من هذا يتضح أن محمد على لم يغمط المصريين حقهم.

وفى سنة ١٨١٢ جمع محمد على الملتزمين فى القطر المصرى كله بعد أن سرت إشاعة أنه سوف يفرض عليهم ضرائب باهظة من أجل حرب الوهابيين فى الجزيرة العربية وعندما تم شملهم طلب محمد على من كل منهم أن يكتب مقدار دخله السنوى من الالتزام ويوقع عليه ثم أمر المدير المالى بإعطاء الملتزمين الأموال فورا لمدة سنة مقدما طبقا لما حرره كل منهم.

وهم قد قللوا دخولهم خوفا من الضرائب عليهم ووعدهم محمد على بأنه سيريحهم من هذا العمل ويدفع لهم دخولهم من خزانة الدولة سنويا وطبعا كانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى قبض فيها الملتزمون أموالا من محمد على وبهذا استطاع محمد على أن يضع يده على جميع أراضى الدولة بعد أن ألغى نظام الالتزام.

وقد منح محمد على بعضا من هذه الأراضى لأفراد بيته بشرط الإصلاح والاستغلال، وأصبحت سياسة محمد على إنتاج فائض عن حاجة الدولة للتصدير وبخاصة فى الأقطان وقد أعطى محمد على كل فلاح عددا من الأفدنة يتراوح بين ثلاثة إلى خمسة أفدنة ليس من أجل تملكها أو استئجارها إنما من أجل الاستغلال.

ولكى يهتم محمد على بتنمية الزراعة. اهتم بالمحافظة على منشآت الرى والصرف واستمرار تجديدها وحفر الترع وشق القنوات وإقامة القناطر بل إنه قد أحدث انقلابا فى نظام الرى بهدفين أولهما زيادة انتاجية الفدان وثانيهما ضرورة تدبير ماء لرى القطن فى غير أوقات الفيضان فأصبحت المشكلة فى نظره هى ضبط مياه النيل فرأى علاجا لذلك حفر الترع العميقة والاستمرار فى عملية تطهيرها حتى يستمر جريان الماء فيها معظم أيام السنة.

ثم بدأ فى بناء القناطر الخيرية التى استكملها حفيده إسماعيل باشا وبذلك يمكن القول أن محمد على بدأ سياسة الرى الدائم واحتكر محمد على الإنتاج الزراعى أى أنه حدد سعر البيع وسعر الشراء وليس هناك من يشترى سوى رجال محمد على. ومن أجل زيادة موارد الخزانة قام محمد على باحتكار الصناعة أيضا وأدخل صناعة الزجاج والسكر والزيوت والصابون والطرابيش والمنسوجات بأنواعها المختلفة

وإحقاقا للحق نقول أن محمد على وإن أهمل الصناعة بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ حينما نقص جيشه وأسطوله نقصا كبيرا إلا أن الصناعة لم تخمد جذوتها بل ظلت فى انتظار من يشعلها من جديد إلى أن قام بهذا العمل حفيده إسماعيل.

حروب مصر فى عهد محمد على
من الوجهة القومية

الحملة على الحجاز :

إن حروب مصر فى عهد محمد على هى التى مكنتها من تحقيق استقلالها القومى فلولا هذه الحروب لرجعت مصر إلى عهد الحكم التركى فمن خلال هذه الحروب تكونت الدولة المصرية التى حققت استقلالها وهى التى جعلت مصر تبلغ مكانتها الدولية فهذه الحروب التى خاضتها مصر أيام محمد على من الوجهة القومية كانت سبيلها إلى الاستقلال.

وهذه الحروب تبدأ بالحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ ثم الحملات التى أرسلها محمد على إلى الجزيرة العربية للقضاء على الوهابيين ولاستعادة نجد والحجاز ثم حروب محمد على فى السودان ويلى ذلك حروبه فى شبه جزيرة المورة ثم حربى الشام الأولى والثانية ثم حرب اليمن سنة ١٨٢٩.

أولا .حملة فريزر على مصر سنة ١٨٠٧ جاءت فى مارس سنة ١٨٠٧، وسيطرت على الإسكندرية لخيانة حاكمها التركى أمين أغا ثم فشلت هذه الحملة مرتين عند رشيد والحماد بفضل المقاومة الشعبية وأسلوب محمد على فى مقاومة المماليك فى الصعيد، وعقدت معاهدة مع محمد على خرجت بموجبها فى سبتمبر سنة ١٨٠٧ ودون أن تحقق أهدافها، كما لعبت فرنسا

دورها فى خروج الحملة الإنجليزية عندما عقدت فرنسا صلح تلست مع روسيا لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بينهما مما جعل انجلترا تخرج من مصر لتقف ضد تلست.

ثانيا: الحرب الوهابية ١٨١١-١٨١٨ : كانت شبه الجزيرة العربيةى أول ميدان لحروب مصر الخارجية وكانت من أشق الحروب التى خاضت مصر غمارها وأطولها مدى وأكثرها ضحايا فقد أرسلت مصر خلالها ثلاثة حملات قاست فيها الأهوال والشدائد نظرا لوعورة الطرق وشدة الحرارة والقيظ وقلة المؤونة وندرة المياه فضلا عن محاربة عدو مستبسل يدافع عن وطنه ويذود عن كرامته

وهنا يتبادر إلى الذهن تساؤل ملح فهل كانت هذه الحروب ضرورية لمحمد على أم كانت مجرد استجابة لنداء السلطان الذى كلفه بها فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٠٧ ثم ألحت عليه تركيا سنة ١٨٠٨ وسنة ١٨٠٩، وظل محمد على يبرر تردده فى تنفيذ رغبة السلطان بدعوى انشغاله بمحاربة المماليك فلما انتهى من حملته عليهم فى صعيد مصر وعاد إلى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٨١٠ وجد رسولا من الأستانة يحمل رسالة جديدة تطالب محمد على بسرعة إرسال حملة للقضاء على الوهابيين فهل كانت لمصر مصلحة فى هذه الحرب.

كان لابد لمحمد على أن يستجيب لرغبة السلطان محمود الثانى لأن سوء الظن المتبادل بين محمد على وتركيا لايزال قائما، وقد حاولت الدولة العثمانية اقتلاعه من عرش مصر. أما من وجهة نظر محمد على فإنه كان يرى أن هذه الحرب تحسن العلاقة بينه وبين السلطان وتثبته فى حكم مصر وترفع شأن مصر وذلك لأن الدولة العثمانية أرسلت عدة حملات كان نصيبها الفشل جميعا وتعطلت شعائر الحج فتزلزت هيبة تركيا.

ولذلك رأى محمد على أنه إذا نجح فمكانته سوف ترتفع فى نظر تركيا وفى نظر العالم الإسلامى ولا تفكر تركيا فى عزله أو تعامله كسائر ولاتها، وفى هذه الحالة يتدرج مركزه من والٍ تابع للدولة العثمانية إلى حاكم مستقل وفعلا كافأته تركيا بعد انتصاره بأن أسندت إلى ابنه إبراهيم ولاية الحجاز ثم ترتب على هذه الفتوح المصرية أن أصبحت نجد والحجاز وعسير وجزءا من اليمن تحت سيادة مصر التى ما لبثت أن امتدت إلى شاطئ الخليج سنة ١٨٣٩ .

كما كان محمد على يهدف أيضا من وراء هذه الحرب إلى التخلص من الجنود الأرناؤوط والدلاة الذين كانوا دائما فى تمرد مستمر حتى أصبحوا شوكة ضد الحكومة واستقرار الحكم. كما كانت هذه الحملة تعطى محمد على فرصته الذهبية فى إطلاق يد الحكومة فى فرض الضرائب دون اعتراض الشعب بدعوى أن هذه الحرب لتأمين الحج واسترداد الحرمين الشريفين.

أرسل محمد على حملته الأولى بقيادة ابنه أحمد طوسون ولم يكن عمره قدتجاوز السبعة عشرة ربيعا وأعد أبوه له حفلة بمناسبة انتقاله إلى معسكر الحملة ولما كانت مذبحة القلعة قد تمت يوم أول مارس سنة ١٨١١ فقد أرجأ محمد على الحفل إلى ٣ مارس سنة ١٨١١ وجهز الحملةِ خلال ستة شهور بلغ عددها ثمانية آلاف مقاتل منهم ستة آلاف من المشاة وألفان من الفرسان وخرجت الحملة فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨١١ يصحبها السيد محمد المحروقى كبير التجار والذى شارك فى إعدادها وطلب محمد على من طوسون ألا يفعل شيئا إلا بمشورة المحروقى.

خط سير الحملة :

أقلعت السفن بالجنود المشاة من السويس إلى ينبع ولم يكن لمصر أسطولا قبل محمد على ولذلك أنشأ محمد على ترسانة بولاق وصنعت أجزاء

المراكب وكل جزء كان يحمل رقما حتى يسهل تجميعها بعد ذلك تنقل على ظهور الجمال إلى السويس التى قدر عددها بثمان عشرة ألف جمل وأقلعت السفن يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨١١ قاصدة ينبع.

أما الفرسان وعلى رأسهم طوسون فساروا برا عن طريق برزخ السويس إلى العقبة حتى يصلوا إلى ينبع ويلتقون مع بقية الحملة وحدث ذلك يوم ٦ اكتوبر سنة ١٨١١ ومعهم عدد كبير من الإبل تحمل المهمات العسكرية والذخيرة والطعام كما صحب الحملة عدد كبير من الصناع من جميع الحرف.

والتقى جيش مصر بجيش سعود بن عبد العزيز ومن الطريف أن أهل جدة وينبع وقفوا مع الجيش المصرى وكذلك شريف مكة غالب لأن وقف الحج تسبب فى إيقاع الضرر بهم، عدا شريف مكة لأن نفوذ الوهابيين طغى على سلطته ونفوذه.

استولى جيش مصر على ينبع ثم احتل بدر بعد معركة لم تستمر أكثر من ساعتين وارتد الوهابيون إلى وادى الصفراء حيث تقدم طوسون ومعه ثمانى آلاف من المقاتلين حتى وصلوا إلى طرق ضيقة يشرف عليها الوهابيون من علً فانهزم جيش مصر بعد أن ترك مدافعه أيضا وفقد ستمائة قتيل ورجعت فلول جيش مصر إلى ينبع ولم يبق منهم سوى ثلاثة آلاف جندى.(١)

بعث طوسون يخبر أبيه بهزيمة الجيش واندحاره مدعيا أن سبب الهزيمة يرجع إلى هروب الجنود والضباط الأرناوود من المعركة فقام محمد على باستدعاء رؤساء الجيش وأقصى بعضهم عن مناصبهم ونفى البعض الآخر وفرض ضرائب جديدة وصمم محمد على على النصر فأرسل المدد لابنه

---

(١) شئ مؤسف أن يأمر الأتراك محمد على بشن حملة على أمة عربية مسلمة كانت تجدد أمر دينها على يد العلامة السلفى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ولكن السياسة للأسف لا تعرف إلا المصالح .

طوسون ومعه صناديق الأموال والهدايا لتوزيعها على رجال القبائل مما مهد له السبيل للاستيلاء على المدينة.

ولعل أهم خطأ وقع فيه الوهابيون أنهم ظلوا بعد انتصارهم بوادى الصفراء ولم يتعرضوا لطوسون وقواته فى ينبع ونظرا لتخوف طوسون من هدم الحرم النبوى فإنه لم يلق بقنابله إلا على سور المدينة حتى يخلق ثغرة يدخل منها جنوده إلى المدينة.

وهكذا استولى عليها وأرسل مفاتيحها إلى أبيه وسعد محمد على بهذا النصر ثم عاد طوسون إلى ينبع حيث أقلع منها إلى جدة التى احتلها ثم دخل مكة بفضل مساعدة غالب والأعراب، ثم احتل الطائف يوم ٢٩ يناير سنة ١٨١٣.

ولكن الأمير سعود بن عبد العزيز بعد دراسته لأسلوب الجيش المصرى تقدم بجيشين أحدهما بقيادته والثانى بقيادة فيصل ابنه الذى عسكر فى تربة وأحاطها بالخنادق فهاجمهم جيش مصر بقيادة مصطفى بك ولكن الوهابيين بقيادة سيدة تدعى غالية هزموا جيش مصر فى تربة أما جيش سعود المكون من عشرين ألف مقاتل فقد حاصر قوات طوسون مما أضعف مركزه بالإضافة إلى انتشار الأمراض فى الجيش المصرى فمات ثمانية آلاف مقاتل نتيجة شدة الحرارة وقلة الطعام والمياه حيث فقد ٢٥ ألف رأس من الماشية.

واعتصم طوسون بمكة والمدينة وجدة وينبع فى موقع الدفاع وطلب المدد من أبيه الذى حضر بنفسه فى أغسطس سنة ١٨١٢ مما رفع من معنوية الجنود واعتقل الشريف غالب لشكه فى إخلاصه وولى مكانه ابن أخيه الشريف يحيي بن سرور وطلب محمد على من طوسون أن يتخذ الطائف قاعدة للزحف على تربة ولكن حصاره فشل ليقظة سعود الذى أجبر الجيش المصرى على العودة إلى الطائف.

ولعل من أهم الأخطاء أن محمد على صمم على الاستيلاء على عسير التى تقف مع الوهابيين فأرسل قوة من ١٢٠٠ جندى استولت على قنفدة وبعد نجاحه فى الاستيلاء عليها عاد فتركها لأنه نسى الاستيلاء على عين المياه التى احتلها العربان وقطعوا المياه عن جيش مصر.

والغريب أن إرادة محمد على حديدية ولا تلين أمام المصاعب، فأرسل يطلب المدد من محمد لاظوغلى الذى أرسل له سبعة آلاف مقاتل وشاءت الأقدار التى خدمت محمد على أن يموت سعود ويخلفه ابنه عبد الله فى ابريل سنة ١٩١٤ ولم يكن فى دهاء وشجاعة أبيه.

ثم أرسل محمد على عابدين بك أحد قواده لاحتلال وادى زهران الذى يفصل اليمن عن الحجاز فلم يلق مقاومة ولكن سرعان ما هاجمهم الوهابيون وانتصروا على جيش مصر الذى انسحب إلى الطائف وكان بها طوسون وحاصر الوهابيون الطائف وخشى محمد على ابنه طوسون فلجأ إلى حيلة فقابل أحد فرسان الوهابيين المعتقلين وعرض عليه محمد على أن يحمل رسالة لابنه طوسون مقابل إطلاق سراحه تحمل الكلمات الآتية «إننى قادم إليك فاحضر والحق بنا فوق الجبل».

وفعلا حمل الرسالة لطوسون واطلع الوهابيون عليها فتوهموا أن جيشاً ضخماً سوف يأتى لنجدة طوسون ومعنى ذلك وقوع الوهابيين بين نارين فرفع الوهابيون الحصار عن الطائف.

ومما يشير إلى ذكاء محمد على أنه عندما رجع معه طوسون إلى مكة فى يونيو سنة ١٨١٤ ومنها يصل إلى جدة وفوجىء محمد على بثورة عارمة يرجع سببها إلى أن حاكم المدينة قتل شيخ قبيلة حرب للأخذ بالثأر فقطع الاتصال بين جدة ومكة وينبع والمدينة فلجأ محمد على إلى أسلوبه الذى يتميز بالدهاء فاجتمع مع رؤساء القبائل وتعهد لهم بعقاب حاكم المدينة وأعطاهم بعض

المال فتركوا وادى الصفراء الذى يحتلونه وبالمصادفة مات حاكم المدينة فأذاع طوسون أن أباه هو الذى قتله فاتجهت القبائل إلى السلم.

ثم دارت معركة كبيرة بين جيش مصر وجيش فيصل بن سعود فى يناير سنة ١٨١٥ وانتصر الجيش المصرى فى موقعة بسل وهى من أكبر المعارك التى انتصر فيها المصريون وأعقبها احتلال الجيش المصرى تربة ثم ميناء قنفده فأرسل الأمير عبد الله بن سعود لطوسون يطلب الصلح فأمهله طوسون عشرين يوما لاستشارة محمد على الذى كان قد عاد للقاهرة لعاملين الأول لمؤامرة قام بها لطيف باشا أحد المماليك الذين قربهم إليه محمد على والثانى هروب نابليون من منفاه واحتمال قيامه بغزو مصر مرة أخرى.

وكانت عودة محمد على عن طريق القصير إلى قنا، إلى القاهرة، التى وصلها يوم ٢٣ يونيو ١٨١٥ بعد أن طلب من طوسون مهاجمة الدرعية عاصمة الوهابين ولم يكن قد عرف بفكرة الهدنة فلما عرض طوسون الأمر على قواده وافقوا على الصلح مقابل استيلائهم على الدرعية وأن يسلم عبد الله نفسه كرهينة حتى إذا أمره بالسفر لأى جهة نفذ ما طلب منه فوراً.

أرسل عبد الله بن سعود وفدا إلى القاهرة ليعرض الصلح على محمد على فى سبتمبر سنة ١٨١٥ ولكن تشدد محمد على فلم يوافق حتى على شروط ابنه فقرر محمد على رد نفائس الحرم النبوى وأن يسلم الدرعية إلى حاكم المدينة وأن يتوجه إلى الآستانة ليكون رهن إشارة السلطان محمود فرفض عبد الله شرط السفر للآستانة وطلب أن يعينه محمد على نائبا له فى الدرعية يتولى جمع الخراج.

حملة إبراهيم باشا

وبدأت الحرب من جديد فأرسل محمد على ابنه إبراهيم على رأس حملة وكان إبراهيم ٢٧عاما أكبر أبنائه وقام إبراهيم من بولاق يوم ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ وأقلعت سفن أسطوله إلى ينبع حيث وصلتها يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٦ وكان فى صحبة إبراهيم ضابط فرنسى هو المسيو فسييره كما أخذ معه طبيب وجراحان وصيدلى من الايطالين.

عاد طوسون إلى القاهرة ومات فى ٢٩سبتمبر سنة ١٨١٦ نتيجة لمرض جنسى ولم يتم اثنين وعشرين عاما.

قام إبراهيم بحصار الرس ولكن نجح الوهابيون فى قتل ٢٤٠٠ جندى بينما لم يقتل منهم سوى ١٦٠ فقط فانسحب إبراهيم لاسيما وأن الأعاصير اقتلعت خيام الجند المصريين ثم تقدم إبراهيم وحاصر عنيزة فأسرع عبدالله بن سعود لتحصين الدرعية فهاجم إبراهيم باشا الدرعية وحاصرها شهرين فلما هبت عاصفة عاتية أطارت ناراً كان أحد الجنود قد أوقدها فاحترقت الخيمة وانفجر مستودع الذخيرة مما ترتب عليه ضياع نصف ذخيرة الجيش المصرى.

وانتهز الوهابيون هذه الفرصة الذهبية لمهاجمة الجيش المصرى فأمر إبراهيم باستخدام السلاح الأبيض فى المعركة وهاجم إبراهيم الدرعية واحتل ثلاثة أحياء من أحيائها الخمس فأرسل عبد الله بن سعود يوم ٩سبتمبر سنة ١٨١٨ يطلب وقف القتال وتم الصلح الذى بموجبه تم تسليم الدرعية وإرسال عبد الله بن سعود إلى مصر ومنها أرسله محمد على إلى الآستانة وفى فبراير سنة ١٨٢٠ احتل محمد على سيوه وأصبحت جزءاً من مصر قبل أن يرسل محمد على حملة إلى السودان.

الفصل الثانى

فتح السودان

يقول بعض المؤرخين فى دوافع محمد على لفتح السودان أن فى مقدمة هذه الدوافع أنه وصل إلى علمه أن انجلترا - التى خرجت من مصر تحت ضغط وتهديد نابليون سنة ١٨٠٣ وأخذت معها محمد بك الألفى وعادت سنة ١٨٠٧ تحاول السيطرة على مصر ولكنها فشلت فى رشيد والحماد وعادت أدراجها فى نفس السنة وأنها كانت تقف ضد محمد على عندما انتصر على الوهابين فى الجزيرة العربية سنة ١٨١٨ واضطرت لعقد معاهدات مع شيخى البحرين سنة ١٨٢٠ لتمنع نفوذ محمد على من الامتداد إلى منطقة الخليج العربى - حاولت أن تستولى على مصر من جهة الجنوب أى تستولى على السودان لتصل إلى مصر.

ولاشك أن ضمان سلامة مصر وتأليف وحدتها السياسية التى تربط الشمال بالجنوب للاطمئنان على منابع النيل كانت من أهم بواعث محمد على لفتح السودان.

هذا فضلا عما ذكره أحد المؤرخين من أن محمد على كانت تجتذبه رغبة جارفة لاكتشاف مناجم الذهب والماس التى أشيع وجودها فى السودان ولاسيما فى إقليم سنار.

وثمة هدف آخر أن محمد على كان يعجب بجند السودان لشدة صبرهم وحبهم لرؤسائهم. هذا فضلا عن رغبة محمد على فى القضاء على بقية المماليك الذين هربوا بعد مذبحة القلعة إلى اقليم دنقلة وكانوا مصدرا من مصادر القلق لمحمد على.

هذا إذا لم نستبعد رغبة محمد على الجامحة فى التخلص من أكبر عدد ممكن عن الجنود الأرناؤط الذين يرفضون الطاعة ويخلقون المشاكل باستمرار.

وجدير بالذكر أن محمد على كان يهدف إلى توسيع رقعة التجارة وزيادة دخل مصر لتعويض خسائر مصر فى حروبها مع الوهابين.

هذه هى آراء المؤرخين بصفة عامة ولا بأس إذا أضفنا رغبة محمد على الإنسانية فى القضاء على سوق النخاسة، تجارة العبيد، واحتكار تجارة العاج

ولعل بعض دعاة الإنفصال بين شطرى الوادى يجدون فى حروب محمد على فى السودان ثم استكمال هذه الحروب فى عهد إسماعيل فرصة لبث الفرقة بين أبناء الوادى ولكن حقيقة الأمر عكس ذلك تماما فمصر هى العمق الإستراتيجى للسودان والسودان هو العمق الإستراتيجى لمصر وكلاهما يكون وحدة طبيعة وإذا أردنا أن نؤكد هذه الظاهرة فليس أمامنا إلا أن نضرب المثل بانجلترا التى حاربت اسكتلنده (وهى الجزء الشمالى للجزيرة البريطانية حروبا استمرت فترات طويلة حتى نجحت فى ضمها وصار الاسكتلنديون إلى اليوم بريطانيين مخلصين. ولعل مثلا آخر يوضح الوحدة بجلاء أنه عندما حاولت الولايات الجنوبية الانفصال عن الولايات الشمالية حاربتها الأخيرة حربا استمرت أربع سنوات من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥ وأخيرا تمت الوحدة بينهما وخلقت الولايات المتحدة الأمريكية.

قامت الحملة المصرية التى أرسلها محمد على لفتح السودان بقيادة إسماعيل بن محمد على وقوامها أربعة آلاف مقاتل ثم مدد من ١٤٠٠ مقاتل فيكون إجمالى الحملة ٥٤٠٠ مقاتل منهم ١٢٠٠ من فرسان العثمانين و٤٠٠ من فرسان العرب والمغاربة أما المدافع فبلغ عددها ٢٤ مدفعا كما أرسل محمد على جيشا ثانيا بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لفتح كردفان قوامه أربعة آلاف جندى و١٠ مدافع وصحب هذه الحملة المسيو فردريك كايو بهدف اكتشاف مناجم الذهب.

خط سير الحملة :

تجمعت قوات محمد على فى مصر القديمة حيث أعد لهم ثلاثة آلاف مركب للسير فى النيل ثم ثلاثة آلاف جمل فى إسنا السير برا وتحرك إسماعيل وحاشيته فى ٢٠ يوليو سنة ١٨٢٠ بعد سفر الحملة بيومين وقامت الحملة من أسوان إلى وادى حلفا بالنيل أما الفرسان فقطعوا المسافة برا فى اثنى عشر يوما ثم تقدموا إلى دنقله واستولوا عليها بدون مقاومة لاعتقاد أهل السودان أن الهدف من الحملة هو المماليك فقط ثم العودة لمصر.

فلما دخل جيش مصر بلاد الشائقية جنوب دنقلة تجمع السودانيون لقتال إسماعيل الذى لم يكن معه سوى ٨٠٠ فارس أما بقية الحملة فقد تأخرت فى النيل بسبب الجنادل واستطاع الأهالى قتل ٧٥ فارسا ثم حدث يوم ٤ نوفمبر سنة ١٨٢٠ معركة استمرت ثلاثة ساعات انتهت بهزيمة بلاد الشائقية وقتل منهم ٨٠٠ ومن جنود إسماعيل ٣٠ ثم وصل إسماعيل إلى كورتى عاصمة الشائقية وأحرقها ثم استولى على بربر فى ١٠ مارس سنة ١٨٢١ .

وقدم ملكها نصر الدين فروض الطاعة والولاء لإسماعيل الذى استبقاه ثم فتح شندى وتم نفس العمل مع ملكها نمر ثم احتل أم درمان ثم الخرطوم وكان بها قبل أن يفتحها عشرة بيوت فقط من الغاب ثم فتح مملكة سنار وقدم ملكها نادى ولاءه لإسماعيل الذى استولى على سنار فى ١٢ يونية سنة ١٨٢١ .

أما عن الجيش الثانى بقيادة محمد بك الدفتردار فقد أرسله محمد على لفتح كردفان التى تتبع سلطان دارفور ونجح الدفتردار بعد مسيرة سبعة أيام فى الصحراء بدون ماء فى احتلال الأبيض عاصمة كردفان ولكن أمراض المناطق الحارة قضت على عدد ضخم من جنوده ولم يكن معهم أطباء أو أدوية وبقى حوالى ٥٠٠ جندى فقط صالحين للحرب وجاء إبراهيم باشا بصحبة بعض الأطباء ومعه المؤونة والملابس والمرتبات للجند.

واتفق إبراهيم على أن يقوم باختراق جزيرة سنار متجها إلى بلاد الدنكا على النيل الأبيض ويمد فتوحات مصر إلى أعالى النيل بينما يفتح إسماعيل الأقاليم الواقعة على النيل الأزرق حتى فازوغلى وحقق إسماعيل الخطة بينما أصيب إبراهيم بالدوزنتاريا وعاد إلى مصر.

بعد أن فتح إسماعيل فازوغلى فى يناير سنة ١٨٢٢ سار إلى جبل بنى شنقول للبحث عن مناجم الذهب بصحبة المسيو كايو فلم يجد سوى بعض التبر فرجع إلى سنار وانتقل بجنده إلى وادى مدنى لاعتدال جوها.

أرسل إسماعيل أفواجا من الأسرى السودانيين إلى أسوان لتجنيدهم ولكن السودانيين هاجموا القوافل وانتزعوا الأسرى من أيدى الجنود ورجعوا بهم سعداء إلى شندى حيث كان نمر ملك شندى هو الرأس المدبر لهذه الثورة وعاد إسماعيل إلى شندى وأهان نمر ولطمه على وجهه وطلب إسماعيل من نمر ألفا من الرقيق فتظاهر نمر بالإذعان ودعا إسماعيل وكبار الضباط إلى وليمة فى قصره بشندى وجمع نمر الحطب والقش حول القصر بحجة العلف لخيول إسماعيل وأشعل نمر النار فى القصر وكان جنوده خلف القصر يرمونهم بالنبال والسهام حتى مات الجميع وحزن محمد على لفقده ابنه الثانى وهجم الدفتردار للانتقام من شندى وهرب نمر إلى الحبشة.

نظام الحكم فى السودان :

عين حاكمدار للسودان يجمع السلطتين المدنية والعسكرية وله سلطة مطلقة وهو محمد بك الدفتردار إلى أن استدعاه محمد على وظل يحكم الترك السودان باسم مصر حتى سنة ١٨٨٤ بعد نشوب الثورة المهدية.

وزار محمد على السودان من ١٥ اكتوبر سنة ١٨٢٨ إلى ١٥ مارس سنة ١٨٢٩ للبحث عن الذهب ومعه بعض المهندسين الفرنسيين.

واستفاد السودان من حكم مصر لانتشار الأمن والاستقرار فى ربوعه وانتشرت الحضارة وقسم السودان إلى سبع مديريات واتخذ محمد على الخرطوم عاصمة للسودان وسميت بالخرطوم لأن ملتقى النيلين يشبه رأس خرطوم الفيل وأقيمت فيها المبانى ودور الحكومة وثكنة للجنود وترسانة للسفن . كما أنشأ المصريون مدينة كسلا ومعظم سكانها مصريون وأدخلوا فى السودان الزراعات المصرية كالقمح والخضر وأشجار الفاكهة والليمون والرمان وحفروا الآبار.

حدود السودان فى عهد محمد على :

امتدت شرقا إلى البحر الأحمر وفتح المصريون كسلا سنة ١٨٤٠ وتقع بين عطبره والبحر الأحمر ووصل إلى حدود الحبشة ودخلت سواكن ومصوع فى حدود السودان المصرى فقد استأجرهما محمد على من السلطان مقابل ٢٥ ألف جنيه سنويا وكانا من ملحقات الحجاز التى سلمت سلما للسلطان سليم سنة ١٥١٧ بعد فتحه مصر وامتدت فتوحات محمد على جنوبا إلى غندكرو أما الخديو إسماعيل فقد ضم مديرية خط الاستواء وأوغنده ودارفور ودخلت دارفور ممتلكات مصر بمقتضى فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ بتصديق الدول.

الفصل الثالث

حروب محمد على فى اليونان

١٨٢١-١٨٢٨

كلف السلطان محمود الثانى محمد على بالقضاء على الثورة التى اشتعلت أوارها فى اليونان بهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية لاسيما وأن هذه الثورة قد استمالت الرأى العام فى أوربا من خلال شبابها حتى أن الكثير من ملوك وأمراء أوربا ساعدوا الثورة وفى مقدمة من ساندها اسكندر الأول قيصر روسيا وكانت جمعية «هيتريا» التى تكونت سنة ١٨١٥ من أكبر الجمعيات التى لعبت دوراً كبيراً فى إقناع دول أوربا بالوقوف إلى جانب اليونان فى سبيل تحريرها من نير الاستعمار التركى.

وظلت هذه الجمعية تعمل سراً حتى سنة ١٨٢١ ونجحت فى جذب أكبر عدد من اليونانيين حملوا السلاح استعدادا للموت فى سبيل إحياء دولتهم. وكان برنامج هذه الجمعية يهدف إلى استقلال إمارات البلقان جميعا وطرد الترك من أوربا وإحياء الدولة البيزنطية القديمة فنشبت الثورة أولا فى مدينة ياسى وهى تابعة لولايتى الأفلاق والبغدان «رومانيا» فى مارس سنة ١٨٢١ واختارت الجمعية هذه البقعة كأول مكان تشتعل فيه الثورة لشدة قربهم من روسيا حتى تمدهم بالجيش والأسلحة.

ولكن كان اختيار الوقت لقيام الثورة غير مناسب فكان من التناقض أن تحارب الروسيا الحركات القومية فى ايطاليا بينما تساند الحركات القومية فى البلقان ولذلك ترك قيصر روسيا الثورة مما أدى إلى نجاح الترك فى هزيمة ابسلنتى قائد الثورة فى شمال البلقان.

ولكن الثورة كانت قد انتشرت فى شبه جزيرة المورة حيث اتسمت بالطابع الدينى ونادى بها القس جرمانوس يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٢١ فلبى اليونانيون الدعوة برا وبحرا ففى البحر قامت سفن اليونان بقطع الطريق على المراكب التركية ببحر الأرخبيل وأسرها أو تدميرها وقتل ركابها .

وفى البر احتل الثوار تربولتا عاصمة المورة واتخذت الثورة منذ سنة ١٨٢٣ مدينة نوبليا عاصمة للحكومة التى شكلتها وما لبثت القوات المسلحة التركية بقيادة خورشيد باشا أن انتصرت على الثورة فى بادىء الأمر ولكن عادت الثورة فانتصرت عليها ومالبث السلطان محمود الثانى أن كلف محمد على بالتوجه باسطوله لتطهير البحر من قرصنة السفن اليونانية سنة ١٨٢١.

وتحرك أسطول محمد على فى ١٠ يوليو سنة ١٨٢١ بقيادة إسماعيل بك الذى بلغ ستة عشر سفينة تحمل ٨٠٠ مقاتل متجها إلى رودس لمطاردة السفن اليونانية والتقى بالأسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد إلى الاسكندرية فى مارس سنة ١٨٢٢ ليستعد لنقل الحملة إلى كريت التى اشتعلت فيها الثورة وما لبث المصريون بعد جهد كبير أن أخمدوا الثورة فى كريت ثم قبرص أى أن هذا العمل كان قبل الحملة المصرية على المورة.

عجز السلطان محمود الثانى عن إخماد الثورة فى المورة وفى نفس الوقت كان السلطان يخشى قوة محمد على المتزايدة حيث أنه ينشىء جيشا حديثا على أحدث النظم الأوربية ويخشى السلطان أن يسعى محمد على إلى الانفصال عن الدولة العثمانية فاضطر السلطان لإصدار فرمان لمحمد على بضم المورة إلى حوزته عندما ينتصر محمد على على الثوار وفى نفس الوقت يضعف محمد على الذى يفكر فى أن يقوى على الدولة العثمانية نفسها.

وافق محمد على السلطان على طلبه خوفا من أن يعزله السلطان وأرسل

ابنه إبراهيم على رأس حملة تتكون من ١٧ ألف من المشاة وأربع بلوكات من المدفعية و٧٠٠ فارس وجهزهم بالمدافع والبنادق وأعد عمارة بحرية مصرية تتكون من ٢١ سفينة حربية و١٤٦ سفينة نقل وكانت السفن الكبرى فى هذه الحملة قد اشتراها محمد على من دول أوربا.

خط سير الحملة :

خرجت العمارة البحرية من اسكندرية فى شهر يوليو سنة ١٨٢٤ واتجهت إلى جزيرة رودس ومنها إلى مساكرى على شاطئ الأناضول للإلتقاء بالأسطول التركى الذى كانت مهمته الرئيسية مطاردة السفن اليونانية فى مياه الأرخبيل وكان الأسطول التركى بقيادة خسرو باشا ثم سار الأسطولان شمالا إلى الدردنيل ثم يرجع الأسطول المصرى الذى اشتبك مع أسطول اليونان وغرقت سفينتان مصريتان.

وأيقن إبراهيم أن الانتصار على اليونانين لن يتم بحرا لأن قطع أسطولهم منتشرة فى كل مكان إنما يجب القضاء عليهم برا فى شبه جزيرة المورة فتوجه إبراهيم إلى جزيرة كريت سنة ١٨٢٤ ووجد إبراهيم فرصته الذهبية التى استغلها أعظم استغلال فوصل إلى شواطئ المورة بسهولة نتيجة للنزاع الذى قام بين البحارة اليونانين وحكومتهم لتأخر مرتباتهم ورفضهم سنة ١٨٢٥.

وأقام إبراهيم قليلا فى مودون ليرسم خطته للزحف ثم سار إلى كورون واستطاع فك الحصار عن الحامية العثمانية بها وتوجه إبراهيم مع جيشه لمحاصرة نفارين وكانت أخطر المعارك ورغم تطوع تسعة آلاف جندى يونانى إلا أن إبراهيم نجح فى القضاء على معظمهم وغنموا غنائم عظيمة وأسروا أعدادا كبيرة من اليونانين بينهم بعض ضباطهم ورفعت هذه المعركة شأن الجيش المصرى فى أوربا بعد حروبه السابقة فى آسيا وأفريقية وكلف إبراهيم أطباءه بمعالجة أسرى اليونانين.

وحاصر إبراهيم نفارين برا ولكن نظرا لوقوعها على البحر فإن الامدادات البحرية تأتيها باستمرار ونجح سليمان باشا الفرنساوى فى مايو سنة ١٨٢٥ فى الاستيلاء على نفارين فى ١٨ مايو سنة ١٨٢٥.

وتمكنت السفن اليونانية عدا سفينتين من الافلات من الحصار المصرى وانضمت إلى سفن الأسطول اليونانى وتمكن الأميرال اليونانى ميوليس من الاقتراب من مودون ونجحت الحراقات اليونانية فى اشعال النيران فى السفن المصرية الراسية خارج الميناء ونظرا لسرعة الرياح انتقلت النيران إلى بقية السفن بل التهمت جانبا من المدينة ولكن إبراهيم لم يهتز.

وأثناء هذه المعركة توجهت ثلاثة حراقات يونانية لمهاجمة الأسطول المصرى فى اسكندرية ولكن محمد على قاوم وأمر بمتابعة هذه السفن وكلف محرم بك الذى لم يلحق بها.

وسقطت نفارين فى يد قوات مصر ونجح إبراهيم فى الاستيلاء على كلاماتا ثم تربيولترا فى يونية سنة ١٨٢٥ وبذلك أصبحت شبه جزيرة المورة فى قبضة إبراهيم عدا نوبليا عاصمة الحكومة الثورية وطلب رشيد باشا قائد الجيش التركى من إبراهيم مددا لحصار مسيولونجى فطلب إبراهيم المدد من محمد على وقام كولونيل سيف بالإستيلاء على ميسولونجى بعد قتل ألفين من جنود مصر وسلمت أثينا فى يونية سنة ١٨٢٧ لرشيد.

تدخل انجلترا وفرنسا وروسيا:

استصرخت الجمعيات اليونانية الرأى العام الأوربى لدرجة أن أشهر كتاب العصر طالبوا باستقلال اليونان وفى مقدمتهم فيكتور هوجو وشاتوريان وضربوا على الوتر الدينى الحساس وحتى روسيا فإنها تحمست لا سيما فى تولى القيصر نيقولا الأول خلفا للإسكندر فى ديسمبر سنة ١٨٢٥ وكان أقوى وأكثر جرأة من سلفه.

وخشيت انجلترا من انفراد روسيا فاتفقت انجلترا وفرنسا على منح اليونان الاستقلال الذاتى مع بقاء سيادة تركيا وعقدت معاهدة لندرة فى ٦ يوليو سنة ١٨٢٧ بين انجلترا وفرنسا وروسيا التى نصت على الاستقلال الذاتى .

وطلبت الدول وقف القتال بين الطرفين المتحاربين. وأرسلت انجلترا إلى مياه الأرخبيل ١٢ سفينة بقيادة الأميرال كودرنجيون والقائد العام للأساطيل الثلاثة ووصل قبالة نفارين يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٨٢٧ أما الأسطول الفرنسى وقوامه سبعة سفن بقيادة الأميرال رينى فوصل يوم ١٩ سبتمبر أما الأسطول الروسى بقيادة الأميرال هيدن قد وصل أول أكتوبر سنة ١٨٢٧.

ومعنى معاهدة لندرة وقف القتال برا وبحرا وهذا ما تمسك به القائد العام للأساطيل الثلاثة كما قابل رينى إبراهيم باشا وطلب منه عودة الأسطول المصرى للاسكندرية ورد عليه إبراهيم بأنه سيراسل والده لأخذ رأيه ومعنى ذلك هدنة مؤقتة بين إبراهيم والحلفاء انتهزها اليونانيون للقيام بحركات عدائية ضد الأسطول المصرى فأبلغ إبراهيم كودرنجيون لمنع هذه المناوشات فلم يرد عليه كودرنجيون.

فلما تحرك الأسطول المصرى اعتبر الحلفاء هذا العمل نقضا للهدنة وجاء إبراهيم رد محمد على بأنه عرض الأمر على السلطان مع عدم محاربة الحلفاء أو التحرش بهم حتى لو طلب منه السلطان ذلك لأن محمد على رأى بثاقب فكره أن مقاومة الأساطيل الأوربية يعرض أسطوله للدمار ولذلك عمل بهذه الوصية إبراهيم ابنه ووقف موقف الدفاع فقط وأدرك إبراهيم أن سفن الحلفاء رغم قلة عددها بالنسبة للأسطول المصرى وقوامه ١٨ سفينة مصرية و١٦ تركية و٤ سفن تونسية وست حراقات و٤٠ مركب لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠- أدرك إبراهيم أن الحلفاء أرقى نظاما وبوارجهم أقوى سلاحا ومدافعهم أكثر فتكا وأبعد مدى وأوعزت إنجلترا للحلفاء بالقضاء على عمارة محمد على حتى لا ينافسها فى البحر المتوسط.

موقعة نفارين فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧:

نصح إبراهيم محرم بك قائد أسطول مصر وطاهر باشا قائد الأسطول التركى بعدم التحرش بالأساطيل الدولية وأرسل الحلفاء إلى إبراهيم إنذارا بنقضه للهدنة يوم ١٨ اكتوبر ولكن لم يكن إبراهيم موجودا فكان قد غادر نفارين يوم ١٥ اكتوبر لنجدة الحامية العثمانية، ومما هو جدير بالذكر أن الأميرال رينى طلب من الضباط الفرنسين على السفن المصرية الانسحاب حتى لا يحاربوا إخوانهم ولبوا النداء بعد موافقة محرم بك وتركوا أسطول مصر يوم ١٨ اكتوبر وحاول الأسطول الأوربى مهاجمة السفن المصرية يوم ١٩ اكتوبر ولكن الرياح لم تساعد سفنهم الشراعية

وفى العاشرة صباح يوم ٢٠ اكتوبر تأهبت سفن الحلفاء وفى الثانية بعد الظهر اقتحمت البوغاز بقيادة كودرنجيون فأرسل محرم بك إليه يطلب عدم دخول عمارة الدول الأوربية ميناء نفارين فرد عليه كودرنجيون أنه جاء ليملى الأوامر لا ليتلقى الأوامر وأصبحت السفن الدولية على بعد أمتار فقط من السفن المصرية التركية وادعى مؤرخ أوربى أن رصاصة خرجت من العمارة المصرية أصابت جندى من الحلفاء فكانت سببا فى اشتعال القتال.

وكانت القوة المصرية التركية تتكون من ٦٢ سفينة حربية وأساطيل الحلفاء ٢٧ سفينة فقط بينما لدى الحلفاء عشرة بوارج وهى قوام الأسطول أما مصر فلم يكن لديها سوى ثلاثة بوارج.

وسرعان ما تحول الموقف إلى بركان من الجحيم وطبقات كثيفة من الدخان واستمرت المعركة ساعتان ونصف انتهت فى الخامسة مساء بالقضاء على العمارة المصرية التركية وقتل من المصريين والترك ثلاثة آلاف أما الحلفاء فمات منهم ١٤٠ وجرح ٣٠٠ ولم يشهد إبراهيم المعركة ولما علم اشتد حزنه

وأرسل ما نجا من السفن إلى اسكندرية وأخلى معظم مدن المورة وجمع قواته بميناءى كورون ومودون حتى يأتيه رد محمد على.

أما تركيا فقد طلبت تعويضا من الدول الأوربية عن أسطولها مما دفع روسيا إلى إعلان الحرب عليها واستولت على أدرنه كما أرسلت فرنسا إلى اليونان جيشا قوامه ١٨ ألف بقيادة ميزون لإجلاء المصريين والأتراك وانتهت الحرب الروسية التركية بمعاهدة أدرنه فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩ وفيها وافقت تركيا على معاهدة لندرة باستقلال اليونان وأن يكون لتركيا سيادة اسمية فقط ثم اتفقت الدول الأوبية على استقلالها التام فى ٣ فبراير سنة ١٨٢٠.

أما عن محمد على فإنه رأى الاتفاق مع قوات الحلفاء على وقف القتال وجلاء القوات المصرية عن اليونان ثم توجه كودرنجيون إلى الاسكندرية وأنذر بتخريبها إذا لم يبادر محمد على باستدعاء إبراهيم من المورة وسعى باركر قنصل إنجلترا فى مصر إلى إقناع محمد على بالاتفاق مع الحلفاء ووافق محمد على بالشروط الآتية :

أ- تعهد محمد على بإعادة الأسرى اليونانين وتحرير من بيع منهم فى مصر وكان عددهم كما يقول باركر ٥٥٠٠ قتل منهم ٤٠٠ فقط والباقى كان قد تم توزيعه على بيوت الأكابر فى القاهرة واسكدرية.

ب- يتعهد الأميرال الإنجليزى بإرجاع الأسرى المصريين وإعادة السفن المصرية المأسورة.

جـ - أن يغادر الجنود المصريين المورة على سفن مصرية

د- ألا يجبر اليونانيون على الرحيل عن مصر أو على البقاء فيها

هـ- يجوز لإبراهيم أن يترك فى المورة ما لا يزيد عن ١٢٠٠ جندى للحفاظ على مودون وكورون ونافارين وباتراس أما المواقع الأخرى فيتم إخلاؤها فوراً

نفذ إبراهيم أمر أبيه وأقلعت بهم السفن فى أكتوبر سنة ١٨٢٨ وخسرت مصر فى هذه الحملة ٣٠ ألف جندى وكانت جملتها ٤٢ ألف كما بلغت نفقات الحملة ٧٧٥ ألف جنيه وفقدت مصر أسطولها.

نتائج حرب المورة :

أ- عهد السلطان محمود الثانى إلى محمد على ولاية كريت مكافأة على خدماته فى المورة.

ب- نال جيش مصر شهرة عالمية وزادته الحرب خبرة ودراية.

جـ - أصبح السلطان ينظر لمحمد على على أنه ند له وليس مجرد والٍ تابع له ولذلك فكر محمد على فى الاستقلال.

د- كسبت مصر مركزا دوليا فالقائد العام للحلفاء تفاوض مع مصر وليس مع تركيا.

هـ- رفض محمد على مساعدة تركيا فى حربها ضد روسيا.

الفصل الرابع

حرب الشام الأولى

١٨٣١ إلى ١٨٣٣

حارب محمد على فى بلاد المورة وخسر كثيرا ورجعت قواته إلى مصر فرأى السلطان محمود الثانى أن يعطيه جريرة كريت ردا لخدماته ولكن هذه الجزيرة كانت دائما ثائرة على الحكم فطلب محمد على من السلطان أن يمنحه سورية فرفض السلطان فصمم محمد على على أن يستولى عليها بحد السيف لأنها فى نظر محمد على هى باب الغزوات لمصر فالفرس فى عهد قمبيز والإسكندر والفتح أيام عمرو بن العاص والأيوبيين والدولة العثمانية كل هذه الدول استولت على مصر من خلال استيلائها على سورية.

وجدير بالذكر أن محمد على كان قد طلبها من السلطان سنة ١٨١٠ عندما كلفه بمحاربة الوهابيين في الجزيرة العربية ولكن انشغال محمد على بمحاربة الوهابيين ثم السودان ثم المورة جعلته يؤجل موضوع ضم سورية مؤقتاً

قد سأل أحد الكتاب الفرنسيين المعاصرين لإبراهيم باشا خلال حروبه فى الشام إلى أى مدى سوف تستمر فتوحاتك فرد عليه إبراهيم إلى مدى ما يتحدث الناس العربية. ولأن إبراهيم ينوى إحياء القومية العربية بعد سيطرته على معظم الجزيرة العربية والسودان ومصر وسورية وسوف يضم العراق ويعتبر إبراهيم نفسه عربيا حتى أنه قال : «أنا لست تركيا فإنى جئت مصر صبيا وقد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلتنى عربيا».

أما دوافع محمد على من فتحه سورية التى تكره الحكم التركى فهى دوافع اقتصادية فمراكب محمد على فى حاجة إلى خشب سورية كما أن

مصانعه فى حاجة إلى فحم ونحاس سورية هذا فضلا عن تجنيد شعبها فيزداد الجيش. وقد اختار محمد على الوقت المناسب فالسلطان محمود خرج ضعيفا من حرب المورة.

ثم حرب روسيا بعدها ثم أنه كان قد ألقى جيشه الانكشارية سنة ١٨٢٦ ثم أن محمد على كان استمال بشير الشهابى كبير أمراء لبنان الذى عزله السلطان محمود الثانى فلجأ إلى محمد على الذى تشفع له فأعاده إلى مكانته فكان بشير مساعد كبيرا له فى فتح سورية.

هذا بالإضافة لأسباب مباشرة لعل فى مقدمتهاهجرة ستة آلاف من المصريين هربا من السخرة والتجنيد فهاجروا إلى ولاية صيدا التى تتخذ عكا قاعدة لها وخشى محمد على من عواقب هذه الهجرة فطلب من عبدالله الجزار إرجاعهم فرفض بحجة أنهم من رعايا الدولة العثمانية ويعتمدون فى أى مكان داخل الدولة العثمانية فغضب محمد على ورد عليه بأنه سيعود بهم إلى مصر يزيدون شخصا واحدا هو عبدالله الجزار نفسه.

ونفوذ عبد الله كبير فهو حاكم شبه مستقل وتمتد سلطته إلى فلسطين وقسم من الشام والطريف أن محمد على أفهم السلطان أنه إنما يحارب عبدالله الجزار الخارج على الدولة العثمانية وكان الجزار يساعد قوافل التجارة على تهربها من الجمارك المصرية عبر صحراء سورية للإضرار بخزانة مصر.

خط سير الحملة :

كان مقدرا للحملة مغادرة مصر أوائل سنة ١٨٣١ ولكن الكوليرا التى تسببت فى موت ٥ آلاف جندى أجلت سير الحملة المصرية - إلى اكتوبر سنة ١٨٣١ وكانت تتألف من ٣٠ ألف مقاتل بقيادة إبراهيم باشا وبأربعين مدفع ميدان وبعض مدافع حصار ونقلت العمارة البحرية جانبا من الجيش بطريق

البحر مكونة من ١٦ سفينة حربية وسبعة عشر سفينة نقل بقيادة عثمان نورالدين الذى أرسله محمد على من قبل إلى فرنسا حث تفوق فى الفنون الحربية والبحرية - وقد سار معظم الجيش بقيادة إبراهيم باشا يكن من الخانكة / بلبيس / الصالحية / بئر العبد / العريش/ خان يونس / غزة / يافا / حيفا.

وخلال هذه الفترة خرجت العمارة البحرية بقيادة إبراهيم باشا يصحبه أركان حربه كولونيل سيف «سليمان بك الفرنساوى» وعباس باشا (الأول) ووصلت عمارة إبراهيم إلى حيفا حيث التقت القوات البرية والبحرية واتجهت إلى عكا التى كان بها حامية مكونة من ثلاث آلاف مقاتل وبدأت القوات المسلحة حصارها يوم ٢٦ نوفمبر ١٨٣١ واستعصت عكا على إبراهيم ثلاثة شهور حتى عادت بعض السفن المصابة إلى الاسكندرية لاصلاحها ونجح إبراهيم خلال هذه الفترة فى الاستيلاء على القدس / صور / صيدا / بيروت / وطرابلس.

أما عن تركيا فقد اضطربت أمام زحف جيش مصر وأرسلت مندوبها إلى محمد على للكف عن القتال وماطل محمد على متظاهرا بإخلاصه للسلطان بينما طلب من ابنه إبراهيم تركيز الهجوم على عكا حتى تسلم قبل وصول جيش الترك الذيكان قوامه ٢٠ ألف مقاتل بقيادة عثمان باشا اللبيب والى طرابلس لرفع الحصار.

فلما وصل ذلك لإبراهيم ترك حامية حول عكا وتوجه لمقاتلة الجيش التركى الذى نجح مرتين فى دخول طرابلس ورده إبراهيم فى المرتين ورجع إبراهيم إلى بعلبك مما أوحى لعثمان بضعف جيش إبراهيم فتقدم لملاقاة الجيش المصرى فى بلدة الزراعة (قرية جنوب حمص).

لكن إبراهيم بمعاونة كولنيل سيف رتب جنوده فى صفوف متراصة وخلفهم المدافع حتى لا يراها العدو فانخدع القائد التركى وهاجم الصفوف

الأولى إلى أن أصبحت المسافة بين الجيشين قصيرة فانسحبت الصفوف الأولى خلف المدافع وحصدت قوات الترك ودفعوا بهم إلى نهر العاصى حيث غرق معظمهم .

وانتهز عبد الله الجزار والى عكا هذه الفرصة وهاجم جيش مصر الذى لم يكن يزيد عن عشرة آلاف مقاتل واستولى على كثير من مدافعهم وعاد إبراهيم إلى عكا وشدد الحصار عليها برا وبحرا يوم ٢٧ مايو ١٨٣٢ وسلمت فى مساء نفس اليوم بعد كفاح استمر ستة شهور وسلم عبد الله نفسه لإبراهيم الذى أرسله إلى الإسكندرية وأحسن محمد على لقاءه وأسكنه فى قصر خاص وطلب عبدالله أن يأذن محمد على له بالحج حيث ذهب للحجاز ومات.

ثم استولى إبراهيم على دمشق فى ١٦ يونيه ١٨٣٢ ثم حمص فى ٨ يوليو ثم حماه وحلب كما انتصر فى موقعة بيلان فى ٣٠ يوليو ٣٢ بعد قتال عنيف استمر ثلاث ساعات مات فيه ألفان من الجنود الأتراك.

وأسر مثلهم ثم توجه إلى الاسكندرية واستولى عليها وعلى انطاكية واللاذقية.

ورغم توالى انتصارات إبراهيم فلم يهتز السلطان محمود الثانى بل كون جيشا قوامه ٥٣ ألف جندى بقيادة محمد رشيد باشا «الذى كان يعمل مع إبراهيم فى المورة وتقدم رشيد بجيشه إلى قونية حيث انتصر إبراهيم على الترك فى موقعة قونية فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ بعد سبع ساعات من القتال الشرس خسر جيش مصر خلاله ٢٦٢ قتيل و٥٣٠ جريح.

أما الجيش التركى فقد أسر قائده وحوالى ستة آلاف من رجاله بينهم عدد ضخم من الضباط وقتل نحو ثلاثة آلاف من رجاله كما غنم جيش مصر ٤٦ مدفعا .

وترجع أهمية موقعة قونية إلى أنها صفحة فخار لجيش مصر الحديث وأنها فتحت أمامه طريق الآستانة إذ أصبح على مسيرة ستة أيام من البسفور وعلم محمود الثانى أن قوائم عرشه اهتزت.

ولهذا تحركت الدول الأوربية فالروسيا نظرت بعين الخوف إلى مصر التى وصل نفوذها إلى البسفور والدردنيل والبحر الأسود وهى تخشى تكوين دولة قوية بجوارها بدلاِ من الدولة العثمانية المتهالكة ولذلك عرضت على السلطان الدفاع عنه فقبل.

أما فرنسا فحاولت اقناع محمد على عندما أرسلت الأميرال روسان يطلب من محمد على الاكتفاء بولاية عكا وطرابلس والقدس ونابلس ولكن محمد على أصر على ضم سورية وولاية أطنه - رغم أنها جزء من الأناضول - لوفرة مناجمها وأخشابها ولأنها تنتهى بجبال طوروس وهى الحد الفاصل فى نظر محمد على بينه وبين تركيا.

وخلال ذلك احتل إبراهيم أزمير فأصبح على مسافة ٥٠ ميلا من الأستانة.

وأقام إبراهيم بكوتاهية خلال شهر أبريل سنة ١٨٣٣ وتم عقد صلح كوتاهية فى ٨ أبريل سنة ١٨٣٣ بعد تدخل فرنسا وانجلترا خوفا من انفراد الروسيا بالتدخل وقضى الصلح بتخلى السلطان لمحمد على عن سورية وإقليم أطنة مع تثبيته على مصر وكريت والحجاز مقابل أن يجلو جيش مصر عن الأناضول.

وقبل السلطان الصلح مرغما وعقد مع روسيا معاهدة سرية هنيكاراسكلسى فى ٨ يولية سنة ١٨٣٣ والتزمت كل دولة منهما بالدفاع عن الأخرى إذا استهدفت لخطر داخلى أو خارجى.

الحكم المصرى فى سورية :

أصبح إبراهيم حاكما عاما على سورية وبلغ عدد جيش مصر فى سورية ٧٠ ألف مقاتل معظمهم فى الشمال لصد أى هجوم للترك وشيد ثكنات وطرق حربية ومستشفيات وعين محمد شريف حاكما عاما على سورية وكولنيل سيف على عكا وإسماعيل بك سنة ٣٨ على حلب ومحمود نامى على بيروت.

وأبطل إبراهيم سلطة أمراء الإقطاع وعامل الأهالى بالعدل ونشط التجارة وتمنى الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ فى سورية عودة الحكم العثمانى لأن إبراهيم عامل الجميع بالعدل والمساواة دون مراعاة طبقاتهم وأطلق محمد على الحرية الدينية فى سورية.

وكان محمد على أوائل سنة ٣٤ أصدر أوامره لإبراهيم باحتكار تجارة الحريروأخذ ضريبة الرءوس على جميع الرجال وتجنيد الأهالى ونزع السلاح منهم وكان للدسائس الإنجليزية والتركية الفضل الأول فى تحريك ثورة الشعب السورى ضد الحكم المصرى فى سورية وكلف محمد على بشير الشهابى حاكم جبل لبنان بالقضاء على هذه الثورة.

الفصل الخامس

حرب الشام الثانية ١٨٣٩

اعتبرت تركيا صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣ هدنة مسلحة وأرسل السلطان لمحمد على مندوبا للتفاوض سنة ٣٧ فى عودة سورية إليه وديا ففشلت المفاوضات ولما رأى محمد على دسائس الترك تزداد فى سورية وتلهب الثورة ضده عرض على الدول رغبته فى الاستقلال عن الدولة العثمانية بدعوى أن استقلال مصر أفضل ضمان لاستتباب الأمن فى الشرق ورفضت الدول الأوربية .

وفى سنة ١٨٣٨ عقدت انجلترا معاهدة تجارية مع تركيا من شروطها إلغاء الاحتكار فى كل جزء من ممتلكات السلطنة ووافقت عليها فرنسا. وبدأت تركيا تستعد ليس لمجرد استرداد سورية بل ومصر أيضا وحاولت بعض الدول الأوربية حل الموقف وديا ولكن فشلت لأن انجلترا كانت تحرض تركيا على قتال محمد على.

فكر حافظ باشا القائد التركى فى مهاجمة سورية واتصل إبراهيم بأبيه الذى أرسل له قوات إضافية ومعها وزير الحربية المنكلى باشا واحتشدت قوات تركيا فى قرية نصيبين على نهر الفرات واجتازت فرقة تركية نهر الساجور الذى يصب فى الفرات وهو الحد الفاصل بين تركيا وسورية

وطلب محمد على ألا يكتفى إبراهيم بردهم حيث عبثوا باتفاق كوتاهية - بل سحق جيشهم الذى بلغ ٣٨ ألف مقاتل وبه فريق من الضباط الألمان وعلى رأسهم القائد الشهير دى موليتك أما جيش مصر فكان ٤٠ ألف ويتفوق فى نظامه وروحه المعنوية العالية أما الترك فكانوا أخلاطاً

كان الترك فى مواقع حصينة بينما المصريون فى سهل مكشوف ليس به استحكامات فرأى إبراهيم أن يقوم بعملية التفاف حول الجيش التركى ورأى دى موليتك الألمانى أن يهاجم المصريين أثناء حركة الالتفاف ولكن حافظ باشا رفض وأصر على البقاء فى مواقعهم الحصينة فلو فكر حافظ فى مهاجمة الجيش المصرى أثناء عبوره نهر كيرزين لتغير وجه المعركة وفى ليلة ٢٤ يونيه ١٨٣٩ هاجم حافظ المصرين ليلا .

وفى صبيحة يوم ٢٤ يونيه سنة ٣٩ بدأت المعركة طبقا لخطة إبراهيم الذى رأى أكمة عالية تجاه ميسرة الترك فأمر كولونيل سيف الذى يقود ميمنة الجيش باحتلال الميسرة وتنصيب المدافع فوقها فانكشفت من هذه النقطة مواقع الترك .

وانتصرت مصر فى موقعة نصيبين وخسر الترك أربعة آلاف قتيل وجريح وأسر ١٢ ألف واستولى المصريون على ٢٠ ألف بندقية و٧٤ مدفعا وعلى خزانة الجيش وبها ٦ مليون فرنك أما جيش مصر فخسر ٤ آلاف بين قتيل وجريح.

مات السلطان فى أول يولية سنة ١٨٣٩ قبل أن يبلغه نبأ انكسار جيشه وخلفه عبد المجيد (١٧سنة) وكان أسطورل تركيا على استعداد لمنازلة أسطول محمد على ولكن السلطان عبدالمجيد عين خسروا باشا صدراً أعظم[1] (والى مصر وعدو محمد على) .

وكان بين خسرو وفوزى باشا قائد الأسطول عداء قديم فاستدعاه خسرو للآستانة وظن فوزى أنه إما أن يقتله أو يعزله فزين له وكيله عثمان باشا أن يلجأ لمحمد على خصم خسرو القديم ويسلمه أسطول تركيا هدية فينال منه المكافأة.

---

(١) رئيس وزراء

وسعد محمد على وأخذ الأسطول التركى الذى يضم ٩ بوارج ضخمة و١١ فرقاطة و٥ كورفت وعلى ظهرها ١٦١٠٧ ملاح + ٥ آلاف جندى وأصبحت مصر صاحبة أقوى أسطول فى البحر المتوسط.

وكان لانتصار الجيش المصرى فى نصيبين أثاراً خطيرة على التوازن الأوروبى وكان العدل أن تقر الدول معاهدة كوتاهية.

كان محمد على قد فتح اليمن الشمالية حتى تعز سنة ١٨٣٩ فردت عليه إنجلترا بالاستيلاء على عدن.

موقف الدول الأوربية :

روسيا : انتهزت الفرصة لبسط حمايتها الفعلية على تركيا بدعوى الدفاع عنها.

فرنسا : تميل إلى تنفيذ اتفاق كوتاهية.

انجلترا : ترى رد سورية لتركيا ورد الأسطول التركى لأن اندماجه مع أسطول مصر يجعلها دولة قوية وانجلترا تهدف إلى إضعاف مصر ليسهل لها الأمر لامتلاكها وتولى بالمرستون وزارة خارجية بريطانيا وهو سياسى داهية مشبع بروح العداء لمصر.

النمسا : وزيرها الشهير مترنخ لا يريد لروسيا التدخل ولا لمحمد على تكوين قومية عربية لأنه يكره القوميات.

بروسيا ترغب فى السلم ولكرهها للك فرنسا تقف ضد سياسته مهما كانت.

تركيا : عندما تولى عبد المجيد السلطة طلب من خسرو أن يفاوض محمد على ويعطيه مصر وراثية.

مذكرة الدول الأوربية إلى الباب العالى فى ٢٧ يوليو سنة ٣٧:

طلب مندوبو النمسا / بروسيا/ الروسيا/ إنجلترا/ فرنسا من الباب العالى عدم إبرام أى إتفاق مع مصر دون الرجوع إليهم وكان مترنخ هو مقترح هذه المذكرة ومعناها إلغاء نتائج نصيبين.

وعرض بالمرستون على فرنسا أن يأخذ محمد على مصر وراثة وولاية عكا أى جنوب سورية ماعدا مدينة عكا ذاتها فرفضت فرنسا وأصرت على منحه سورية كلها وأصبح من السهل على إنجلترا أن تضم إليها روسيا / بروسيا/النمسا.

معاهدة لندن فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠:

١- يمنح محمد على حكم ولاية عكا وقلعتها طوال حياته بشرط أن يقبل ذلك خلال عشرة أيام على أن يقوم بإخلاء جزيرة كريت وبلاد العرب وإقليم أطنه وسائر الأقاليم العثمانية عدا ولاية عكا وأن يعيد إلى تركيا أسطولها وإذا رفض يحرم من عكا.

٢- يمنح محمد على حكم مصر وراثيا مع سحب جنوده من جميع البلاد العثمانية وإرجاع الأسطول العثمانى وإذا مضت العشرة أيام دون رد يصبح للسلطان حق حرمانه من مصر.

٣- يدفع محمد على جزية سنوية للسلطان.

٤- تعد قوات مصر البرية والبحرية جزء من قوات السلطنة وفى خدمتها.

٥- يتكفل الحلفاء فى حالة رفض محمد على هذه الشروط أن يلجأوا إلى القوة وتتعهد إنجلترا والنمسا بقطع المواصلات بين مصر وسورية.

وقد وقع هذه المعاهدة بالمرستون عن إنجلترا/ نومان سفير النمسا فى

إنجلترا عن النمسا البارون بيلوف عن بروسيا / البارون برينوف عن روسيا وشكيب أفندى وزير تركيا المفوض فى لندن / عن الباب العالى.

نتيجة المعاهدة :

توتر العلاقة بين إنجلترا وفرنسا التى حرضت محمد على على رفضها ثم ترك مصر بمفردها أمام سياسة فرنسا الخرقاء باستقالة وزارتها . كما سعت إنجلترا لإثارة اللبنانيين ضد الحكم المصرى لأن إنجلترا كانت تخشى إرجا ع الدولة العربية الإسلامية وتخشى نابليون مصر «إبراهيم» أن تزاحمها مصر فى الاستعمار وأخذ الثوار فى الشام يقتلون الحكام المصريين وامتنعوا عن دفع الضرائب ولكن قمع إبراهيم عصيانهم وقبض على زعماء الثورة (٥٧ رجلا) وأبعدهم إلى الاسكندرية ثم سنار بالسودان.

أصدرت إنجلترا أوامرها إلى نابييه بالإقلاع إلى مياه مصر والشام وإرجا ع الأسطول التركى وتدمير الأسطول المصرى وأسرعت فرنسا وأبلغت إبراهيم بالخبر فعادت السفن المصرية إلى اسكندرية واحتاط محمد على للمقاومة. وفى أوائل أغسطس ١٨٤٠ أصدرت إنجلترا أوامرها لأسطولها بمغادرة سواحل الشام ومصر وأسر السفن المصرية.

رفض محمد على شروط معاهدة لندن ١٨٤٠ :

صمم محمد على على ما أقرته معاهدة كوتاهية وعهد إلى إبراهيم بالاستعداد للقتال فتفقد إبراهيم موانى الشام وبخاصة عكا ووزع الأسلحة على طلبة المدارس الحربية وعمال المصانع وكانت فرنسا هى التى تحرضه رغم أن محمد على يعلم أنه لايستطيع مواجهة خمس دول.

أرسلت تركيا مندوبها رفعت بك إلى سراى رأس التين بالاسكندرية حيث أبلغ مندوبها محمد على بقرارات مؤتمر لندن فثار محمد على وصمم على عدم

تنازله عن شبر واحد فاتصل رفعت يوم ١٧ اغسطس بقناصل الدول الخمس الذين كتبوا مذكرة لمحمد على وأمهلوه عشرة أيام للقبول.

وبعد انقضاء المدة ذهب رفعت يصحبه قناصل الدول لمقابلة محمد على فكان أشد رفضا وقال لهم وأنه سيستولى على الآستانة إذا تجددت الحرب

ولما علم محمد على بعزم رفعت بك على السفر نظر للقناصل وقال لهم «أتعشم أن ترحلوا معه» فردوا عليه بأن ليس لديهم تعليمات من دولهم فقال لهم «لم يعد لى ثقة فيكم» فأبلغوه قبل رحيلهم بأن ولاية عكا أصبح ليس له حق فيها وبقيت له مصر وراثية

وعرض محمد على خلال هذه الفترة على رفعت بك إنهاء الخلاف وديا مع تركيا بشرط عدم تدخل الدول مقابل أن يتنازل عن أطنه وكريت وشبه جزيرة العرب وأن يكتفى بمصر وراثية وسورية مدى حياته وربما كان هدف محمد على إلغاء فكرة مهلة الأيام العشرة.

ولكن بعد أيام جاء رفعت بك ومعه قناصل الدول ورفض محمد على مقابلتهم وسمح لوزير خارجيته بوغوص وسامى بك سكرتيره بمقابلتهم وسأل القناصل بوغوص بك وإذا لم يقبل السلطان أن يعطى محمد على سورية فكيف يكون الموقف فرد بوغوص بك ليس لدى تعليمات بذلك فاعتبر القناصل ذلك رفضا لمعاهدة لندن

وغادر رفعت اسكندرية إلى الآستانة ومعه خطاب محمد على فتشاور لصدر الأعظم حسرو باشا مع القناصل واستقر رأيهم على خلع محمد على من ولاية مصر وأصدر السلطان فرمانا بذلك يوم ٢٢ سبتمبر سن ١٨٤٠ وفى اليوم التالى غادر القناصل مصر واعتبرت مصر فى حالة حرب مع تركيا وحلفاءها.

صممت انجلترا على تنفيذ المعاهدة بالقوة وفى سبتمبر وصلت العمارة الإنجليزية إلى بيروت بقيادة الأميرال استبفورد للاشتراك مع نابيبه فى ضرب بيروت بالمدافع واشترك معهما بعض سفن النمسا وتركيا . وفى ١٠ سبتمبر ١٨٤٠ جاءت الحملة البرية مكونة من ١٥٠٠ جندى إنجليزى و٥٥٠٠ عثمانى ونزلت شمال بيروت بعشرين كيلومتر وأرسل الأميرال الإنجليزى إنذارا إلى سليمان باشا بإخلاء بيروت فورا .

فطلب سليمان ٢٤ ساعة ليشاور محمد على فرفض القائد الإنجليزى وهدم أكثر مبانى بيروت ولم ينزل الحلفاء جندهم تخوفا من جيش مصر.

وكان إبراهيم على أتم استعداد للدفاع عن سورية ومعه ٩٠ ألف جندى بينما الدول الأوربية لم يكن لديها سوى ١٠ آلاف مقاتل ولذلك لم يحتلوا بيروت ولكن لعب الإنجليز دورا شريرا فقد أقنعوا السوريين واللبنانيين أن قوات الحلفاء جاءت لطرد جيش مصر الاستعمارى وأعطاهم الأنجليز ٣٠ ألف بندقية فتحرج مركز جيش مصر وأصبح هدفا لنار الحلفاء ونار الثورة فاستولى الحلفاء على جبيل شمال بيروت ثم حيفا / صور / صيدا/ بيروت فى اكتوبر سنة ١٨٤٠ .

كما جلا المصريون عن طرابلس واللاذقية وأطنه من غير قتال وسقطت عكا فى نوفمبر ٤٠ بعد أن فجرت قنابل الإنجليز مستودع الذخائر بها وهدم الانفجار ثلث مبانى المدينة.

والجدير بالذكر أن بشير الشهابى عندما أحس بأفول نجمه عرض على الحلفاء الوقوف إلى جانبهم ضد محمد على ولشكهم فى سلوكه نفوه لمالطة سنة ١٨٥٠.

وليس هناك من شك أن فرنسا انسحبت من الميدان . فبعد أن كان تيرس رئيس وزرائها يشجع محمد على على رفض معاهدة لندن أرسل لمحمد على

مسيو والسكى ليفتح باب المفاوضة مع السلطان وأن يحكم سورية مدى حياته ومصر وراثية فرفض السلطان وأمر تيرس بسحب الجيش الفرنسى والأسطول وعودتهم إلى فرنسا ثم قدم استقالة حكومته فى اكتوبر سنة ١٨٤٠ .

وبعد احتلال الحلفاء لثغور سورية توجه نابير إلى مياه الاسكندرية وقام بمظاهرة بحرية دون أن يهاجم مصر لقلة قواته فضلا عن قوة محمد على. وكان قنصل انجلترا قد هدد محمد على بأن قوات إنجلترا وحدها يمكنها أن تستولى على مصر ورد عليه محمد على أنه سيدافع عنها طالما فيه نفس يتردد.

وأدرك نابير أنه لن يستطيع إخضاع محمد على فلجأ إلى تجربة أسلوب المفاوضات فعرض على محمد على مصر وراثية على أن يرد أسطول تركيا وأن يسحب جنوده من سورية وفى نفس الوقت يهدده بالاستيلاء على اسكندرية ورفض محمد على رغم تهديد نابير ولهجته الجافة بحرق اسكندرية بعد مهلة ٢٤ ساعة.

ولكن لما وجد محمد على أن فرنسا انسبحت من الميدان عرض على نابير اتفاقا وقعه بوغوص بك وزير خارجية مصر ونابير ينص على جلاء جيش مصر عن سورية ويرد محمد على أسطول تركيا مقابل أن يحكم مصر وراثية بضمان الدول ولكن استبفورد القائد العام رفض بحجة أن نابير لا يملك حق عقده كما رفضه السلطان وصمم على عزل محمد على ولكن اللورد بالمرسقون رأى فيه حلا لأزمة خطيرة وحمل الدول الأوربية على قبوله وأرسلت الدول مذكرة للباب العالى فى ٣٠ يناير سنة ١٨٤١ تطلب إلغاء قرار العزل ومنح محمد على حكم مصر وراثيا فاستجاب السلطان.

وأرسل محمد على لإبراهيم بالجلاء عن سورية وعودة ٧٠ ألف جندى ولكن مات خلال عودتهم عدد كبير لمناوشات العربان والحر والجوع والعطش ولما وصل غزة طلب من أبيه إمداده بالمؤن والملابس والسفن لتنقل الجيش بحرا إلى

اسكندرية وأخلى غزة يوم ١٩ فبراير سنة ١٨٤١ وعاد إلى اسكندرية ٤٠ ألف فقط.

ومعنى هذا أن تركيا أصبحت لا تستطيع العبث باستقلال مصر لأن الاتفاق على وراثة عرش محمد على فى مصر أصبح دوليا.

وأصدر السلطان عبد المجيد فرمانا فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ اعترض عليه محمد على لدى الدول الأوروبية وينص على:

١- إذا خلا مركز حاكم مصر يختار السلطان من يشاء من أولاده الذكور أو أولاد أولادهم الذكور فإذا انقرض نسل الذكور يختار الباب لحكم مصر من يشاء.

٢- من يخلف محمد على يذهب للأستانة ليتلقى فرمان التقليد.

٣- أن ولاة مصر رغم حقهم الوراثى فى مرتبة وزراء الدولة فى المخاطبات الرسمية.

٤- المعاهدة التى يبرمها السلطان مثل خط كلخانة تنفذ فى مصر.

٥- تكون جباية الضرائب ودخل الحكومة باسم السلطان.

٦- يرسل ربع ايراد الحكومة للسلطان والباقى لشئون مصر.

٧- تعيين لجنة لمراقبة الدخل تؤلف طبقا لرغبة شاهانية.

٨- تصك النقود باسم السلطان.

٩- الجيش المصرى ١٨ ألف فقط وقت السلم ويرسل ألفين للأستانة ويسرح ٤ آلاف جندى كل سنة بطريق القرعة ومدة التجنيد ٥ سنوات.

١٠- ملابس الجنود طبقا للنظام المعمول به فى تركيا.

١١- لوالى مصر حق منح الرتب العسكرية حتى صا غ وللسلطان مايزيد على ذلك.

١٢- لا تبنى مصر سفنا حربية إلا بإذن السلطان.

١٣- يسقط إمتياز حكم مصر بالوراثة إذا لم تنفذ هذه الشروط وعندما اشتكى محمد على للدول أرسلت مذكرة للسلطان فعدل السلطان الشروط كما يأتى :

١- إن وراثة عرش مصر للأكبر سنا من سلالة محمد على الذكور.

٢- عدل عن تقديم الجزية بربع الدخل وجعلها تبعا لتقديره فيما بعد.

٣- أن يكون لوالى مصر حق منح الرتب حتى أميرالاى أما ما يعلوها كأمير لواء وفريق فجعل حق منحهما بعد استئذان السلطان.

وفى يوم ١٣ فبراير ١٨٤١ أصدر السلطان فرمانا «فى نفس اليوم» بإسناد أقاليم السودان «النوبة / دارفور/ كردفان/ سنار وجميع توابعها وملحقاتها إلى محمد علي.

ثم أصدر السلطان فرمان أول يونيو سنة ١٨٤١ يشمل فرمان ١٣ فبرابر والتعديل السابقة وتحديد ارالجزية بمبلغ ٤٠٠ ألف جنيه سنوياً.

الباب الرابع :

الفصل الأول

مذبحة المماليك .. هل كانت النقطة السوداء في تاريخ محمد على[1]

اختلف المؤرخون حول مذبحة القلعة التى دبرها محمد على للقضاء على المماليك .. بعضهم أدان محمد على ليس فقط لأنه سلك أسلوب الغدر وأوقع بهم بطريقة تتنافى مع القيم الإنسانية، ولكن لأنه أفرغ البلاد من القوة العسكرية الوحيدة التى كانت تعتمد عليها البلاد وقبل أن يقوم فيها جيش نظامى يقوم بمهمة الدفاع والحماية .. ومن المؤرخين من يلتمس العذر لمحمد على لأن المماليك فقدوا قدراتهم العسكرية منذ هزيمتهم أمام القوات الفرنسية. وتحولوا إلى عصابات للسلب والنهب.

على أية حال .. لنترك حكم التاريخ مؤقتا.. وندخل فى تفاصيل هذه المذبحة البشعة التى دبرها محمد على بحنكة ودقة.

فى صبيحة يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٨١١ أخذت القاهرة زخرفها وأزينت بالأعلام والبيارق، وخرج الأهالى إلى الشوارع لتوديع الجيش المصرى الذاهب إلى الحجاز لحرب الوهابيين، والذى سيأخذ طريقه من باب العزب المطل على ميدان الرميلة بالقلعة إلى شارع الأزهر ثم ينحرف يمينا فى شارع المعز لدين الله حتى باب الفتوح..

ومنذ الصباح الباكر كان عزيز مصر محمد على باشا يتصدر أريكة الحكم فى قصره بالقلعة ويستقبل الشيوخ والعلماء والقضاة والتجار والأعيان الذين توافدوا عليه لتهنئة والدعاء لقائد الحملة ابنه أحمد طوسون باشا.

(١) محمد على وأولاده - أ. جمال بدرى - م. الأسرة

ولفت الأنظار قدوم كبار الأمراء المماليك على خيولهم المطهمة، وفى ثيابهم المزركشة للإعراب عن سعادتهم بالدعوة التى وجهها إليهم محمد على لحضور الاحتفال، وليكونوا ضمن الموكب الذى سيصاحب الحملة أثناء مرورها فى شوارع القاهرة.

أما وجه الدهشة فيرجع إلى تواجد المماليك داخل عرين الأسد بعد سلسلة المعارك الدامية التى وقعت بين الطرفين، ودارت رحاها فى الصعيد حيث حشد المماليك قواهم ورفضوا الاعتراف بمحمد على حاكما على مصر دون مشاركة من المماليك الذين كانت لهم السيادة على مقدرات البلاد طوال ستمائة سنة، وكانت دعوتهم إلى احتفال القلعة إعلانا عن المصالحة وحقن الدماء وبدء صفحة جديدة تخلد فيها البلاد إلى الهدوء والاستقرار بعد ست سنوات من الاضطرابات والفتن.

كان هذا هو الانطباع الذى رسخ فى ذهن الحضور، وزادت دهشتهم حين وجدوا محمد على يستقبل أعداء الأمس بوجه بشوش، وكمات معسولة، ويسأل عن أحوالهم، ويضفى عليهم من عطفه ما جعلهم يقابلون التحية بأحسن منها ويدعون له بدوام العز والإقبال .. ولم يخطر على بال أحد أن هذه الابتسامات ليست إلا سرابا خادعا يخفى وراءه المصير الدامى والنهاية المفجعة للماليك!!.

كانت العلاقات بين محمد على والمماليك - منذ انفرداه بالحكم - قد وصلت إلى طريق مسدود، وكان من الصعب على المماليك أن يقبلوا بالأمر الواقع، وهو أن محمد على صار سيدا على مصر بلا منازع، وأن عليهم الأنزواء إلى الظل والعيش فى سكون .. فالسكون ليس من طبيعتهم، ويعنى لهم الموت الحقيقى، ولذلك أعلنوا عليه الحرب واستدرجوه إلى الصعيد حيث تتجمع قواتهم منذ أيام الحملة الفرنسية، واستعانوا عليه بالإنجليز وجاءت إليهم حملة

«فريزر» سنة ١٨٠٧ لتساعدهم على خلع محمد على ولكن أهل رشيد قاموا بواجب الدفاع عن مدينتهم وطردوا الإنجليز شر طردة.

ولم يستسلم المماليك وأخذوا يدبرون المؤامرات لاغتيال محمد على ففشلوا، وأيقن الثعلب الألبانى[1] أنه لا أمل له فى البقاء على عرش مصر طالما بقى المماليك ينازعونه السلطان، ويدبرون له المؤامرات .. وهو من عجينة فطرت على الاستبداد والطغيان وعدم قبول أى شريك له فى الحكم، ووجد أن المواجهة المسلحة معهم سوف تستنزف قواه وتشغله عن هدفه الأكبر، وأن عليه أن يلجأ إلى سلاحه العتيد : سلاح الغدر والمكر والمكيدة .. ومع أن المماليك كانوا أساتذة فى فن الغدر، إلا أنهم - فى هذا المجال - كانوا بالنسبة لمحمد على مجرد تلاميذ !!.

خطوات محكمة وسرية تامة

أعرب محمد على عن رغبته فى الصلح مع المماليك والسماح لهم بالعودة إلى القاهرة ليعيشوا فى سلام ووئام، وأكل المماليك الطعم، وقبلوا العرض وأخذوا يتوافدون على القاهرة بعد أن ألقوا السلاح، وخلعوا رداء الحرب، وارتضوا العيش الرغيد والحياة الناعمة فى أحضان حريمهم وجواريهم، وأصدر محمد على إعلانا بالأمان العام والصفح عن الأمراء المماليك، وكل من يلوذ بهم، حتى كان ذلك اليوم الدامى الذى استدرجوا فيه إلى القلعة ولم يغادروها إلا جثثا مضرجة فى دمائها !!.

دبر محمد على خطة اغتيال المماليك فى سرية تامة، وخطوات محكمة، ولم يعلم بها إلا أربعة نفر من خلصائه وأقرب المقربين إليه :

- حسن باشا : قائد الفرقة الألبانية.

---

(١) بعض المؤرخين يرى أن محمد على تركيا وليس ألبانيا

- الكتخدا محمد لاظوغلى: الممثل الشخصى لمحمد على وصاحب التمثال الشهير فى الميدان المسمى باسمه بحى المنيرة.

- صالح فوش : قائد فرقة الأرناؤوط التى عهد إليها بتصفية المماليك.

- إبراهيم أغا: الحارس المسئول عن باب العزب والمكلف بإغلاقه فى وجه المماليك.. ولو شئت الدقة فهو (سمسم) الذى تنغلق البوابة بمجرد سماعه كلمة السر .. وكانت كلمة السر : رصاصة يطلقها صالح قوش فى الهواء !!.

ووضعت ترتيبات المذبحة بحيث يتحرك الموكب وفى طليعته فرقة الفرسان الدلاة، ثم والى الشرطة، ثم الأغا (محافظ القاهرة) ثم المحتسب ثم فرقة الوجاقلية وهى إحدى فرق جيش الاحتلال العثمانى، ثم كوكبة من الجنود الأرناؤوط يقودهم صالح قوش.. ثم جماعة الأمراء المماليك يتقدمهم سليمان بك البواب .. ومن بعدهم بقية الجنود الأرناؤود فرسانا ومشاة.

اللحظة الحاسمة

وعندما حانت اللحظة الحاسمة، دوى النفير إيذانا ببدء الرحيل، فدقت الطبول، وصدحت الموسيقى، ونهض محمد على فهب المماليك وقوفا وبادلوه عبارات الود والتحية واستأذنوه فأذن لهم، فامتطوا خيولهم وأخذوا مكانهم فى الموكب حسب الترتيب الموضوع.

واتخذ الركب طريقه منحدراً فى الطريق الوعر الضيق المنحوت فى صخور القلعة ويفضى إلى باب العزب المطل على ميدان الرميلة حتى إذا اقتربت الصفوف الأولى من المماليك من باب العزب ارتج الباب وأغلق من الخارج إغلاقا محكما.

ولم يفطن المماليك إلى إغلاق الباب، وأخذت خيولهم تتزاحم بفعل الانحدار الطبيعى حتى وجدوا أنفسهم محصورين فى الخندق الضيق، وفى حركة سريعة

كان الجنود الأرناؤود يتسلقون الصخور المطلة على جانبى الخندق ويشهرون بنادقهم نحو المماليك، وفجأة ..

دوت طلقة في الهواء .. وبعدها انهمر الرصاص على المماليك من فوقهم وعن يمينهم وعن شمالهم ومن ورائهم.. وسدت منافذ النجاة أمامهم.. وصار من المحال عليهم أن يتحركوا وهم على ظهور الجياد فى هذا الزحام العصيب، وازداد هياج الخيول مع صخب أصوات الرصاص، فأخذت تلقى بالمماليك إلى الأرض وتدوسهم بأقدامها وكأنها تقوم بدور مرسوم لها فى المذبحة..

وحاول بعض الأمراء الزحف على ركبهم والدماء تنزف منهم حتى وصلوا إلى طوسون ممتطيا جواده، وأخذوا يستعطفونه ولكنه أصم أذنيه عن صرخاتهم. وأجهز عليهم الجند ذبحا، واستطاع سليمان بك البواب أن يزحف حتى وصل إلى سراى الحريم وأخذ يستغيث لائذا بالنساء ولكن الجند قطعوا رأسه غير عابئين بالتقاليد التى تعطى الأمان لمن يستغيث بالنساء..

وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض حتى بلغ عددها ٤٧٠ قتيلا هم كل من صعد إلى القلعة فى هذا اليوم الدامى، ولم يفلت منهم سوى (أمين بك) الذى وصل إلى الموكب متأخرا، فلما سمع أصوات الرصاص هرع إلى سور القلعة، ولكز جواده بضربة عنيفة فهوى به من هذا الارتفاع الشاهق، وقبل أن يلمس الحصان الأرض، قفز أمين من فوق ظهر الحصان فنجا من الموت وظل يركض فى الصحراء - عبر سيناء - حتى بلغ أرض لبنان، وعاش لاجئا فى كنف أميرها بشير الشهابى، ويقال أنه عاد إلى مصر بصحبة الأمير الشهابى وعفا عنه محمد على وأعاد إليه زوجته وأولاده.. وقد صاغ قصته جورجى زيدان فى رواية شيقة اسمها (المملوك الشارد) وقدمتها الإذاعة فى مسلسل عام ١٩٥٤ لايزال عالقا بذاكرة الجمهور.

وفى الوقت الذى جرت فيه مذبحة القلعة، كان الجنود الأرناؤود ينقضون على قصور المماليك فى القاهرة، يذبحون الأمراء ويستبيحون نساءهم وينهبون أموالهم، وكان الألبان كالوحوش الكاسرة التى تتلمظ شوقا إلى السلب والنهب والاغتصاب ..

ورغم أن أهل القاهرة سارعوا بإغلاق محلاتهم ولجأوا إلى بيوتهم هربا من فظائع الأرناؤود، إلا أن الوحوش لم تفرق بين بيوت المماليك وبيوت المصريين، فاستباحوا كل ما تصل إليه أيديهم.

واستمرت الفوضى ثلاثة أيام بلياليها ولم تتوقف إلا بعد أن نزل محمد على إلى شوارع المدينة وتمكن من كبح جماح جنوده وأعاد الانضباط إلى المدينة التعيسة، وبذلك انطوت صفحة المماليك من تاريخ مصر !!.

حكم التاريخ على المذبحة

ما هو حكم التاريخ على مذبحة القلعة؟ وهل تجاوز محمد على حدود العقل والحكمة والإنسانية حين قضى على المماليك بهذه الطريقة البشعة، إن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى بعد أن شرح تفاصيل المذبحة بكل دقة قال : نحن لا نريد أن ندافع عن المماليك، وقد سجلنا المساوىء التى ارتكبوها، والمضار التى جلبوها على البلاد، ولكن .. مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية.

ولو أن محمد على باشا استمر فى محاربتهم وجها لوجه حتى تخلص منهم فى ميادين القتال، لكان ذلك خيرا له ولسمعته، ولا يسوغ فعلته أن هذه الوسيلة كانت مألوفة فى ذلك العصر، وأن هذه المؤامرة هى صورة مكبرة لمذبحة أخرى دبرها الباب العالى للفتك بالمماليك سنة ١٨٠٤ بنفس الطريقة، فإن تكرار السيئات لا يبررها.. والجملة - يقول الرافعى - فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة فى تاريخ محمد على.

وقد حاول بعض المؤرخين تبريرها بقولهم أنه اضطر إليها دفاعا عن نفسه، وأن المماليك كانوا يكيدون له حين ذهب إلى السويس لتفقد السفن المعدة لنقل الحملة الوهابية، ولكنه غادر السويس ليلا وعاد إلى القاهرة قبل إنفاذ المؤامرة، وأنه كان لا يأمن المماليك بعد سفر الحملة وخلو البلاد من القوة العسكرية، فكان عليه أن يقطع دابرها قبل أن يتكالبوا عليه، ولكن الرافعى يرفض هذه التبريرات التى تفتقر إلى السند، ويرى أن مذبحة القلعة لم تكن بسبب أحداث آنية، ولكنها ثمرة تفكير عميق وتدبير واسع المدى سابق على مشروع الحملة الوهابية.

ولم تلق المذبحة تأييدا حتى من أصدقاء محمد على المدافعين عنه وعن حكمه، ومنهم صديقه الفرنسى مسيو «مانجان» الذى يقول : إننى أبعد ما أكون عن تبرير الفتك بالمماليك، على أننى أعده من بعض النواحى خيراً لمصر، فإن بقاءهم يفضى إلى حرب هى أضر على البلاد من الإيقاع بهم كما أن إرادة الباب العالى كانت تؤدى إلى استمرار تلك الحرب، فالضربة الجريئة التى ضربها محمد على تنفيذا لأوامر الباب العالى السرية، قد قضت على نظام المماليك وكانت تركيا تعمل على التخلص منه تدريجياً.

ومن هذه الناحية يمكن تبرير عمل الباشا، ومن جهة أخرى فإن الدفاع عن سلامته كان يقضى أن يلجأ إلى طرق حازمة، فقد كان محاطا بجنود فطروا على الشغب والفوضى، وكان مضطرا إلى إنفاذ جزء كبير من قواته إلى جزيرة العرب فكان عليه أن يفكر فى إضعاف خصومه الذين يزدادون قوة ونفوذاً، فقد بلغه كل ما قيل أنهم كانوا يأتمرون به ليختطفوه عند عودته من السويس.

ولما علم أن السياح الإفرنج يلومونه على اغتيال المماليك ويعدونه عملا منافيا للإنسانية، صرح بإنه يبغى أن يرسم صورة يضع فيها مذبحة المماليك

بجانب المذبحة التى ارتكبها نابليون ضد الدوق، «دانجان» حيث اتهمه ظلما بالتآمر عليه وأمر بقتله فى محاكمة صورية.

ويقول مسيو «جومار» الذى اختاره محمد على مشرفا على البعثات المصرية فى باريس : لو أمكن محو تلك الصفحة الدموية من تاريخ مصر، لما صار محمد على هدفا لأحكام التاريخ القاسية.

المظاليم المماليك

وردا على قدرة المماليك على إقصاء محمد على يقول الرافعى إن البقية الباقية من المماليك كان قد ضعف شأنهم، وتقلمت أظافرهم حتى لم يبق من وجودهم خطر على نفوذ محمد على وسلطانه، فماذا كان يستطيع إبراهيم بك وعثمان بك حسن وغيرهما أن يفعلوه وليس معهم سوى ذلك العدد الضئيل من المماليك الذين كانوا يحيطون بهم؟

وماذا كان يستطيع أن يفعله شاهين بك وسليمان بك البواب ومرزوق بك وغيرهم وقد تركوا إخوانهم فى الصعيد وجاءوا القاهرة مستأمنين خاضعين وغادروا حياة الكر والفر لينعموا بالرفاهية ورغد العيش ؟ وما نظن مطلقا أن ثمة خطرا كان يتهدد محمد على من هذه الناحية، وما نظنه كان فى حاجة إلى التخلص من تلك البقية الباقية من المماليك بتلك الوسيلة المنطوية على الغيلة والغدر.

وحول آثار المذبحة على الروح المعنوية للشعب المصرى. يقول الرافعى: إن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة، كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس، واستولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكناً - إلى زمن طويل - أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس.

والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا، وهى قوام الأخلاق والفضائل القومية، فإذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها، كان ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها، فالرهبة التى استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية.

وتلك خسارة كبرى، فإنما الأمم أخلاق وفضائل، أضف إلى ذلك أن هذه الحادثة وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد تطلعت إلى مراقبة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحياة الديمقراطية، وتعددت مظاهر هذه الروح بما حدث من اجتماعات الشعب واحتجاجاته على المظالم.

فحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هذه الروح وأحلت مكانها روح الرهبة من الحكام، الأمر الذى جعل محمد على أكثر اطمئناناً على انفراده بالحكم، فلم يظهر من الشعب طوال السبع وثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضة أو محاسبة أو انتقاد.

ويختتم الرافعى تحليله لآثار مذبحة القلعة بهذه العبارة القوية : «مع الاعتراف بما أسداه محمد على من الخير للبلاد، فإنه لم يعوض الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية: ناحية الشجاعة الأدبية، والروح الديمقراطية، تلك الناحية التى هى من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية».

الفصل الثانى

حروب مصر فى عهد سعيد باشا(١)

اشتركت مصر على عهد سعيد باشا فى حربين :

الأولى : حرب القرم.

والثانية: حرب المكسيك.

١- حرم القرم

تقدم الكلام عن اشتراك مصر فى هذه الحرب على عهد عباس باشا. وحُسن بلاء الجيش المصرى فى الدفاع عن (سلستريا).

وقد استمرت الحرب بعد وفاة عباس، وأرسل سعيد باشا نجدة إلى الجيش المصرى فيها .

ومما يذكر عن هذه الحرب أن المصريين عانوا فيها الشدائد والأهوال، إذ كانوا يقاتلون فى شدة البرد خلال شتاء عامى ١٨٥٤ و١٨٥٥. ولقى الكثير منهم منيتهم فى ميادين القتال، أو من فتك الأمراض، وقد دافعوا دفاعاً مجيداً عن (ايباتوريا). وهى مدينة من ثغور شبه جزيرة القرم، احتلها الحلفاء لمهاجمة مواقع الروس الحصينة فى شبه الجزيرة.

واستشهد سليم باشا (فتحى) القائد العام للجيش المصرى فى حصار (ايباتوريا)، ذلك أن الروس هاجموا المدينة بغتة، وكان سليم باشا يتولى قيادة المصريين فيها، فبينما هو قائم بأعباء القيادة أصابته رصاصة فى جبهته أردته قتيلا. ومع أن الروس ارتدوا عن المدينة، لكن مقتل سليم باشا كان خسارة كبرى أصابت الجيش، ووقعت وقعا أليما فى نفوس الجند والضباط.

(١) عصر إسماعيل - عبد الرحمن الرافعى.

ذكر المسيو (فانترينييه) نبأ مقتله فى كتابه (سليمان باشا) قال : «إن مصر شعرت بالألم الشديد لوفاته. إذ فقدت قائدا فذا فى الكفاءة الحربية، ورجلا نزيها محبا للخير. اكتسب بشجاعته إعجاب رؤسائه ومحبة زملائه».

ولما قتل سليم باشا فتحى، جعل سعيد باشا على القيادة العامة أحمد باشا المنكلى. والأميرالاى على بك مبارك باشا من أركان حربه، وكان وقتئذ ناظراً لمدرسة المهندسخانة، واشترك فى الحرب.

وقال الجيش المصرى فى حرب القرم ثناء مستطابا ممن شهدوا حسن بلائه فى القتال.

نقل المسيو فانترينييه فى كتابه (سليان باشا) ما ذكرته فى هذا الصدد جريدة المونيتور الفرنسية. قالت :

«أثبت المصريون أنهم خير الجنود الذين دافعوا عن أيباتوريا. ونالوا هذه المكانة ذاتها فى حرب الدانوب. واحتملوا وحدهم معظم العبء فى الدفاع عن سلستريا».

وقالت فى مواطن أخرى : «إن المصريين يعرفون فى الجيش التركى وفى البلاد التركية بالعرب. وطريقتهم فى القتال تشبه طريقة تلك الشعوب الحربية التى تجمع إلى الشجاعة والاقدام . الذكاء والنظام.

وشهد الجنرال اسمونت أحد قواد الجيش الفرنسى فى حرب القرم شهادة قيمة للجيش المصرى. قال : «لقد اشترك قسم من الجيش المصرى معنا فى حرب القرم. وحينما كنت محافظا لاباتوريا شاهدت فرقة من ذلك الجيش يبلغ عددها ١٢ ألف جندى . يؤلفون جزءا من جيش عمر باشا. ورأيت هذه الفرقة فى المناورات الحربية. كما رأيتها وهى تخوض غمار الحرب. بجانب فرقتين من الترك، وأشهد إنها كانت تفوق الفرقتين التركيتين فى كل المزايا».

وقال المسيو مريو فى كتابه مصر الحديثة يصف الجيش المصرى فى عهد سعيد باشا لمناسبة حرب القرم :

«إن كفاءة الفلاح المصرى فى فهم النظام الحربى، واتباعه إياه، وما اشتهر به من الثبات والشجاعة فى مواجهة الأعداء، كل هذه المزايا قامت عليها البينات، لا فى ميادين القتال بجزيرة العرب وسوريا فى عصر محمد على فحسب، بل بحسن دفاع الجيش المصرى عن سلستريا وابياتوريا فى حرب القرم الأخيرة».

وقد غرق الأميرال حسن باشا الاسكندرانى قائد الأسطول المصرى فى تلك الحرب، وذلك أنه كان عائدا بأسطوله إلى الاستانة لإصلاح بعض السفن، فهبت على الأسطول ريح عاصفة، وتكاثر عليه الضباب، فحال دون اجتيازه بوغاز البوسفور بسلم، واشتدت العاصفة عند مدخل البوغاز، فاصطدمت السفينتان (مفتاح جهاد (والبحيرة) فانكسرتا، وغرق من بهما من الجنود والضباط، وعددهم ١٩٢٠ مقاتل، لم ينج منهم سوى ١٣٠، وكان من الغرقى حسن باشا الاسكندرانى وسنان بك من قواد الأسطول المصرى.

وانتهت حرب القرم بفوز تركيا وحلفائها على الروس وسقوط قلعة سباستبول، وأبرم الصلح سنة ١٨٥٦ فى مؤتمر باريس الذى سلمت فيه الروسيا بمطالب الحلفاء.

٢- حرب المكسيك

والحرب الثانية هى حرب المكسيك، وقد تأخذك الدهشة من اشتراك مصر فى حرب المكسيك بأمريكا، إذ لا ناقة لها فيها ولا جمل، ولكن كذلك شاعت ميول سعيد نحو نابليون الثالث امبراطور فرنسا فى ذلك العهد وصداقته له أن يلبى دعوته حينما طلب إليه أن يمده بقوة حربية مصرية تعاون الجيش الفرنسى بها.

كانت المكسيك جمهورية تتخللها الفتن والثورات، كما هو شأنها إلى اليوم، وكان يتولى رئاسة جمهوريتها سنة ١٨٦١ المسيو جوارز ، فقامت بالبلاد فتنة بقصد إسقاطه وانتزاع السلطة من يده، فصادفت هذه الحركة هوى فى نفس الإمبراطور نابليون الثالث، واعتزم أن يعضدها ليبسط نفوذه على المكسيك ويؤسس بها إمبراطورية تحت رعايته.

وتذرع بما لحق الرعايا الأوروبيين فى الحرب الأهلية من المضار، فطالب الحكومة المكسيكية بتعويض هذه الخسائر. فلما رفضت ألب عليها انجلترا وأسبانيا، ثم ما لبث هاتان الدولتان أن نفضتا أيديهما من المسألة، أما نابليون فقد جرد على المكسيك جيشا كان مصيره إلى الهزيمة.

واستنجد فى خلال الحرب بصديقه سعيد باشا فسرعان ما أمده بكتيبة من الجنود السودانيين عددهم ١٢٠٠ مقاتل، يقودهم البكباشى جبرة الله محمد السودانى، والصاغ محمد أفندى ألماس، فأبحرت هذه القوة إلى المكسيك سنة ١٨٦٢، وأبلت فى الحرب هناك بلاء حسناً، وشهد لها المارشال فورى قائد الجيش الفرنسى بالشجاعة إذ قال عن جنودها : «إن هؤلاء ليسوا من الجنود، بل هم أسود».

واستمرت الحرب سجالا بين الجيش الفرنسى وقوات الثورة، وأعلنت الإمبراطورية فى عاصمة المكسيك فترة من الزمن، واعتلى عرشها الأرشيدوق مكسميليان النمسوى سنة ١٨٦٤. ثم كانت الغلبة لقوات الثورة، فجلا الفرنسيون عن البلاد، وقتل الإمبراطور مكسميليان رميا بالرصاص سنة ١٨٦٧.

وفى غضون ذلك ظلت الكتيبة المصرية تكافح فى تلك البلاد السحيقة نيفا وأربع سنوات، قتل فى خلالها البكباشى جبرة الله، فخلفه ألماس أفندى، وفنى معظم رجالها، ولم يبق منهم بعد إنتهاء الحرب سوى بقية من ضباطها، ونحو ثلثمائة من جنودها.

ولما جلا الجيش الفرنسى عن المكسيك عادت الكتيبة إلى فرنسا. فاستعرضها الإمبراطور نابليون الثالث، يصحبه القائد المصرى شاهين باشا، الذى كان يزور باريس وقتئذ، فهنأ الامبراطور ألماس أفندى على شجاعة الكتيبة وحسن نظامها، ووزع الأوسمة على بعض المميزين من رجالها، ورجعت إلى مصر فى مايو سنة ١٨٦٧، فاستعرضها الخديوى إسماعيل بسراى رأس التين بالاسكندرية. وأمر بترقية طائفة منها، وأقام طيف باشا وزير البحرية مأدبة لضباطها تكريما لهم ولسائر رجال الكتيبة.

السودان

مر عهد عباس الأول دون أن ينال السودان منه التفاتا ما. ولم يحدث فى عهده مما يسترعى النظر سوى المدرسة الابتدائية بالخرطوم. وتولى منصب الحاكم العام للسودان فى عهد عباس خالد باشا الذى كان يشغله من عهد محمد على، ثم عبد اللطيف باشا الذى أنشئت فى عهده مدرسة الخرطوم الابتدائية. ثم رستم باشا وقد مات بالخرطوم، ثم إسماعيل باشا أبو جبل، ثم سليم باشا، ثم على باشا سرى .

ولما توفى عباس الأول وخلفه سعيد باشا نال السودان نصيبا من اهتمامه، فقد اقتبس من أبيه فضيلة العناية بهذا الإقليم العظيم المتمم لمصر، وفى أول عهده جعل على باشا شركس حكمداراً للسودان، وأوفد أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتفتيش على إدارته، وإصلاح شئونه، ولكن الأمير لم يطل البقاء فيه، لظهور وباء جعله يعجل بالعودة إلى مصر.

ثم اعتزم سعيد أن يزور السودان بنفسه ليتفقد أحواله كما فعل أبوه من قبل، فذهب إليه يصحبه طائفة من خاصة رجاله وأصدقائه، مثل راغب باشا ، وذو الفقار باشا، وإبراهيم بك النبراوى، والمسيو فردينان دلسبس، والدكتور أباته باشا، وأراكيل بك أخى نوبار باشا وغيرهم، ووصل إلى الخرطوم فى ١٦ يناير

سنة ١٨٥٧ والتقى بأعيان الأهلين، فقدموا له عرائض يشكون فيها من فداحة الضرائب، ومظالم الحكام، فاستمع لشكاياتهم، وتألم لحالتهم، وساورته يوما فكرة إخلاء السودان، ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه أن يعدل عن رأيه، محتجين بأن إخلاء السودان يؤدى لا محالة إلى تفاقم الحالة فيه، إذ تعمه الفوضى.

فعدل سعيد عن رأيه، واعتزم إصلاح حالته، فأمر بإعفاء الأهالى من المتأخر عليهم من الأموال، وخفض الضرائب تخفيضا عظيما ووضع قاعدة ثابتة لتقدير قيمتها بأن جعلها تتبع عدد السواقى فى الأطيان، لأن السواقى تبين مبلغ خصب الأرض، ودرجة إنتاجها.

فجعل على مجموع الأرض التى تروى من ساقية واحدة ٢٠٠ قرش، وأما الأطيان التى تروى من غير حاجة إلى السواق فجعل على الفدان الواحد منها ضريبة تتراوح بين ٢٠و٢٥ قرشا.

وقرر عزل الموظفين الترك الذين كان الأهالى يشكون من سوء معاملتهم، واعتزم تعويد الأهلين حكم أنفسهم بإنشاء مجالس محلية مؤلفة من أعضاء يختارون من رؤساء العشائر والعائلات، ورفع المظالم عن الأهلين، وفك أسار الكثيرين منهم، ورسم بإلغاء السخرة، وأمر مديرى الأقاليم السودانية بأن يحسنوا معاملة الأهلين، وألا يرهقونهم فى جباية الضرائب، وقضى ألا يعهد إلى الجنود فى تحصيل الضرائب لما اشتهر عنهم من القسوة.

ومن اصلاحاته بالسودان أنه أنشأ محطات فى صحراء (كروسكو، لتسهيل نقل البريد والمسافرين بين مصر والسودان، ونظم البريد بين مختلف أنحاء السودان، وأنشأ نقطة عسكرية على نهر سوباط لمنع تجارة الرقيق ومطاردة النخاسين.

ولما عاد إلى مصر عهد إلى موجيل بك كبير المهندسين تسهيل سبيل المواصلات بين وادى حلفا والخرطوم، فرأى موجيل بك أن خير وسيلة لإدراك هذا الغرض إنشاء سكة حديد ووضع مشروعا لذلك، ولكنه لم ينفذ لكثرة ما يقتضيه من النفقات، وقد أبطل منصب الحاكم العام (حكمدار السودان)، وجعل من السودان خمس مديريات مستقلة فى إدارتهابعضها عن بعض، ترجع كل منها فى شئونها إلى وزارة الداخلية ، شأن مديريات القطر المصرى، وجعل من الخرطوم وسنار مديرية واحدة وعين أراكيل بك نوبار مديرا لها، لكى يشرف على الإصلاحات التى قررها، وقد بقى يتولى منصبه إلى أن توفى سنة ١٨٥٨، ثم خلفه حسن بك سلامة حتى عزل، وخلفه محمد بك راسخ.

ثم رأى سعيد باشا أن استقلال مديرى الأقاليم جعلهم يلتجئون إلى الاستبداد والظلم، ويسيئون إلى الأهلين، فألغى استقلالهم، وأعاد منصب حكمدار السودان، وقلد موسى باشا حمدى هذا المنصب، فكان من أعظم ولاة السودان شأنا، وله فيه إصلاحات جمة، منهاأنه عين من الأهلين (نظار أقسام ومأمورى مراكز، ومعاونين)، وعقد رؤساءهم مجلساً، وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب،وتسهيل جبايتها.

وقد عضد سعيد الرحلات والاكتشافات الجغرافية فى أنحاء السودان، فكثر عدد المكتشفين فى عهده، ولكنه لم يحذو حذو أبيه فى إيفاد بعثات مصرية كالبعثة التى أنفذها محمد على إلى السودان بقيادة البكباشى سليم بك قبطان أحد ضباط البحرية المصرية، بل ترك أمر هذه الرحلات للمكتشفين الأجانب، وهى ناحية ضعف وقع فيها هو إسماعيل من بعده.

رحلة سعيد باشا إلى الحجاز

قصد سعيد إلى الحجاز فى أوائل سنة ١٨٦١، وتدل ملابسات هذه الرحلة على أن لها غرضا سياسيا، فإنه لم يذهب إلى الحجاز فى موسم الحج واقتصر على زيارة المدينة المنورة، وكانت الرحلة أشبه بتجريدة عسكرية، إذ كان يصحبه من الجند والحاشية نحو ألفى رجل من مشاة وفرسان ومدفعية وأتباع، واختلفت الآراء فى الباعث لسعيد على هذه الرحلة، ويؤخذ من رواية محمد بك صادق باشا، الذى رافق الأمير فى رحلته أن لها سببا سياسيا، وهو استدعاء الحكومة التركية إياه للحضور إلى الأستانة، فرفض الذهاب إليها، واعتزم زيارة المدينة لكى يتمحل الأعذار ويجد مسوغا للرفض.

وبدأ سعيد باشا رحلته فى ١١ رجب سنة ١٢٧٧ هـ ٢٣ يناير سنة ١٨٦١ فقصد من القاهرة فإلى السويس، ومنها إلى الوجه من ثغور الحجاز، ثم سارت الحملة برا إلى المدينة المنورة، وصلتها فى أول شعبان ١٢ فبراير، وبعد أن زار سعيد باشا قبر المصطفى ﷺ غادر المدينة فى اليوم السادس منه، وسار إلى ينبع، ومنها استقل الباخرة (نجد) إلى السويس فوصل إليها فى ١٧ منه، ٢٨ فبراير.

الفصل الثالث

الموقف السعودى المصرى

من قضية فلسطين

فى النصف الأول من القرن العشرين(١)

كان لعاهل السعودية العظيم الملك عبد العزيز آل سعود - كما كان لمصر- موقف بارز واضح تجاه المشكلة الفلسطينية منذ ظهرت إلى حيز الوجود، وأصبحت من أخطر القضايات التى تواجه العرب، وتقض مضجعهم فى العصر الحديث.

وقبل أن نتعرض للموقف السعودى والموقف المصرى من القضية الفلسطينية، أجد لزاما على أن أستعرض بسرعة الظروف والملابسات التى أدت لظهور المشكلة الفلسطينية وتطورها، حتى أصبحت من أخطر القضايا والمشكلات التى واجهت العالم العربى والإسلامى، وما زالت تمثل إلى الآن تحديا صارخا للأمة العربية، بل للعالم كله، باعتبارها أساس القلاقل والحروب التى تعرض ويتعرض لها الشرق الأوسط فى وقتنا هذا.

نشأة القضية الفلسطينية وتطورها:

ترتبط هذه القضية بالحركة الصهيونية، والصهيونية اتخذت اسمها من جبل صهيون بفلسطين. والحركة ترمى إلى تجميع يهود العالم كله فى فلسطين لتكون وطنا قوميا لليهود.

---

(١) أحوال العالم الإسلامى فى عهد الملك عبد العزيز - أ. محمد عبد الله البان ، د. شوقى عطا الله الجمل. د. محمد فتحى عثمان

وقد نشأت الحركة فى القرن التاسع عشر، عقب سلسلة من الاضطهادات تعرض لها اليهود فى أجزاء متفرقة من العالم، فجاء التفكير فى الهجرة إلى فلسطين، واتخاذها وطنا قوميا لهم. وقد اختيرت فلسطين بالذات على أساس ما يدعيه اليهود من أنها (أرض الميعاد) وبالفعل بدأت هجرة أعداد من اليهود إلى فلسطين، وقد لقيت حركة الهجرة اليهودية هذه تعضيدا من أثرياء اليهود فى الغرب، مثل البارون إدموند روتشيلد ، الذين مولوا هذه الحركات.

وقد خطت الحركة الصهيونية خطوة مهمة على يد هرتزل (وهو نمساوى لكنه يعمل مراسلا صحفيا فى باريس فى عام ١٨٩٦م وقد كتب كتابا عن (الدولة الصهيونية)، حاول فيه أن يوضح أن اليهود أمة متميزة، لهم قوميتهم الخاصة، ويجب أن يكون لهم وطن خاص كباقى القوميات، وقد أنشأ هرتزل مجلة أسبوعية تنادى بأفكاره هذه.

وفى عام ١٨٩٧م، دعا هرتزل لعقد المؤتمر الصهيونى الأول، وعُقد هذا المؤتمر فعلا فى بازل بسويسرا فى العام نفسه.

وقد اتخذ هذا المؤتمر عدة قرارات هامة منها:

١- أن تكون فلسطين وطنا قوميا لليهود.

٢- أن تنشأ (منظمة صهيونية عالمية) تعمل لتهجير اليهود إلى فلسطين وقد اختير هرتزل كأول رئيس للمنظمة.

٣- أن تسعى المنظمة لدى الدولة العثمانية للحصول على موافقتها، باعتبار أن فلسطين كانت فى ذلك الوقت من أملاك هذه الدولة.

وفى سنة ١٩٠٣م حدثت عدة مذابح فى روسيا راح ضحيتها عدد من اليهود، مما أدى للتفكير الجدى فى إيجاد وطن قومى لليهود، وقد نجح هرتزل فى أن يحصل من بريطانيا على عرض باتخاذ أوغندة كمكان لاستيطان اليهود.

المؤتمر الصهيونى يختار فلسطين :

ولما عرض الأمر على المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى عام ١٩٠٤م، رفض المؤتمر هذا العرض، مصرا على أن فلسطين هى المكان المناسب لذلك.

وقد أخذت الحركة الصهيونية تنتشر، وتجد لها أنصارا فى مختلف دول العالم، وإن كان قد وجد من اليهود من أبدى معارضة لهذه الحركة، على أساس أن اليهودية دين فحسب، وأن اليهود ينتشرون فى مختلف بقاع العالم، وينتمون لقوميات الدول التى يعيشون فيها .

وقد بلغت المنظمة الصهيونية درجة ملحوظة من القوة حين أصبح وايزمان - أستاذ الكيمياء بجامعة مانشيستر البريطانية - رئيسا للمنظمة، وكان مقربا من عدد كبير من رجال السياسة البريطانيين.

تأثير الحرب العالمية الأولى على الحركة الصهيونية :

وجاءت أحداث الحرب العالمية الأولى لتضيف بعدا جديدا للحركة الصهيونية، فقد دخلت تركيا الحرب فى جانب دول الوسط (ألمانيا، والنمسا، والمجر) ضد الحلفاء (انجلترا، وفرنسا وروسيا)، فكان على الحلفاء أن يتدبروا أمر تركيا وأملاكها الشاسعة فى العالم العربى، بل وفى أوروبا - أثناء الحرب وبعدها.

وعد بلفور :

وفى هذه الأثناء أعلنت إنجلترا تصريحها المشهور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧م، والذى عُرف بوعد بلفور، على اسم وزير خارجية بريطانيا، الذى أرسل خطابا إلى المليونير اليهودى لورد روتشيلد تتعهد فيه بريطانيا بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين

وقد ظهر أن التصريح قد عرضته بريطانيا قبل إعلانه على حلفائها وأصدقائها (فرنسا وأمريكا وايطاليا) فأقرته. وقد اختلف المؤرخون فى الأسباب التى وقعت وراء صدور هذا التصريح :

آراء المؤرخين فى وعد بلفور :

١- فقد ذهب بعضهم إلى أن الأمر يرجع إلى رغبة الحلفاء فى كسب الحركة الصهيونية - التى كانت قد بلغت درجة كبيرة من الانتشار- إلى جانبهم فى هذه المرحلة من الحرب.

٢- وذهب البعض إلى أن إنجلترا كانت فى ذلك الوقت بحاجة لدخول الولايات المتحدة الأمريكية صراحة إلى جانبها فى الحرب، وكان اليهود الأمريكان يسيطرون إلى حد كبير على الرأى العام الأمريكى، فرأت إنجلترا فى هذا التصريح ما يكسبها تأييد اليهود الأمريكان، مما يشجع الرئيس الأمريكى ويلسون على إعلان انضمام بلاده فى الحرب إلى جانب الإنجليز.

٣- إن الأمر يرجع إلى الأوضاع فى روسيا، فقد كانت قد بدأت فيها إرهاصات الثورة البلشفية، وكانت إنجلترا تخشى من خروجها من الحرب، فأعلنت هذا الوعد لتكسب إلى جانبها اليهود الروس، الذين كانوا يسيطرون على حد كبير على الصناعات الحربية فى روسيا.

٤- وهناك رأى بأن البريطانيين كانوا يريدون الاستعانة بكتائب عسكرية من اليهود، ويستند هؤلاء فى رأيهم إلى أن جيش اللنبى الذى دخل فلسطين كان يدعمه جيش يهودى مدرب قوامه ثلاثة آلاف محارب.

وحين انتهت الحرب العظمى الأولى لصالح الحلفاء أقروا نظام (الانتداب)، كبديل لتقسيم مستعمرات الدول المنهزمة بين الدول المنتصرة، والذى عارضه الرئيس ويلسون. وبناء على المادة (٢٢ من ميثاق عصبة الأمم وضعت الأقطار

التى كانت جزءا من الدولة العثمانية فى إطار الانتداب من الدرجة الأولى، فكانت العراق وشرق الأردن وفلسطين من نصيب إنجلترا، وسوريا ولبنان من نصيب فرنسا.

قرار الانتداب :

وقد صدر قرار الانتداب الخاص بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى بناء على ما قرره الحلفاء فى سان ريمو فى عام ١٩٢٠م، وإقرار مجلس عصبة الأمم فى عام ١٩٢٢م لهذا القرار.

وجاء صك الانتداب مشتملا على وعد بلفور السابق، فقد نص صك الانتداب على :

فحوى صك الانتداب :

١- جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود.

٢- الاعتراف بالوكالة اليهودية كسلطة رسمية تتعاون مع سلطات الاحتلال البريطانى.

٣- تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فى الأراضى البور والأراضى الحكومية غير المطلوبة لأعمال المنافع العامة.

٤- تسهيل حصول اليهود المهاجرين لفلسطين على الرعوية الفلسطينية.

٥- تكون اللغة العبرية إلى جانب اللغتين الإنجليزية والعربية لغة رسمية معترفا بها فى البلاد.

رفض العرب لمدأ الانتداب :

وقد رفض الزعماء العرب من البداية مبدأ الانتداب أساسا، كما رفضوا

وعد بلفور، وما تبعه من نتائج، على أساس أنه ليس لبريطانيا الحق فى أن تتصرف فى أرض لا تملكها، وأن هذا يتعارض تعارضا جذريا حتى مع مبدأ الانتداب وأهدافه.

ومن الجدير أن نشير إلى أن أول مندوب سام بريطانى فى فلسطين بعد الانتداب هو هربرت صموئيل ، وهو يهودى صهيونى، بل لعل تعيينه جاء بناء على ترشيح المؤتمر اليهودى العالمى المنعقد فى لندن فى سنة ١٩٢٠، وقد ظل مندوبا ساميا بفلسطين حتى عام ١٩٢٥.

وقد بذل هذا المندوب السامى جهده لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وشراء الأراضى من العرب، أو تجريدهم من أراضيهم بكل السبل، وكان أثرياء اليهود مستعدين لدفع الثمن دائما.

وفى الإحصائيات الرسمية أن عدد اليهود فى فلسطين قبيل الانتداب البريطانى لم يكن يتجاوز ٠٠٠و٥٢نسمة، وأنه بلغ فى عام ١٩٢٥ حوالى ٠٠٠و١٠٣ نسمة، وما كان بأيديهم من الأراضى ارتفع من ٠٠٠و٥٠ دونم من مساحة فلسطين البالغة ٢٧ مليون دونم إلى أكثر من مليون دونم فى العام نفسه

مؤتمر سان ريمون يقر الانتداب البريطانى على فلسطين:

لقد أقر مؤتمر سان ريمو الانتداب البريطانى على فلسطين، فبدأت بريطانيا تمارس إدارتها فى فلسطين، وفتحت باب الهجرة على مصراعيه لليهود. وكان على العرب أن يواجهوا هذا الموقف.

وإذا ألقينا نظرة على موقف كل من اليهود والعرب فى فلسطين فى ذلك الوقت، نلاحظ مايلى :

أولا : فيما يتعلق باليهود :

١- كان اليهود يلقون التأييد والمساندة من سلطات الانتداب البريطانية.

٢- كانت الوكالة اليهودية تقدم المعونات المادية والأدبية لليهود الراغبين فى الهجرة إلى فلسطين.

٣- كان اليهود يلقون تأييدا كبيرا من الحركة الصهيونية العالمية.

٤- كان اليهود المهاجرون قادمين أصلا من بلدان أوربية متقدمة، ولذا كانت لديهم الخبرة فى مجالات الزراعة وغيرها، مما أكسبهم تفوقا واضحا على العرب فى هذه المجالات، خاصة أنه فى الوقت الذى انهمك فيه العرب فى المعركة السياسية ضد اليهود، كان هؤلاء يوجهون جهدهم لتنمية اقتصادهم.

ثانيا: العرب بفلسطين :

لم تكن للعرب فى فلسطين سلطة واحدة باسمهم، فبينما كان المجلس الإسلامى الأعلى - وعلى رأسه الحاج أمين الحسينى مفتى بيت المقدس - يمثل الاتجاه الداعى للجهاد، كانت هناك أحزاب أخرى متعددة ذات آراء متفاوتة !!

وبينما كان البعض ينادى بقصر المعركة على اليهود، كان هناك اتجاه يرى أن الهجوم يجب أن يركز على الانتداب البريطانى، باعتباره العقبة فى سبيل تكوين دولة عربية مستقلة فى فلسطين.

هذا وقد تطورت الأحداث فى فلسطين تطورا سريعا، فكثرت الاضطرابات، وتعددت أسباب الاحتكاك بين العرب واليهود، فشهد عام ١٩٢٠م مظاهرات عارمة، كما تجددت الاضطرابات فى عام ١٩٢٩م إثر حادث حائط المبكى، واعتداء بعض اليهود على المصلين فى المسجد الأقصى وقتل عدد منهم.

موقف المملكة العربية ومصر من هذه الأحداث:

أتاح نجاح الملك ابن سعود فى أن يوطد سلطاته على شبه جزيرة العرب - بحيث أصبح أكبر حاكم عرى مستقل تمتد مملكته من الخليج العربى شرقا إلى البحر الأحمر غربا- الفرصة لأن يوجه اهتمامه للقضية الفلسطينية.

أحداث المسجد الأقصى :

وقد هزت أحداث المسجد الأقصى فى اكتوبر ١٩٢٩م الملك العربى، فأرسل إلى بريطانيا مستنكرا اعتداءات اليهود على المسلمين المصلين.

وأدى هذا الموقف إلى أن أرسلت إنجلترا لجنة شو إلى القدس للتحقيق فى الأحداث التى وقعت، وقد أثبت تقرير اللجنة أن ما يقال من أن مفتى فلسطين الحاج محمد أمين الحسينى واللجنة التنفيذية العربية هى المسؤولة عن أعمال الشغب هذه، افتراء وليس صحيحا .

اشتداد الثورة العربية فى فلسطين :

وقد أدت الأحداث فى فلسطين، وتدفق اليهود المهاجرين خاصة - بسبب اضطهاد هتلر لليهود - إلى اشتداد الثورة العربية فى فلسطين فى عام ١٩٣٦م، وقد طلبت الحكومة الإنجليزية من الملك ابن سعود وباقى حكام العرب التدخل لنصح الفلسطينيين العرب بالخلود إلى السكينة، حتى يمكن دراسة مطالبهم.

وقد قبل العرب هذا الأمر بشرط وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد خفضت بريطانيا الأعداد المسموح بهجرتها قانونا من ٤٥٠٠ مهاجر إلى ١٨٥٠ مهاجرا، كما أرسلت لجنة عرفت (باللجنة الملكية) برئاسة اللورد بيل ، للتحقيق فى أسباب الاضطرابات وتقديم المقترحات، وقد نشر تقرير لجنة بيل فى ٨ يوليو ١٩٣٧م.

وقد اقترحت اللجنة تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق : منطقة عربية، ومنطقة يهودية، ومنطقة محايدة تشمل القدس وبيت لحم تبقى تحت الانتداب البريطانى، وعملت خرائط توضع حدود كل قسم من الأقسام الثلاثة.

اليهود يقبلون التقسيم :

وقد قبل اليهود من جانبهم مقترحات لجنة التقسيم، بينما عارضها العرب، وأرسلت اللجنة العربية العليا فى ٢٩ ديسمبر ١٩٣٧م وفدا إلى الرياض لمقابلة الملك ابن سعود لتوضيح موقف عرب فلسطين من قرار التقسيم.

وقد قابل الملك ابن سعود الوفد العربى، وناقش معه الموقف، وقدم النصح بألا يقف العرب موقفا سلبيا، بل يحسن أن يتصلوا باللجنة الملكية البريطانية، ويشرحوا لها موقفهم بالتفصيل. وفى نفس الوقت أمر الملك السعودى بتأليف لجنة فى كل مدن وقرى المملكة السعودية، أطلق عليها (لجنة فلسطين)، لمساندة الشعب الفلسطينى فى محنته، وتقديم المعونة له، بالإضافة إلى المعونة الحكومية.

وقد تعددت رسائل الملك ابن سعود لبريطانيا، يقترح فيها وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ووضع تشريع لمنع انتقال الأرض من العرب إلى اليهود، ومحاولة تفهم وجهة نظر العرب، وذلك لكى تكسب إنجلترا صداقة العرب لها.

قرارات مؤتمر بلودان فى سوريا :

وفى ٨ سبتمبر ١٩٣٧م عقد مؤتمر شعبى فى بلودان فى سورية، حضرته وفود من مختلف البلاد العربية، وقد قرر هذا المؤتمر الشعبى ما يلى :

١- رفض مبدأ التقسيم ومعارضة إنشاء دولة يهودية.

٢- المطالبة بإلغاء الانتداب

٣- المطالبة بوقف هجرة اليهود الى فلسطين

٤- استصدار تشريع لمنع انتقال الأرض من العرب إلى اليهود.

٥- اعتبار وعد بلفور باطلا.

وقد تبودلت الخطابات أيضا بين الملك ابن سعود وبين الرئيس الأمريكى روزفلت بخصوص قضية فلسطين، وقد أوضح الملك بكل صراحة فى خطاباته أنه وبلاده يقفون وراء عرب فلسطين أصحاب الحق الواضح فى بلادهم، وأنهم لا يقبلون أن يهضم حق العرب الصريح، الذى هو مثل الشمس بمغالطات تاريخية أو نظريات اجتماعية واقتصادية من قبل اليهود والصهاينة.

تصريح ٢٨ فبراير :

هذا، وأشير إلى أن انشغال الحكومة المصرية منذ ثورة ١٩١٩م، وتطور العلاقات بين مصر وبريطانيا بعد صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م من جانب واحد، لم يتح الفرصة كاملة للجهات الرسمية فى مصر لتقدم العون اللازم لعرب فلسطين فى نضالهم، لكن لم يمنع هذا الشعب المصرى من أن يعبر عن طريق الصحافة الوطنية، وعلى لسان الخطباء فى المساجد ورجال الأزهر الشريف عن تضامنه الكامل مع الشعب الفلسطينى فى محنته.

مقتل سردار الجيش المصرى :

وجاءت الأحداث التى تلت مقتل السير لى ستاك سردار الجيش المصرى، واستقالة وزارة سعد زغلول لتزيد من ارتباك الأحداث فى مصر. وقد ظلت الأحوال كذلك وتعددت المفاوضات مع انجلترا حتى عقدت معاهدة سنة ١٩٣٦م.

وفى عام ١٩٣٧م لجأت بريطانيا مع الزعامات الفلسطينية لإجراء مماثل لما فعلته مع الزعماء المصريين فى ثورة ١٩١٩م، فقد قامت بنفى خمسة من

زعماء اللجنة العربية إلى جزيرة سيشل، كما عزلت الحاج أمين الحسينى من منصبه كرئيس للمجلس الإسلامى الأعلى، واضطر المفتى للفرار من فلسطين إثر قرار الإنجليز بالقبض عليه.

هذا، وقد شارك وفد شعبى مصرى فى مؤتمر بلودان فى سوريا عام ١٩٣٧م، على أن الظروف الدولية المتوترة في عام ١٩٣٩م أدت إلى أن تحاول إنجلترا كسب العرب إلي جانبها فى الحرب المنتظرة، كما أن إنجلترا كانت مضطرة لأن تحسب حساب الحكومات العربية التى ترتبط معها بمخالفات، والتى تقع هى نفسها تحت ضغط شعوبها.

ولذا دعت إنجلترا فى عام ١٩٣٩م إلى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن لبحث القضية الفلسطينية، وقد دُعى للمؤتمر ممثلون من العراق ومصر والمملكة العربية السعودية وشرق الأردن واليمن.

واضطرت إنجلترا إلى الإفراج عن أعضاء اللجنة العربية العليا المنفيين فى سيشل للمشاركة فى المؤتمر.

وكان الوفد اليهودى التى اشترك فى هذه المحادثات مؤلفا من عدد من أعضاء الوكالة اليهودية، بالإضافة إلي بعض زعماء الصهاينة فى أوربا والولايات المتحدة، ورأس الوفد الدكتور وايزمان.

وقد رفض الوفد العربى الاجتماع على مائدة واحدة مع الوفد الصهيونى، مما ترتب عليه أن أصبح على الوفد البريطانى أن يجتمع بكل من الجانبين على حدة، واستمر المؤتمر شهرى فبراير ومارس ١٩٣٩م، ولم يحقق أية نتيجة.

الكتاب الأبيض البريطانى وموقف الدولتين منه :

في ١٧ مايو سنة ١٩٣٩م أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض، وقد حاولت بريطانيا فى هذا الكتاب أن تسترضى العرب إلي حد ما، فقد

أشارت فى هذا الكتاب إلي تحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين بـ ٧٥٠٠٠ يهودى خلال الخمس سنوات المقبلة، بعدها توقف الهجرة تماما، وفيما يتعلق بالأرض قسمت أرض فلسطين إلى ثلاث مناطق : منطقة يسمح فيها بتحويل الأراضى من يد العرب إلى أيدى اليهود، ومنطقة ثانية يسمح فيها بهذا التحول فى حدود، ومنطقة ثالثة يحرم فيها بيع الأراضى لليهود.

وقد رفضت الحكومات والشعوب العربية هذا الكتاب، لكنها رأت فيه تراجعا من الحكومة البريطانية عن سياسة الباب المفتوح، بينما رأى فيه اليهود خروجا عن صك الانتداب وعن وعد بلفور، فهاجموه بعنف.

لكن انشغال العالم بالحرب العالمية الثانية جعل الطرفين يخلدان - إلى حد كبير - للهدوء ، ونجحت بريطانيا فى تهدئة العرب، ومنع قيامهم بثورة ضدها، في وقت كانت كل جهودها مركزة على الحرب.

لكن اليهود - وقد ثبتوا أقدامهم فى فلسطين - اتجهوا منذ عام ١٩٤٢م إلي تحقيق أطماعهم بالقوة، مستخدمين السلاح ضد العرب وضد الإدارة الإنجليزية فى فلسطين، فقد شنوا حملة إرهابية اصطلى الإنجليز بنارها، كما اصطلى العرب بها.

ولقد شجع اليهود على ذلك :

١- الهزائم التى منى بها الألمان النازيون، والذين كانوا من ألد أعداء اليهود.

٢- موافقة إنجلترا على تكوين لواء يهودى اشترك فى المراحل الأخيرة للحرب العالمية الثانية، بينما لم يغفر العرب لبريطانيا موقفها فى فلسطين، فلم يقدموا لها ما كانت تنتظره من معونة في ميدان الشرق الأوسط.

٣- دخول الولايات المتحدة الحرب فى صف الحلفاء، وضغوط الصهيونية الأمريكية لصالح اليهود.

برنامج بلتمور :

وفى ظل هذه الظروف أصدر اليهود ما عرف ببرنامج بلتمور وهو يطالب بما يلى :

١- إنشاء دولة يهودية تضم فلسطين.

٢- تكوين جيش يهودى.

٣- فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية دون قيد.

٤- رفض الكتاب الأبيض البريطانى.

أطماع اليهود :

وتطورت أطماع اليهود فأصبحوا لا يطالبون بوطن قومى لهم فى فلسطين، بل بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين، وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية هى السند الأول لليهود وليست بريطانيا، وظهر ذلك حتى فى مناقشات الكونجرس الأمريكى نفسه.

وقد تعددت خطابات الملك عبد العزيز بن سعود للرئيس روزفلت، يوضح فيها حق العرب الواضح فى فلسطين، ويفند ادعاءات الصهاينة. فاليهود - كما ذكر الملك ابن سعود فى رسالته - ليس لهم أى حق فى فلسطين.

اللقاء بين الرئيس الأمريكى روزفلت والملك عبد العزيز:

وقد رأى الرئيس روزفلت بعد هذه المراسلات المتعددة مع العاهل السعودى، وتقديرا منه لما للملك من مكانة لدى العرب فى جميع الأقطار، وللدور الذي يمكن أن يقوم به لإيجاد حل لقضية فلسطين - أن يقابل الملك نفسه، ولذا قرر الرئيس الأمريكى أن يتم هذا اللقاء بعد مؤتمر بالطة الذي عقد بين روزفلت وتشرشل.

وقد تم هذا اللقاء فى ١٥ فبراير ١٩٤٥م على ظهر الباخرة الأمريكية كرينسى فى البحيرات المرة بمصر، وقد حضر المقابلة وليم إيدى الوزير المفوض الأمريكى بجدة، وقد نشر تفاصيل ما دار فى هذه المقابلة.

ومما ذكره أن الرئيس الأمريكى لم يستطع أن يثنى الملك عن موقفه قيد أنملة، فقد رفض الملك السماح بدخول أى عدد آخر من اليهود إلى فلسطين، فقد ذكر «أن القول بأن اليهود هم الذين نجحوا فى العمل على ازدهار المنطقة التى يسكنونها ليس صحيحا.

فإن ذلك لم يتم إلا بفضل رؤوس الأموال الأمريكية والإنجليزية، والعرب لا يسمحون لليهود بأى توسع آخر فى فلسطين للتوطن فى المستقبل» «وأن حل مشكلة اضطهاد الألمان لليهود، لا يجب أن تكون على حساب العرب، فالظالم عليه أن يدفع الثمن لا العرب الأبرياء».

ولقد كان لمقابلة الملك السعودى للرئيس الأمريكى أثرها، فقد صرح الرئيس الأمريكى بعد المقابلة بقوله : «إن ما عرفته من ابن سعود عن فلسطين فى خمس دقائق أكثر مما كنت أستطيع معرفته بتبادل ثلاثين أو أربعين رسالة».

وقد كانت هناك مكاتبات أخرى بين الرئيس الأمريكى والعاهل السعودى، آخرها فى ١٥ ابريل سنة ١٩٤٥م، أى قبل وفاة الرئيس روزفلت بأسبوع واحد

وقد تعهد الرئيس روزفلت فى رسائله للعاهل السعودى بأنه لن يقدم على أمر فيما يتعلق بقضية فلسطين يغضب العرب، ويفقد الولايات المتحدة الأمريكية صداقتهم.

إن هذه الوعود التى أعطيت للعرب لم توضع موضع التنفيذ، وكانت قوة الصهاينة الأمريكيين وتأثيرهم على مجريات الأمور فى الولايات المتحدة الأمريكية، وفي رسم سياسة أمريكا الخارجية - أقوى من وعود رؤساء الولايات المتحدة للزعماء العرب.

هذا، وقد حرص رئيس الوزراء البريطانى المستر ونستون تشرشل من جانبه على أن يجتمع هو الآخر بالعاهل السعودى، لمعرفة رأيه فى القضية الفلسطينية.

وقد تم ها اللقاء فى ١٧ فبرايره١٩٤٤م في أوبرج الفيوم فى مصر، ولعل مذكرات اللورد كيلفرن - التى أشرنا إليها من قبل - توضح ما تم فى هذا اللقاء.

فقد شرح العاهل السعودى لرئيس الوزراء البريطانى ما دار من حديث مع الرئيس الأمريكى عن قضية فلسطين، وشرح موقف العرب الواضح من هذه القضية، ووضح أن العرب يريدون صداقة بريطانيا، ولكن لا شىء يستطيع تمزيق هذه الصداقة والإضرار بها أكثر من وقوع أعمال اضطهاد للعرب فى فلسطين، والإضرار بحقوق المسلمين. وأشار العاهل السعودى إلى أن اليهود أصبحوا فى فلسطين خطرا على الإسلام وعلى الصداقة العربية الإنجليزية أيضا. وأشار العاهل السعودى «إلى أنه ليس من المفهوم أو المعقول أن يقتل النازيون اليهود ويطردوهم ثم يعاقب العرب على هذا؟!».

إرهاب العصابات الصهيونية :

هذا، ونشير إلى أن الجماعات اليهودية المتطرفة كانت قد أخذت تثبت أقدامها فى فلسطين، وتمارس فيها عملياتها الإرهابية ضد العرب، بل ضد الإنجليز أيضا!.

نذكر من هذه المنظمات اليهودية المتطرفة منظمة (أرجون) و(اشترن) ومجموعة (الهجاناه، وقد تعددت أعمال هذه الجماعات الإرهابية فى فلسطين.

وعندما تكونت جامعة الدول العربية فى مارس ١٩٤٥م، واشتركت فيها سبع دول عربية مستقلة فى ذلك الوقت هى : مصر، والمملكة العربية السعودية،

والعراق، والجمهورية السورية، وشرق الأردن، ولبنان، واليمن - طالب الملك ابن سعود أن يكون لفلسطين صوت فى الجامعة، وبناء على ذلك وضع ملحق بميثاق الجامعة خاص بفلسطين، يضفى عليها صفة الدولة الشرعية، ويعطى للفلسطينيين حق الاشتراك رسميا فى الجامعة ولجانها ومؤتمراتها، ومختلف أوجه نشاطها، أسوة بالدول العربية الأخرى المستقلة.

موقف الجامعة العربية :

ويُلزم هذا من يتولى مجلس الجامعة باختيار مندوب عربى من فلسطين للاشتراك فى أعماله، وبذا أصبحت الجامعة العربية مسؤولة عن قضية فلسطين، وبذا لم يعد عرب فلسطين يناضلون وحدهم ضد الغزو الصهيونى لأراضيهم، بل أصبح على الجامعة العربية ودولها التزام بمساندة عرب فلسطين فى نضالهم، وهكذا أصبحت المشكلة الفلسطينية مسئولة الأمة العربية كلها.

ومنذ عام ١٩٤٥م شاركت الجامعة العربية فى مختلف ما ارتبط بالقضية الفلسطينية من نشاطات، فساند رأى الجامعة العربية فى لجنة التحقيق الإنجليزية الأمريكية، ولجنة التحقيق الدولية التى انبثقت عن الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٦م، وشاركت فى مؤتمر لندن الذى عقد فى هذا العام أيضا.

الفصل الرابع

لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية

وموقف الدولتين منها

ألقت الولايات المتحدة الأمريكية بثقلها فى القضية الفلسطينية، ففى ٣١ أغسطس ١٩٤٥م وَجه الرئيس ترومان – الذى خلف الرئيس روزفلت – خطابا إلى كليمنت إتلى، الذى كان قد تولى رئاسة الوزارة البريطانية، يطلب فيه السماح لمائة ألف لاجىء يهودى، من الذين عانوا الاضطهاد على يد النازيين وغيرهم، بدخول فلسطين.

فرأت بريطانيا أن تحمل الولايات المتحدة الأمريكية جزءا من المسؤولية، فاقترحت تشكيل لجنة تحقيق من الدولتين تقوم بزيارة معسكرات اللاجئين اليهود فى ألمانيا والنمسا وغيرها، ثم تقوم بجولة فى فلسطين، وبعدها يمكن وضع مقترحاتها.

لجنة التحقيق الأمريكية البريطانية :

وقدمت اللجنة تقريرها فعلا للدولتين في أبريل ١٩٤٦م، وكانت مقترحاتها تتلخص فى :

١- ضرورة بقاء الانتداب البريطانى على فلسطين، حتى تتم هيئة الأمم المتحدة بحث الوضع فيها.

٢- السماح بإدخال ١٠٠,٠٠٠ لاجئ يهودى من ضحايا النازية إلى فلسطين.

٣- إلغاء القيود على انتقال ملكية أراضى العرب إلي اليهود.

وبعد دراسة الحكومتين لهذه المقترحات، وضعت لجنة مشتركة - عرفت بلجنة جرادى موريسون - مشروعا يقضى :

١- بقيام دولة اتحادية بين اليهود والعرب معا.

٢- تتم هجرة اليهود بموافقة اليهود والعرب معا.

وقد قوبل هذا المشروع الجديد باستياء شديد من الحركة الصهيونية، التى دعت لعقد مؤتمر صهيونى عالمى فى بازل لبحث الموقف فى فلسطين، وموقف إنجلترا وأمريكا منه.

هذا، وأشير إلى أن العاهل السعودى تابع اتصالاته بالمسؤولين الأمريكيين، فى محاولة لكسب أمريكا إلى جانب الحق العربى، بعد أن أصبح لها ثقل دولى بعد الحرب الثانية، وأصبح اليهود يعتمدون عليها أكثر من بريطانيا لتحقيق أطماعهم.

ولذا تعددت المراسلات بين العاهل السعودى والرئيس الأمريكى ترومان، خاصة بعد أن تلقى الملك ابن سعود من الحكومة الأمريكية تقرير اللجنة البريطانية الأمريكية. وقد تصدى العاهل السعودى فى خطاباته لمناقشة قرارات اللجنة، مثبتا أنها لا تقوم على أساس سليم، ولا يمكن أن تسهم فى حل القضية الفلسطينية.

معارضة العرب لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين :

وقد اتخذ ملوك العرب ورؤساؤهم قرارات متتالية بمساندة حق عرب فلسطين، وكان لممثلى مصر والسعودية دور حاسم فى المناقشات التى جرت فى مؤتمر أنشاص بمصر فى مارس ١٩٤٦م، وفى مؤتمر بلودان الذى عقدته الجامعة العربية فى يونية ١٩٤٦م، وقد أصر فيه المجتمعون على معارضة إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين، وعلى معارضة استمرار هجرة اليهود إليها، وانتقال

الأراضى من يد العرب إلى يد اليهود، وطالبوا بإلغاء الانتداب البريطانى، وجعل فلسطين دولة عربية مستقلة.

الأمم المتحدة وقضية فلسطين وموقف الدول العربية في المنظمة الدولية :

قررت الحكومة البريطانية إزاء تأزم الموقف، وعدم الوصول إلى حل حاسم إحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة. وقد طالبت بريطانيا فى ٢ أبريل سنة ١٩٤٧م بعقد دورة خاصة للجمعية العامة للنظر فى هذه المسألة.

وقد قررت الجمعية العامة تأليف لجنة خاصة تابعة للأمم المتحدة لبحث مشكلة فلسطين، وكانت اللجنة تتألف من ١١ دولة برئاسة عضو سويدى.

توصيات اللجنة المشكلة من الأمم المتحدة :

وزارت اللجنة فلسطين، وقدمت بعد ذلك تقريرها إلى الجمعية العامة. وقد اشتمل التقرير على توصيات عامة وافق عليها جميع أعضاء اللجنة، وتتلخص فى :

١- ضرورة إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين.

٢- منح فلسطين الاستقلال، على أن تسبقه مرحلة انتقالية قصيرة تكون السلطة فى أثنائها مسؤولة أمام منظمة الأمم المتحدة.

٣- المحافظة على الوحدة الاقتصادية فى فلسطين باعتبار ذلك ضروريا لحياة البلاد وسكانها، لكن حدث خلاف بين أعضاء اللجنة بخصوص تقسيم فلسطين. فقد اقترح فريق تقسيم فلسطين إلى دولتين كالتالى

دولة عربية تتألف من الجليل الغربى، ومنطقة نابلس الجبلية، والسهل الساحلى الممتد من إسدود فى الجنوب إلى الحدود المصرية، وتدخل ضمن هذا الجزء منطقة الجليل، وجبل القدس وغور الأردن

دولة يهودية : تتألف من الجليل الشرقى، ومرج ابن عامر، والقسم الأكبر من السهل الساحلى، ومنطقة بئر السبع التى تضم النقب.

على أن تصبح الدولتان مستقلتين بعد مرحلة انتقال، قدرت لها سنتان ابتداء من سبتمبر ١٩٤٧م، على أن يقوم اتحاد اقتصادى بين الدولتين.

أما منطقة القدس : فتوضع تحت نظام الوصاية الدولية، على أن تدخل ضمن الاتحاد الاقتصادى.

واقترح فريق آخر أن تقوم فى فلسطين حكومتان مستقلتان استقلالا ذاتيا تتألف منهما دولة اتحادية مستقلة عاصمتها القدس. وقد ساند هذا المشروع كل من مندوبى الهند وإيران ويوغسلافيا

وقد كان لمندوب المملكة العربية السعودية ومندوب مصر فى الجمعية العامة نشاط بارز فى محاولة لكسب أصوات جمهوريات أمريكا الجنوبية بالذات للجانب العربى.

قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة :

ولكن فى ٢٦ نوفمبر ١٩٤٧م قررت الجمعية العامة ما يلى :

١- الموافقة على قرار اللجنة التى اقترحت تقسيم فلسطين.

٢- الموافقة على قرار بريطانيا بإنهاء الانتداب على فلسطين فى أول أغسطس سنة ١٩٤٨م.

٣- توفد هيئة الأمم المتحدة لجنة لتنفيذ التقسيم.

وقد وافقت على هذا القرار ٣٣ دولة، ورفضته ١٣ دولة هى : مصر، والمملكة العربية السعودية، والعراق، ولبنان، وسوريا، واليمن، كذلك أفغانستان، وكوبا، واليونان، والهند، وإيران، وباكستان، وتركيا - وامتنعت عن التصويت عشر دول.

وقد جاء قرار التقسيم هذا مخيبا لآمال العرب، واعتبروه خيانة من الدول الكبرى التى أيدته.

ورأت المملكة العربية السعودية فيه نكثا لوعود الرئيس روزفلت بالذات، الذى صرح أكثر من مرة فى خطاباته للملك عبد اعزيز بأن أى حل للمسألة الفلسطينية لن يتم إلا بعد أخذ رأى العرب واليهود معا.

هذا، وقد حددت بريطانيا ١٥ مايو عام ١٩٤٨م موعدا لإنهاء انتدابها على فلسطين، وفى اليوم نفسه أعلن المجلس القومى اليهودى المنعقد فى تل أبيب قيام دولة إسرائيل. وبعد ذلك بساعات أعلن ترومان رئيس الولايات المتحدة اعتراف دولته بدولة إسرائيل.

موقف العرب:

وفيما يتعلق بالعرب كان مجلس جامعة الدول العربية المنعقد فى بيروت فى اكتوبر ١٩٤٧م، قد بحث الموقف فى فلسطين من الناحية العسكرية.

١- وقد أوصى المجلس بالإسراع بتقديم المعونة المادية والمعنوية إلي العرب فى فلسطين.

٢- كما قرر أن ترصد دول الجامعة من فورها الأموال اللازمة لذلك.

٣- كذلك تقرر تأليف لجنة فنية عسكرية لتهيئة وسائل الدفاع وتنظيمها، وتدريب الفلسطينيين.

٤- كما تقرر حشد فرق من الجيوش المصرية والسورية واللبنانية والعراقية على حدود فلسطين.

وقد اتخذت اللجنة الفنية العسكرية (دمشق) مركزا رئيسيا لها، وبدأت حركة واسعة النطاق للتطوع فى البلاد العربية.

وبمجرد إعلان المجلس القومى اليهودى قيام دولة إسرائيل دخلت الجيوش العربية فلسطين. وكان من الواضح أن كفة العرب هى الراجحة.

حرب ١٩٤٨م :

كانت الجيوش العربية التى خاضت حرب١٩٤٨م تتألف من الفيلق العربى، والقوات العراقية التى كان عليها أن تعبر صحراء سوريا لتصل إلي فلسطين. وكانت القوات النظامية السورية واللبنانية تؤيدها قوات المتطوعين، التى أطلق عليها « جيش التحرير العربى» بقيادة فوزى القاوقجى.

وكان عرب فلسطين تحت قيادة عبد القادر الحسينى ابن أخى المفتى، ولم يستطع العاهل السعودى أن يقود جيشه الذى كان قد أعده لدخول فلسطين، لأن بين السعودية وفلسطين تقع المملكة الأردنية الهاشمية، فاكتفى بارسال قوة نظامية من ألف ومائتى جندى سافرت عن طريق مصر.

وكانت القوة الرئيسية للجيش اليهودى من قوة الهاجاناه، وكانت القيادة الإسرائيلية تحت إمرة باسكوف دورى والكولونيل يجال يادين.

انتصار العرب فى المرحلة الأولى للقتال :

وفى المرحلة الأولي للقتال استطاعت القوات العربية أن تنزل هزائم متعددة باليهود، وأحدثت الغارات الجوية المصرية والسورية على تل أبيب والمستوطنات اليهودية كثيرا من الدمار، وأصبحت القوات المصرية على بعد أميال معدودة من تل أبيب ذاتها، بينما كانت القوات العربية الأخرى تحرز تقدما ملموسا، لكن لم تلبث الدول الكبرى أن تدخلت لإنقاذ اليهود، فقد أصدر مجلس الأمن قرارا بوقف الحرب.

الهدنة الأولى :

ودامت هذه الهدنة الأولى أربعة أسابيع - من ١١ يونية إلى ٩ يوليو ١٩٤٨م - تمكن اليهود فى أثنائها من إعادة تنظيم صفوفهم، وتعزيز تحصيناتهم، واستكمال تسليحهم.

وعندما استؤنفت المعارك فى ٩ يوليو ١٩٤٨م، ظهر أثر التعزيزات الجديدة، كما أن جلوب باشا قائد الفيلق العربى تدخل ليصدر الملك عبد الله قائد الجيوش العربية فى فلسطين أوامره إلى الكتائب الأردنية والعراقية بالانسحاب من اللد، والرملة، ورأس العين، ومرج ابن عامر، والجليل الغربى، مما ترتب عليه أن أصبح موقف الجيش المصرى على وجه الخصوص حرجا.

الهدنة الثانية :

واتخذ مجلس الأمن فى ١٥ يوليو ١٩٤٨م قرارا بوقف القتال، واستمرت هذه الهدنة الثانية من ١٨ يوليو إلى ١٤ اكتوبر ١٩٤٨م.

واستؤنف القتال مرة ثالثة، واستطاعت القوات المصرية أن توقع الهزيمة باليهود فى دير البلح فى ٢٥ ديسمبر ١٩٤٨م، واضطرت مصر أخيرا للدخول فى مفاوضات مع اليهود لعقد هدنة دائمة.

وجرت المفاوضات فى جزيرة رودس بإشراف رالف باش الوسيط الدولى، وعقدت الهدنة التى عرفت «باتفاقية رودس» فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩م. وقد قام اليهود بتأسيس دولة إسرائيل فى الأراضى التى كانوا قد سيطروا عليها، بينما وضعت الأردن يدها على الضفة الغربية لنهر الأردن، التى كانت قد احتلتها جيوشها منذ ديسمبر ١٩٤٨م، أما مصر فقد أصبحت تدير قطاع غزة.

وتطورت الأحداث بعد ذلك، فقد أجبرت القوات اليهودية العرب على ترك بلادهم، فأصبحوا لاجئين فى البلاد العربية المجاورة.

الكونت برنادرت بقرر عددة اللاجئين :

وفى ١٨ سبتمبر ١٩٤٨م قدم الوسيط الدولى -الكونت برنادوت- للجمعية العامة طلبا يدعو فيه إلى عودة جميع اللاجئين الفلسطين إلى بلادهم، وبناء على ذلك أصدرت الأمم المتحدة قرارا بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٤٨م، وقرارا ثانيا فى ١٩ ديسمبر ١٩٤٨م وثالث فى ٢٨ ديسمبر١٩٤٨م، وذلك بخصوص عودة اللاجئين الفلسطيين إلى بلادهم وإنشاء وكالة لإغاثتهم.

ولم تتقيد إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة ولم تنفذها . هذا، وأشير إلى أن أحداث فلسطين هذه كان لها صداها فى العالم العربى كله.

ولم تُنه فى الحقيقة حرب ١٩٤٨م الوضع بين العرب وإسرائيل، بل لم تكن نهاية الحروب بينهم، بل تتالت الأحداث فيما بعد، وترتب عليها عدة حروب.

ومازالت المشكلة الفلسطينية تؤرق العالم العربى، بل ومازال اليهود أنفسهم يشعرون بأن الوضع غير مستقر، وما كسبوه بالقوة والبطش لم ينجح فى أن يخلق لهم دولة مستقرة آمنة.

الفصل الخامس

مأساة البوسنة والهرسك ..[1]

وحرب التطهير العرقى

تتكون جمهورية البوسنة والهرسك بجانب جمهوريات صربيا -كرواتيا- سلوفينيا -مقدونيا- الجبل الأسود ما يسمى بالاتحاد اليوغسلافى أو يوغوسلافيا ويحد يوغسلافيا من الشمال المجر والنمسا ومن الشرق رومانيا ومن الجنوب اليونان والبانيا ومن الغرب البحر الأدرياتى.

تقع جمهورية البوسنة والهرسك فى منتصف يوغسلافيا فيحدها من الشمال والغرب كرواتيا ومن الشرق الصرب ومن الجنوب الجبل الأسود.

فتحت البوسنة والهرسك على يد الخليفة المسلم محمد الفاتح وأقبل الأهالى من السلاف على الإسلام وظلت كذلك حتى مطلع هذا القرن حيث زحف الصرب على الجمهورية المسلمة واحتلوها. والجدير بالذكر أن عاصمة البوسنة والهرسك كانت تسمى «سراى بوسنة» وقام الصرب بتحويل اسمها إلى سراى إيفو بوسنة إلى أحد قواد الصرب.

عُرف الصرب (الأرثوذكس) بعدائهم الشديد للإسلام والمسلمين فبدأوا يمعنون فى أساليبهم الوحشية ضد المسلمين :

١- فى أعقاب الحرب العالمية الأولى قام الصرب بعمل مذابح جماعية لمسلمى البوسنة وقاموا بحرق ٢٧٠ قرية مسلمة وقتل الآلاف المؤلفة نساء وشيوخا وأطفالا الأمر الذي أدى لهروب ٣٠٠ ألف مسلم من البوسنة فرارا من الموت.

---

(١) كتاب لجنة الإغاثة الإنسانية

٢- في عام ١٩٤١م قام الصرب بذبح ٦٠و٠٠٠ (ستين ألف) مسلم وألقوا بهم فى نهر الفوجا وتحول النهر إلى نهر من الدماء.

٣- عقب الحرب العالمية الثانية قامت حرب بين الصرب (الأرثوذكس) والكروات (الكاثوليك) فى الفترة من ١٩٤١: ١٩٤٥ وانتهت بتقسيم البوسنة والهرسك فيما بينهما.

٤- عندما انفرط عقد الاتحاد اليوغسلافى بعد التحولات فى أوروبا الشرقية أخذت بعض الجمهوريات اليوغسلافية تطالب بالاستقلال والانفصال وكان من بين هذه الجمهوريات سلوفينيا - كرواتيا- البوسنة والهرسك - مقدونيا. ولكن هذا الأمر لم يكن ليرضى الصرب الذين يطمعون فى وراثة الاتحاد اليوغسلافى يؤيدهم فى ذلك سيطرتهم القوية على الجيش الاتحادى اليوغسلافى وتأييد جمهورية الجبل الأسود وانضمامها لهم.

٥- بدأ الصرب الهجوم على الكروات (الكاثوليك) وعند هذا قامت الدنيا ولم تقعد وقام بابا روما بشجب الهجوم الصربى على كرواتيا وذهب إلى المجر (التى تبعد ٣٠كم عن كرواتيا) لوقف الحرب وأرسلت الأمم المتحدة المبعوثين والمعونات وقوات لحفظ السلام بلغت ١٤ر٠٠٠ جندى حتى تم وقف إطلاق النار.

٦- قام الجيش الصربى بإبادة مسلمى البوسنة والهرسك بعد أن استقلت وحصلت على موافقة العالم حيث يواجه المسلمون رابع جيش فى أوروبا (الجيش الاتحادى) من حيث القوة وكذلك المليشيات الصربية المسلمة فى الداخل، فأصبح المسلمون الآن بين شقى الرحى وكانت الطامة الكبرى باتفاق الصرب والكروات على تقسيم أراضى البوسنة والهرسك فيما بينهما كما حدث من قبل.

اشتدت المعارك حتى شملت معظم اتحاد الجمهورية المسلمة وقد استولى

الصربيون على مدينتين فى شمال شرقى البوسنة هما بيلينا وزورنيك، وكذلك مدينة مودريشا فى الشمال وكذلك مولستار وفوتشا وغورادزه وبوسانسكى وكوبرس.

المعارك بصورة وحشية فى العاصمة سراييفو حيث تقصف العاصمة يوميا بالمدافع الثقيلة والهاون. وتقوم الميليشات بعمل المجازر والمذابح التى تشيب لها الولدان.

كيف دخل الإسلام البلقان

نشأت الدولة العثمانية نشأة إسلامية خالصة مشبوبة بإيمان عميق متوجهة إلى أهداف عقائدية صريحة، وكانت أحلى عبارة على ألسنة العثمانيين (نسبة إلى جدهم عثمان) عند التنادى على الجهاد «إما غاز وإما شهيد» وقد أطلق على زعيمها لقب الغازى أى المجاهد فى سبيل الله.

وقد أسس «عثمان بن أدرخان» جيشا خاصا تربى أفراده منذ الصغر تربية دينية خالصة ودربوا تدريبا عسكريا راقيا سمى هذا الجيش المكرس للجهاد الـ «ينى شاريه» وتعنى العسكر الجديد حرفت إلى «الانكشارية» وجرى تشويه صورتهم فى كتب التاريخ.

اجتاز العثمانيون البحر عام ١٤٣٥م بعد أن عبروا مضيق البسفور واستولوا على شبه جزيرة غاليبولى ثم قصدوا أوروبا ففتحوا مدينة «أدرنة» عام ١٣٦١م بقيادة مراد بن أردخان وجعلوها عاصمة للدولة الإسلامية القوية فى أوروبا.

دعا البابا إلى حرب صليبية عامة ضمنها دول البلقان ونصارى الغرب فانتصر عليهم مراد الأول وفتح صوفيا ونيس ومقدونيا وسالونيك باليونان.

تكون حلف من الصرب والبوشناق والبلغار والمجريين والألبان للقيام بحملة ضد الدولة المسلمة الناهضة وتصدى لهم «بايزيد» أو الصاعقة - الذى خلف مراد الأول - وهزمهم وتم أسر ملك الصرب، وانضمت بذلك الأراضى الصربية إلى الدولة العثمانية وكان آخر هذه الأراضى مدينة بلغراد سنة ١٤٥٢م.

جمع «سيجموند» ملك المجر جيشا من الفرسان الذين تطوعوا من أوروبا الغربية والمورة بالإضافة إلى كل دول البلقان لكن بايزيد هزم جمعهم وطاردهم حتى النمسا.

فتح القسطنطينية :

قام السلطان محمد الفاتح عام ١٤٥٢م بفتح القسطنطينية وانهى العثمانيون بذلك وإلى الأبد الامبراطورية البيزنطية العدو الرئيسى والتقليدى للمسلمين على مدى ثمانية قرون وأصبحت «إسلامبول» أى مدينة الإسلام - الاسم الجديد للقسطنطينية - عاصمة الدولة الإسلامية العالمية منذ فتحها وحتى ١٣ اكتوبر سنة ١٩٢٣ عندما حول مسيلمة الجديد أو «أتاتورك» العاصمة إلى أنقرة.

واصل محمد الفاتح جهاده فهزم الصرب وضمها للدولة الإسلامية وواجه حلفا من البندقية والألبان فدمرهم وضم البانيا للدولة العثمانية عام ١٤٦٨ وتوغل فى البلاد التابعة للبندقية على ساحل بحر الأدرياتيك واستولى على مدينة «تارنتو» الايطالية عام ١٤٨٠ بعد أن سيطر على المضايق التى تفصل ايطاليا عن البلقان وأصبح المسلمون سادة البحر المتوسط ومضايقه.

توالت الفتوحات العثمانية فتم فتح الهرسك عام ١٤٨١م ثم معظم كرواتيا ثم وصل العثمانيون إلى سلوفينيا غير أنهم لم يفتحوها.

أخذت الدولة العثمانية تتقهقر وتتوالى عليها الهزائم فاحتل النمساويين كرواتيا فى أوائل القرن السابع عشر.

ثم ثار سكان الجبل الأسود سنة ١٦٩٧ واستقلوا بأنفسهم إلا أن العثمانيين استعادوها سنة ١٧٣٨.

اضطر العثمانيون عند ضعفهم إلى التخلى عن بلاد البشناق والهرسك للنمسا والمجر وفى سنة ١٩١٢ سيطرت دولتا الصرب والجبل الأسود على أجزاء البانية كبيرة، وبذلك يكون الحكم العثمانى ظل فى :

كرواتيا ونويفودنا ٤٠ سنة.

صربيا ٣٨٠ سنة

البشناق والهرسك ٤١٥ سنة.

الجبل الأسود ٤٢٠سنة.

كوسوفو ٤٣٠سنة.

مقدونيا ٥٤٧ سنة.

هاجر كثير من المسلمين إلى الأناضول وبعض البلاد الإسلامية هربا من التشريد والاضطهاد ومحاولات التنصير تحت نير الحكم النمساوى المجرى.

ثار المسلمون فى عام ١٩٠٠ ونجحوا فى الحصول على الحكم الذاتى فى الأمور الدينية سنة ١٩٠٠، وبعد هزيمة النمسا فى الحرب العالمية الأولى تأسست الدولة اليوغسلافية بعد جلاء الاستعمار النمساوى.

إلا أن الأرثوذكس غدروا بالمسلمين وصادروا جميع أراضيهم سنة ١٩١٨، وأعطوها للفلاحين الأرثوذكس.

كما قضى الأرثوذكس على المدارس والكتاتيب والمساجد كلها الواحد تلو الآخر، وبنى على أنقاضها المسارح واسطبلات الخيول

مع مطلع العد الثانى من هذا القرن استقرت أوضاع المسلمين وتضاءلت هجرتهم وخف الاضطهاد.

سمح فى هذه الأثناء بتأسيس الحزب الإسلامى اليوغسلافى بزعامة الدكتور محمد سباهو الذى تأس عدة حكومات يوغسلافية بين الحزبين.

مع الحرب العالمية الثانية عاد الاضطهاد للمسلمين فكانت المذابح التى ساهم فيها الأرثوكس والكاثوليك فقتل ٢٥٥ ألفا من المسلمين.

الحركة الإسلامية فى يوغسلافيا

قبيل الحرب العالمية الثانية وأثنائها اشتهرت حركة الشبان المسلمين وهى حركة خيرية إنسانية دينتية.

أسسها : الشيخ الأستاذ محمد خانجيج والشيخ قاسم دوبراجا.. اللذان درسا فى كلية الشريعة بالأزهر الشريف فتأثر بحركة الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله .. ونقلا تلك الفكرة إلى الشبان المسلمين فى البوسنة، فانتشرت الحركة فى جميع أنحاء الولاية وكان لها دور كبير فى توعية وتعليم المسلمين .

كما قامت بجهود كبيرة أثناء الحرب فى إيواء المهاجرين ومساعدة الفقراء. وكفالة الأيتام وكان من أبرز أعضاء الحركة الأستاذ أشرف تسارمبارا، والأستاذ على عزت بفوفيتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك بعد ذلك. بعد الحرب العالمية الثانية استولى الحزب الشيوعى بقيادة تيتو على مقاليد الحكم.

نصبت المحاكم العسكرية للعلماء البارزين من المسلمين وأعضاء الجمعيات الإسلامية وخاصة أعضاء حركة الشبان المسلمين والتى مُنع وحُبس جميع أعضائها وأعدم عدد من أبرز القيادات فيها.

حكم على الأستاذ على عزت بالسجن لمدة ١٥ سنة مع الأعمال الشاقة.

منع التعليم الدينى فى البيوت والمساجد وكان يعاقب كل من يضبط فى حلقة تعليم دينى.

هدمت بعض المساجد وصودرت جميع الأوقاف الإسلامية.

بعد أن استقر الحكم للشيوعيين خفت وطأة الاضطهاد وسمح بفتح بعض المدارس وبدأ المسلمون ببناء المساجد الجديدة خاصة فى القرى

ونشطت حركة ترجمة وتأليف ونشر الكتب الإسلامية التى أقبل عليها الشباب، وكان ذلك تحت إشراف غير مباشر من بقية أعضاء حركة الشبان المسلمين الذين خرجوا من السجون مما أدى إلى اعتقال الحكومة لهذه المجموعة مرة أخرى بتهمة محاولة قلب النظام وكان منهم الأستاذ/ علي عزت حيث سجن مرة أخرى وذلك سنة ١٩٨١.

ويعتبر فى يوغسلافيا ثلاث قوميات: الصرب والكروات والمسلمين، وبين العرب والكروات عداوات قديمة بسبب العقائد الدينية فى الكروات «كاثوليك» والصرب هم المسيطرون على مقاليد البلاد والمستفيد الأكبر من الحزب الشيوعى ٨٠٪ من ضباط الجيش من الصرب وكذلك أكثر من ٨٠٪ منهم فى السلك الدبلوماسى وهكذا الحال فى جميع المؤسسات التعليمية والحكومية

فتح الحزب الشيوعى المصانع الثقيلة الملوثة للبيئة فى مناطق المسلمين.

قام الحزب الشيوعى بتهجير مجموعات من الصرب فى أماكن المسلمين حتى أن «سراييفو» عاصمة البوسنة تم تهجير ١٥٠ ألف صربى إليها

قام الصربيون المتعصبون بتصفية الحزب الشيوعى من غير الصرب وبإفلاس الشيوعية وسقوطها أصبح الحزب الشيوعى غير قادر على ضبط الأمور.

لذلك أخذ الحزب الشيوعى فى إفساح الطريق للحريات وأجرى أول انتخابات حرة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.

استطاع المسلون تكوين جبهة باسم حركة الجبهة الديمقراطية.

بعد إجراء الانتخابات ضاعت فرصة المسلمين فى الحصول على أغلبية نظرا لإحجام بعض القرويين عن التصويت لصالح الحزب الإسلامى وتشكيل حكومة ائتلافية واختير الأستاذ/ على عزت بفوفيتش رئيس حزب المسلمين رئيسا للبلاد.

الجمهوريات اليوغسلافية قد طالبت بالاستقلال والانفصال.

لم يكن هذا الموقف ليرضى عنه الصرب فبدأوا بالهجوم على الكروات الكاثوليك.

عندها احتج بابا الفاتيكان وذهب إلى المجر وأعلن رغبته فى زيارة كرواتيا.

أما الأمم المتحدة فقد أرسلت بمبعوثها ومعوناتها كما بعثت بقوات حفظ السلام الذين بلغ عددهم أربعة عشر ألف جندى واستمر القتال لمدة أشهر.

قاتل المسلمين بجانب الكروات مما جعل وزير خارجية كرواتيا يعلن أن كرواتيا لن تتخلى عن المسلمين.

جاء بعد ذلك الدور على المسلمين فأخذ الجيش الاتحادى يوجه ضرباته القاسية للمسلمين بل وبدأ فى تسليح الصرب الموجودين فى البوسنة والهرسك مما صعب من أسلوب المواجهة.

أعلن بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة عن سحب قوات حفظ السلام من يوغسلافيا.

فى الوقت نفسه لم تتحرك جامعة الدول العربية أو منظمة المؤتمر الإسلامى أو غيرهما لإنقاذ المسلمين فى البوسنة والهرسك من إبادتهم.

الفصل السادس

كيف يذبح الصرب المسلمين

برلمان صربيا يشرع الذبح ؟

يقول الدكتور سليمان أوغليانين : إن البرنامج القومى الصربى الذى تم إعلانه عام ١٨٤٤مَ، تجدد مؤخرا فى برلمان صربيا، حيث صدر مرسوم يدعو إلى تطهير سنجاق والبوسنة والهرسك وكوسوفو من المسلمين والكاثوليك. ولذلك فإن الإدعاء بأن المعارك التى تدور فى البوسة والهرسك، هى معارك بين طوائف متطرفة إدعاء غير صحيح، لأن الهجمات الصربية الوحشية تجد سندا قانونيا يدفعها من الهيئة التشريعية لصربيا.

وتدرس فى المدارس الصربية الابتدائية ملحمة شعرية باسم «إكليل الجبل» كتبها أرثوذكسى متعصب تقول : «سلك المسلمون طريق الشيطان، دنسوا الأرض، ملأوها رجسا، فلتعد للأرض خصوبتها، ولنطهرها من تلك الأوساخ، ولنبصق على القرآن، وليطير رأس كل من يؤمن بدين الكلاب ويتبع محمدا، فليذهب غير مأسوف عليه» !

وكل من يرتكب المذابح الآن، درس تلك الملحمة وهو طفل، وتم إشباعه بمنطق الذبح وهو شاب من خلال قساوسة الكنائس الصربية، فقد ألقوا فى روعهم أن الذبح فرض إلهى وفاء للذين عذبهم الأتراك والعثمانيين، وانتقاما لهم.

وقد مضت قيادة صربيا فى زرع هذا الحقد، لدرجة أنها أحيت مؤخرا ذكرى هزيمتها فى كوسوفو على يد الأتراك والعثمانيين، ودعت سفراء الدول المعتمدين فى بلجراد لحضور هذه المناسبة، فلم يحضر إلا السفير التركى واندهش الجميع أن تحتفل دولة بذكرى هزيمتها التى مضى عليها ٦٦٠عاما،

ولكن من كان يعرف لم يبد هذه الدهشة، فالاحتفال لم يكن إلا رسالة موجهة للصرب!

حتى كرواتيا عندما استقلت عن يوغسلافيا، أعطت جنسيتها للكاثوليك المقيمين فيها، أما سكانها من المسلمين الذين يحملون الجنسية اليوغسلافية فاعتبرتهم أتراكا أجانب، ولم توافق على إعطائهم الجنسية إلا أن يقروا بأنهم كروات، وكروات تعنى عندهم الديانة الكاثوليكية!

فتوى تبيح عرض المسلمات!

وفى كل منطقة يسيطر عليها الميليشيات الصربية، يقام معسكر للسبايا المسلمات اللائى لم يستطعن الهرب، وقد أصدرت كنائس الصرب، فتوى تبيح هؤلاء النساء لكل من يدين بالديانة المسيحية الأرثوذكسية، وأرسلوا بعض هؤلاء النسوة إلى مناطق المسلمين، وهن يعانين من الأفعال الوحشية، ومنها تقطيع أثدائهن!

فى مستشفى سلافونسكى برود حكى جورنيه تولييه الذى حضر مذبحة قرية جورنيه، وكان الوحيد الذي نجا منها، بعد إصابته بإصابات بالغة. اسمه أنس بن مالك، وهو زعيم القرية، تحدث بصعوبة قائلا: إنه عندما انطلق العدوان الصربى والمحيطة بمدينة بوسنسكى برود، قامت قوات الدفاع المحلى برد الهجوم ومحاصرة المعتدين حتى منطقتهم، فهرب بعض من فيها إلى قريتنا.

فقمنا باستقبالهم، وأدخلناهم بيوتنا، وألبسناهم ملابس غير ملابسهم، ثم قمنا بتهريبهم إلى منطقة صربية أخرى، اعتقادا منا أنه لا ذنب لهم فى العدوان الصربى الذى انطلق من منطقتهم، وأنهم من الصرب المعتدلين. وكانت المفاجأة فى اليوم التالى، أن هؤلاء الذين انقذناهم كانوا على رأس الميليشيات التى ارتكبت المذبحة، وكان أول بيت يذبحون أصحابه هو البيت الذى استضافهم وتناولوا فيه الطعام وارتدوا الملابس!

سُأل قائد القوات المتحالفة من المسلمين والكروات «إيفين بريست» : ما هى قوات الدفاع المحلى التى تتردد فى حديثكم كثيرا؟ أجاب بأنه لا يوجد جيش رسمى للبوسنة حتى الآن، وأن الذى يتمركز فيها هو جيش يوغسلافيا السابقة الذى يعد رابع جيش من حيث القوة فى أوروبا، ويتشكل هذا الجيش فى معظمه من الصرب.

وعندما بدأ هجوم الصرب بعد إعلان استقلال البوسنة والهرسك، لم يكن هناك من يدافع عنها، فتسلح أبناؤها بما استطاعوا أن يحصلوا عليه من سلاح خفيف، يساعدهم بعض الشرطة من أبناء البوسنة والهرسك المسلمين والكروات، ومثلهم الهاربين من الجيش اليوغسلافى الذين رفضوا أن يقتلوا إخوانهم المسلمين رغم الإغراء.

ومن هؤلاء قمنا بتشكيل قوات الدفاع المدنى، كما أننا نستقبل المتطوعين الجدد من المسلمين أو الكروات ونلحقهم بتدريب سريع يحملون بعده السلاح.

وأضاف أرمين طاهر على كلام قائده : ما ينقصنا هو السلاح، ولذلك نطالب العالم الإسلامى إذا قرر مساعدتنا ألا يبعث لنا بغذاء أو دواء، بل يبعث لنا المالى الذى نشترى به السلاح الذى ندافع به عن أعراضنا وشرفنا. إننا نحارب فى معركة غير متكافئة ضد قوات تملك الدبابات والمدرعات والطائرات والصواريخ ، ونحن لا نملك إلا الأسلحة الخفيفة.

وبسبب تأليف كتاب إسلامى قبض على «على عزت بيجوفتش» رئيس البوسنة والهرسك الحالى، وكاد يتم إعدامه بتهمة قلب نظام الحكم، ثم خفف الحكم إلى السجن ١٤عاما، وكان ذلك عام ١٩٨٣م. كما صدر حكم غيابى على الدكتور الفاتح حسنين وهو أجنبى درس الطب فى جامعة بلجراد، بالسجن ثمانى سنوات بتهمة تعليم الإسلام، وقد استطاع وقتئذ الهرب خارج يوغسلافيا، وعندما تولى على عزت رئاسة البوسنة والهرسك أسقط عنه هذا الحكم الذى صدر من محكمة تقع فى نطاق هذه الجمهورية.

وفى الأربيعينيات وقعت مابح رهيبة كالتى نشهدها اليوم، ففى مدينة فوجا بشرق البوسنة، وهى إحدى نقاط الإشعاع العلمى والثقافى للمسلمين، أحرقوا قرى كاملة بسكانها، وامتلأ نهر فى قرية ميلفينا باكوام من النساء والرجال والأطفال المذبوحين.

كما امتلأ نهر الدرينا بجثث الآلاف من المسلمين، حيث ذحبوا ٦ آلاف علي جسر قوارجده فوق النهر، وعندما وجدوا أن النهر يلفظ الجثث، عمدوا إلى بقر البطون، حتى تغرق فى القاع!

سرايبفوا !! دماء وخطف واغتصاب

فتاة مسلمة تحكى تفاصيل الأعمال الوحشية للصرب:

أكثر من حكاية حكاها الفارون من البوسنة، عن نساء حوامل وضعن فى الطريق نتيجة للتعب والإجهاد، وبعضهن حدث لهن سقوط للحمل وهن فى الشهور الأولى!

وحالات كثيرة من هؤلاء كن يمتن لعدم وجود العناية الطبية والغذائية فى طريق وعر وطويل وملىء بالأخطار

ويبدو أن التاريخ يكرر نفسه، ففي المذابح الشهيرة التى ارتكبتها العصابات الصربية « الشتنك» عام ١٩٤٢م حدث نفس الشىء. ولكن ماذا عن الحوامل اللائى وقعن فى الأيدى الصربية ؟

أجابت الفتاة المسلمة «ساد» التى ترقد فى مستشفى «سلافونسكى برود» فى حالة صحية ومعنوية تعيسة، عن هذا السؤال من واقع تجربة عملية عاشت فصولها الحزينة، ثم استطاعت الهروب منها فى النهاية، وإن لم تهرب من أثارها؛

لقد تمكنت المليشيات الصربية من اعتقال «ساد» وتم إيداعها معسكر السبايا بالمنطقة التى يسكنها الصرب ويسيطرون عليها على أطراف مدينة «بوسنسكى برود»، وهناك رأت الأهوال.

هتكوا عرضها وعرض العشرات غيرها، وكانوا يعرونهن من ملابسهن، ويخضعوهن للتعذيب الجسدى والوحشى.. وكانوا يختارون بعضا منهن ويقومون بتقطيع أثدائهن!

أغلقت «ساد» عينيها لتهرب من تذكر هذه الأهوال والأعمال القذرة «كنت أرى الحوامل وقد وقفن صفوفا دون أن يستر أجسادهن شىء، ويبدأوا فى بقر بطونهن والتمثيل بالأجنة، كنت أسمع صرخات من لم يأتها الدور بعد، بعضهن «يستعطفن ويسترحمن، ولكن هؤلاء أناس نزعت عن قلوبهم الرحمة».

تغلق «ساد» عينيها مرة أخرى وتنتحب فى بكاء متواصل، وترجون مديرة المستشفى الكف عن الحديث معها، فحالتها سيئة وتكرار الحديث فيما جرى لها يزيد حالتها سوءا».

لا أدرى كيف غافلت الحراس وهربت، حتى وصلت إلى مدينة «بوسنسكى برود»، وهناك أخذنى رجال الدفاع المدنى للمسلمين والكروات، وأنا فى هذه الحالة السيئة، وجاءوا بى إلى المستشفى».[١]

---

(١) إن مثل هذه القصص المشينة تلحق العار بالمسلمين المتخاذلين الذين يكتفون بسماع أخبار هذه المذابح ولا يحركون ساكنا سوى مصمصة الشفاة، من لنا بمثل صلاح الدين ونور الدين محمود ومحمود سكتكين حتى يفيق حكام المسلمين قبل أن يأتى الدور على الجميع اللهم إنى بلغت اللهم فاشهد.

قصة «مديحة هزانوتشى

دموع «مديحة هزانوتشى» لا تتوقف وصوت نحيبها يغطى على حروف كلماتها فتبدو غير مفهومة. إنها واحدة من قوافل الهروب الكبير التى تخرج من البوسنة والهرسك هذه الأيام فرارا من رصاص وسكاكين الصرب. كان مقررا أن تزف إلى عريسها هذه الأيام، ولكنها فى لحظة لم تجد إلا ثوب الزفاف الذى أعدته لتلك الليلة لتكفن فيه أسرتها!!

تعمل مديحة فى محل تجارى بالعاصمة سراييفو وتسكن فى المنطقة القديمة، وهى منطقة كل سكانها من المسلمين، وفيها المدارس والمساجد التاريخية التى أنشئت فى العهد العثمانى.

فى مدينة فيروفتينا الكرواتية التى لا تبعد كثيرا عن حدود البوسنة، توقفت لتأخذ القليل من الراحة التى افتقدتها منذ خرجت هاربة من سراييفو تحت جنح الظلام، وفى أثناء هروبها كانت تتخيل فى كل خطوة من خطواتها ما سيحدث معها لو وقعت فى أيدى الصرب، أو سقطت فى أحد حواجزهم التى تحاصر العاصمة البوسنية!

إنه شىء فظيع! هكذا نطقت مديحة بانكسار الأنثى التى رأت ما لم يخطر على بالها، وما لم تسمع عنه من قبل من صور الوحشية سراييفو الجميلة لا تسمع فيها إلا أصوات الرصاص، بيوتها البيضاء تتهدم وحدائقها الخضراء تمتلىء بالجثث. تقول : عمرى ٢٤ عاما، ولى شقيقة تصغرنى بعامين، وشقيق دون الخامسة عشرة من عمره . كان من المفروض أن يتم زفافى إلى خطيبى «أديب» هذا الشهر بعد أن أعددنا كل شىء، ولكن ..»!

توقف لسان مديحة هزانوتشى عن الكلام أمام قسوة ما حدث لها، وجلسنا بعض الوقت ننتظر أن تبدأ قليلا لنسمع بقية قصتها. صرخت: أتركونى .. لا فائدة من الكلام ، ضاع كل شىء!

إنبرت إحدى جاراتها التى رافقتها فى رحلة الهروب تكمل القصة :
«أغلقت أسرة مديحة على نفسها باب البيت وامتنعت عن الخروج بعد أن أصبحت الشوارع غير آمنة، هكذا طلب منهم الأب الذى يعمل إماما لأحد المساجد. انقطعت مديحة عن الذهاب لعملها عدة أيام وخاصة أن عصابات الشتنك الصربية بدأت تركز على المنطقة الإسلامية وتذبح كل من تقابله من الرجال والأطفال وتسبى النساء !

كانت مديحة تزورنى بين الحين والآخر حيث أن بيتينا متجاوران، نقطع لحظات الخوف والفزع والرعب بأحاديث الأمل والرجاء . وصباح أمس كانت عندنا فى البيت، عندما سمعنا طلقات الرصاص، ثم صرخات استغاثة تخرج من بيتهم، حاولت أن تخرج ولكننا أمسكنا بها خوفا عليها من أن تكون ضحية جديدة، فماذا فى مقدورها أن تفعل مع هذه العصابات التى لا تتورع عن القتل والذبح !

منذ وصلت المعارك إلى شوارع سراييفو وهم ينفذون شعار قتل الأئمة والعلماء ليستأصلوا الإسلام تماما ويدمروا منابعه. ولذلك فإن الميليشيات الصربية التى يساندها الجيش الفيدرالى اليوغسلافى تحتفظ بسجلات للأئمة والمعلمين فى المدارس الدينية لتقوم بتصفيتهم جاءوا إلى بيت مديحة ليقتلوا والدها، فى البداية وجهوا طلقات الرصاص بغزارة إلى باب البيت، ثم اقتحموه وسط صرخات والدة مديحة وشقيقتها، وفى هذا الوقت كان خطيبها وابن عمها «أديب» قد وصل بالصدفة قبل الهجوم مباشرة لزيارة الأسرة.

وضعوا «الكلابشات» فى أيادى الأب وأديب ووالدة مديحة وشقيقها الصغير، وقاموا بذبحهم واحدا واحدا أمام عينى شقيقتها التى أمسكوا بها بشدة، وجعلوها تشهد هذا المنظر الوحشى!

مشهد دموى

كانوا سكارى، وهكذا هم دائما ينفذون عملية الذبح بعد أن يشربوا الخمر، وبدأوا الذبح بالأب بعد أن سكبوا على وجهه الخمر، ورسموا الصليب على جبهته، ثم جاء دور أديب والطفل، وأخيرا انتهوا بالأم وفى اللحظة التى تهيأوا فيها لأن يسبوا الفتاة، كانت قوات الدفاع المحلى قد اكتشفت هجومهم ووصلت إلى البيت لتطاردهم، فولوا هاربين !

فى بيت مديحة وجدوا مشهدا دموياً لا يمكن أن يتخيله إنسان، الأسرة كلها مذبوحة فيما عدا الفتاة التى أخذت تصرخ بهستيريا، بينما أخذت مديحة تنتقل من جثة لأخرى وهى لا تصدق أن كل شىء قد ضاع فى لحظات، وأنها أصبحت بلا أهل، وبعد قليل ستصير بلا بيت أو وطن» !

إلى هنا انتهت جارة مديحة من رواية تلك الحادثة البشعة، فطلب منها أن ترى الفتاة التى كانت شاهد عيان عليها، وكادت تكون فى عداد السبايا لولا إرادة الله. وافقت على ذلك بعد أن رجت ألا نسأل، فالحادث موجع ومؤلم، ولا يزال حيا لم يمر عليه أكثر من يوم، ومجرد أن تسترجعه مرة أخرى أمامنا، أمر لا يحتمل.

وجه الفتاة شاحب وحزين، جسدها يرتعش بشدة «قتلوهم، ذبحوهم، أبى، أمى ، أخى ..» مقاطع ترددها منذ خرجت من سراييفو فى قافلة الهرب، كأنها تريد أن تخبر كل من تقابله بهذه المذبحة.

الفصل السابع

مذبحة المساجد

فى البوسنة والهرسك

هذا هو كشف خسائر عملية الإبادة التى يتعرض لها المسلمون فى يوغسلافيا كما رواها محرم عمر ديتش رئيس الإدارة الدينية العليا للمسلمين فى شبه جزيرة البلقان.

١- تدمير ٨٠ مسجدا حتى الآن فى جمهورية البوسنة والهرسك لطمس المعالم الإسلامية وتدمير الوجود الإسلامى فى منطقة البلقان.

٢- قصف الإدارة العليا للمسلمين فى البلقان بالصواريخ ومقرها سراييفو العاصمة.

٣- تدمير مسجد «البيك» فى سراييفوا وهو أكبر مساجد البلقان وواحد من أقدم المساجد فى أوروبا كلها.

٤- تدمير جميع المساجد فى منطقة «نوتشا» ورفع علم الصرب فوق مآذن المساجد عند احتلالها.

٥- قصف مسجدى «علاء باشا » و « أمين بك» بالصواريخ ونهب كل الآثار والكتب الإسلامية والمصاحف التى ترجع إلى العصر العثمانى وهى لا تقدر بثمن.

٦- تدمير مسجد «كاراجور» الشهير الذى أقيم فى القرن الخامس عشر ويدخل ضمن المعالم التاريخية التى تشرف عليها هيئة اليونسكو.

٧- هدم عشرات المزارات الإسلامية والتكايا والآثار العريقة فى منطقة موستار

٨- تفجير مسجد أثرى فى مدينة شابلينا عن طريق شحنات متفجرة بالتحكم من البعد أثناء الصلاة ومصرع كل المسلمين داخله وهم بين يدى الله.

٩- منع الآذان والصلاة فيما تبقى من بيوت الله حتى صلاة الجمعة على وجه الخصوص.

١٠- تشريد نحو مليون مسلم حتى الآن من مسلمى جمهورية البوسنة والهرسك.

إن نظرة مدققة على هذه القائمة الأولى للمناطق التى تم تدميرها تكشف عن انها قد اختيرت بعناية، فهى تمس المواريث الرمزية والتاريخية الإسلامية هناك، فحرب الإبادة تريد تجريد الذاكرة الجماعية لشعب البوسنة والهرسك من رموز الهوية والانجاز الحضارى الذى نشأ من الفكر والعقيدة الإسلامية.[١]

خوفا من ظهور جمهورية أصولية فى أوروبا

غادرت قافلة مؤلفة من ثمانين عربة تابعة للأمم المتحدة مدينة سراييفو المهدمة مؤخرا، فى خطوة تعتبر دليلا على أن المجتمع الدولى اعترف بالهزيمة وترك جمهورية البوسنة لمواجهة مصيرها الدموى.

حمام الدم مستمر فى سراييفو

وفى الوقت الذى صعدت فيه القافلة الطريق الجبلى المتجه إلى بلغراد، اندلعت آخر سلسلة من الاشتباكات العنيفة، واستأنفت الوحدات الصربية غير النظامية قصفها للمناطق السكنية، بدعم وتأييد من الجيش اليوغسلافى.

ويتمركز الصرب فى مواقع نموذجية لممارسة ذلك القصف.. فهم على قمم الجبال، يشرفون على المدينة بكاملها التى تقع ضمن واد منحدر، عرضه من أقصاها لأقصاها لنيران مدافعهم.

(١) والآن تجرى حرب إبادة وتطهير عرقى فى فلسطين

وقد تحولت أجزاء من الضواحي الغربية إلى ركام. ودمرت معظم حاراتها القديمة التي تتألف من مزيج من الأبنية المبنية على الطراز العثماني والنمساوي. كما تم هدم أكثر مساجد المدينة التسعين مع كنائسها الأرثوذكسية الصربية والكاثوليكيةالكرواتية.

وقد اضطر سكان المدينة الذين ظلوا فيها إلى الاختفاء في الأقبية تحت الأرض، وباتوا لا يخرجون إلا لماما للحصول على ما يحتاجونه من ماء وغذاء، معرضين أثناء ذلك أنفسهم لنيران القناصة المنتشرين في الشوارع المهجورة، والحقيقة أن المعركة لم تعد معركة بين الصرب والمسلمين والكروات، فكل من يتحرك في الشوارع أصبح هدفا للنيران.

والحرب في البوسنة اضطرت الآلاف إلى مغادرة مدنهم وقراهم، لكن معظم هؤلاء لا يملكون مكانا يذهبون إليه. فالملجأ الآمن للمسلمين يكاد لا يتوافر على الإطلاق في جمهوريات صربيا وكرواتيا ومونتيفيرو المجاورة.. وتعاني مدن البوسنة الأخرى نفس ما تعانيه سراييفو من مصير.

فمدينة موستار الأثرية، تتعرض منذ أكثر من أسبوعين لقصف مدفعي مركز، وحتى فترة قصيرة ..كانت موستار مركزا رئيسيا للسياحة في البلاد.. أما اليوم فإن أكثر مبانيها القديمة تحول إلى أنقاض.

وتفيد التقارير عن وقوع قتال عنيف خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية في بلدة توزلا، على بعد خمسين ميلا إلى الشمال من سراييفو، بعد أن تعرض مقاتلون مسلمون لقافلة تابعة للجيش . وقد قصفت طائرات سلاح الجو مؤخرا مطارا عسكريا في بيهاك شرقا، ويقول أحد التقارير أن الجيش تمكن بعد ذلك من احتلال المطار.

كذلك تعرض موقع «بوسانسكي بورد» الذي يشكل أحد مناطق العبور

القليلة إلى كرواتيا، لنيران عنيفة فى الأسبوع الماضى، وأنهار جسر نهر سافا تحت وطأة القصف.

إزاء تلك الصورة، قرر مراقبو الأمم المتحدة والمجموعة الأوربية.. الذين لا يملكون القدرة على العمل بحرية إلا فى كرواتيا المجاورة بالرغم من وجودهم فى سراييفو، أنه لا خيار أمامهم سوى الانسحاب من المدينة. وبهذا الصدد قال مسئول كبير لدى وزارة الخارجية البريطانية مؤخرا: ذلك أقصى ما تستطيع قوات حفظ السلام أن تفعله.. ولابد لكى تمارس تلك القوات مهامها، من وجود السلام الذى ستعمل على المحافظة عليه.

والموقف فى الحقيقة أصعب من أن تتمكن حكومة البوسنة من القبول به .. لقد طالب الرئيس على عزت بالتدخل الدولى فى جمهوريته قبل وقت طويل من اندلاع القتال فيها.

وفى الوقت الذى كان فيه الجيش اليوغسلافى يزرع الدمار فى مدينتى فوكوفار ودوبرفنيك الكرواتيتين، حذرت حكومة الرئيس على منه مرارا وتكرارا من أن حمام الدم فى البوسنة سيكون أسوأ من ذلك.

وقد قام وزير خارجية البوسنة حارس سيلادجيك بزيارة لمدينة نيويورك، فى محاولة لحشد الدعم لفكرة التدخل العسكرى الكامل فى بلاده، من نفس المنطلق الذى قامت عليه معركة «عاصفة الصحراء».. وقد حظى سيلادجيك بتأييد عدد من الدول الإسلامية.

لكن الطلب لم يحظ بموافقة السكرتير العام للأمم المتحدة السيد بطرس بطرس غالى، على أساس أنه ليس عمليا، وبالنظر لأن خطوة كهذه تحتاج إلى قوة مسلحة تسليحا ثقيلا، وتتألف من عشرات الآلاف من الرجال.. ولا ترغب واشنطن من جانبها فى تمويل عملية كهذه، إضافة إلى أنها لا تعتزم التورط فى

نزاع لا يؤثر عليها.. وهناك أيضا فى الغرب، إحجام عام عن تبنى القضية المسلمة فى البوسنة.

وبغض النظر عن مدى تأكيد السيد على وحكومته لالتزامهما بمفهوم الحكم العلمانى الديمقراطى القائم على أساس غير قومى، فإن الغرب مازال يخشى أن تكون مثل هذه التعهدات ستارا لهدف أصولى.

ولهذا لم يكن من المدهش أن يقتصر مجلس الأمن على الدعوة إلى انسحاب كافة القوى الخارجية.. ونزع أسلحة الوحدات غير النظامية.. ومن المؤكد أن دعوة كهذه لم تجد آذانا صاغية فى البوسنة

بالنسبة للمسلمين، تأزم الوضع مؤخرا بالتأييد الذى أبداه الرئيس الكرواتى فرانجو توديجمان للاتفاق المقترح مع الصرب على اقتسام البوسنة بينهما.

ويبدو أن الأمر يحتاج إلى جهود دولية مضنية، تشتمل على عقوبات ضد كرواتيا وصربيا ، للحيلولة دون تشريد المسلمين الذين يشكلون أكبر مجموعة سكانية فى البوسنة، داخل بلادهم. !

جثث المسلمين تملأ الشوارع فى البوسنة

الصرب يذبحون قرية كاملة برجالها ونسائها وأطفالها ؟

لم يكن قد مضى على هذا الوقت أكثر من ٢٤ ساعة، عندما دخلت عصابة الشتنك، وهى قوات الميليشيات الصربية، لتوجه نيران مدفعيتها الثقيلة أولا إلى المسجد، حيث كان وقت الصلاة، وكانت المئذنة منذ قليل ترفع نداء «الله أكبر»، وفى ثوان حصدوا كل المصلين، ثم انهمكوا فى التمثيل بجثثهم، يسكبون عليها زجاجات الخمر التى يحملونها، ويرسمون بالسكاكين على الأجساد الطاهرة صلبانهم.

ومن المسجد توجهوا إلى المدرسة التى تضم أطفالا لا تتجاوز أعمارهم العاشرة، وصوبوا عليهم الرصاص أيضا دون أن يعبأوا بصرخاتهم البريئة، وفى خلال ساعة واحدة، أصبحت القرية المسلمة كتلا مشتعلة من النار، لم يبق بيت إلا وقد ذبحوا كل من فيه بالسكاكين، لم يرحموا طفلا حديث الولادة، أو امرأة تستغيث، وليس لها من مغيث إلا الله، أو رجلا مسنا يعد أيامه الباقية!

القرية بعد ساعات فقط من المذبحة، سكانها إما لبسوا أكفان الموتى، وإما أن جثثهم لا تزال ملقاة فى أماكنها لأنه ليس هناك أكفان كافية لهم !

يقول أحد الصحفيين :

سقطت آلة التصوير من يدى، وانفجرت في بكاء حاد، وارتعش جسدى بشدة الأمر الذى لفت نظر الصحفى الكندى «ستيف»، ويعمل مراسلا لإحدى وكالات الصور، فلامنى بشدة لأن عاطفتى تغلبت على واجبى المهنى. فى هذه اللحظة نظرت إلى زميلى فى الرحلة المخرج التليفزيونى شكر الله خلف الله مندوب مكتب النمسا وشرق أوروبا لهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، فوجدته مثلى تماما، نحى كاميراته التليفزيونية جانبا، وانهمك فى البكاء !

ويقول : أمرنى بالتوقف

اختفت معالم الحياة من القرية، ولفها صمت موحش لم تبدده طلقات المدافع التى تنطلق من الدبابات الصربية الرابضة فى مواقع قريبة، خطفت كاميرتى وجريت ناحية ما بقى من المسجد، فإذا بقائد من الكروات المتحالفين مع المسلمين يصرخ فى وجهى : توقف أيها الأخ، إنك تعرض نفسك وتعرضنا جميعا للضرب ، فالقناصة على مرمى منك !

توقفت أمامه مذهولا للحظات، وخاصة أنه هددنى بالضرب إن لم أمتثل

لأوامره وركبت رأسي، وقال لى توقف عن التصوير تماماً، وستحملك السيارة التى جئت بها الآن، إلى المكان الذى أتيت منه.

وأخذت استعطفه، لقد قطعت آلاف الكيلومترات، وركبت المخاطر لأنقل هذه المأساة إلى العالم الإسلامى، اطمئن أيها القائد، سأسرع فى مهمتى، وسأنهيها فى وقت قصير، ولن أسبب لكم المشاكل، وهنا تدخل ضابط مسلم مسئول وهو سليمان بهاروفيتش، وقال للقائد الكرواتى: دعهما يدخلان المسجد كما يريدان، سأذهب معهما لتوجيههما، ولن يطول الأمر أكثر من خمس دقائق.

ودخلنا -أنا والمخرج شكرالله- فوجدنا جثث القتلى متراصة فوق السجاد المحترق، ووجدنا صعوبة كبيرة فى تفاديها ونحن ننتقل بين أركان المسجد المدمر، ويبدو أن قناصا صربيا رصدنا فى هذه اللحظة، فأطلق علينا قذيفة استقرت على بعد أمتار قليلة منا، هنا أمرنا سليمان بأن نخرج بسرعة، ونختبىء وراء أحد الجدران الباقية، وخاصة أن أصوات طلقات متتالية سمعت بعد ذلك.

قائد قوات الدفاع المحلى لمنطقة بوسنسكى برود والتى تتبعها تلك القرية التى شهدت المذبحة المرعبة، الجنرال «إيفين بريست»، وهو كرواتى كاثوليكى، صحبنا إلى جزء آخر من القرية، ودخل بنا إلى بعض البيوت، جثث أسر كاملة ذبحت وشوهت معالمها، رجل شاء الله ألا يكون فى القرية عندما حدثت المذبحة، وقف أمام بيته مذهولا لا يصدق، ذبحوا أمه العجوز وزوجته وطفله الصغير الذى مضى على ولادته خمسة شهور فقط، كان الرجل يحمل فى يده زجاجة الرضاعة التى كانت فى فم الطفل عندما ذبحوه، والطاقية التى كانت فوق رأسه، حاولت أن أكلمه فلم يرد سوى بقطرات الدموع التى انسابت على وجهه.

الفصل الثامن

سقوط الأقنعة !

أطراف الصليب تكتب الفصل النهائى لمسلمى البوسنة :

المعروف أن تلك المنطقة من شبه جزيرة البلقان، التى كانت تشكل سابقا ما يعرف بيوغسلافيا، تشهد منذ فترة طويلة صراعا مسيحيا بين الكاثوليك والأرثوذكس، صراع نفوذ وهيمنة حيث أن أكبر جمهوريتين، وهما صربيا وكرواتيا. الأولى أرثوذكسية والثانية كاثوليكية، وكلاهما يقعان فى نقطة فاصلة بين الشرق الأرثوذكسى والغرب الكاثوليكى.

وقد خبأ هذا الصراع فى فترة الحزب الشيوعى، حيث حرص «تيتو» وهو كرواتى كاثوليكى على إرضاء الطائفتين على حساب المسلمين من سكان يوغسلافيا، وأراد «تيتو» بذلك أن يرضى الاتحاد السوفيتى فى ذلك الحين، حيث أن أكبر جمهورياته وهى روسيا تعتنق الأرثوذكسية، كما أن مقر أسقف الكنيسة الشرقية يقع فى موسكو، ومن ناحية أخرى إرضاء الكنيسة الكاثوليكية فى الفاتيكان، ومن ثم الغرب الكاثوليكى.

الطرفان رضيا بالمعادلة:

وقد رضى الاتحاد السوفيتى والغرب بهذه المعادلة، فيوغسلافيا كانت ضمن دول المنظومة الشيوعية حقا، ولكنها لم تمارس اضطهادا من أى نوع ضد المسيحية، واقتصر اضطهادها على المسلمين، حيث زج بهم فى السجون وأغلقت مساجدهم، وصودرت أوقافهم. أما الكنائس الكاثوليكية فظلت تمارس نشاطها، بل إنها تجاوزت المحظور فى الأنظمة الشيوعية، وأسست حزبا خاصا بها يسمى «الحزب المارينى» وهو حزب تنصيرى يدعو إلى التثليث بين مسلمى

يوغسلافيا، ويرتدى المنتسبون إليه زيا يمثلهم، وجميع العاملين فى تلك الكنائس يتلقون مرتباتهم مباشرة من الفاتيكان، وفق اتفاق قديم تم بين البابا وتيتو فى الماضى، ولا يزال معمولا به حتى الآن.

وكذلك ظلت كنائس الأرثوذكس تؤدى نشاطها كاملا دون أية إعاقة، انطلاقا من هيمنة صربيا على الاتحاد اليوغسلافى، وقد ركزت تلك الكنائس طوال الأربعين سنة الماضية على التنصير بين المسلمين من سكان البوسنة وسنجاق وكوسوفو ومقدونيا، وذلك بدعم من الأغلبية الصربية فى الحزب الشيوعى، وهذا يصب فى إطار الحلم القديم بتكوين «صربيا الكبرى» الذى يزعم أن تلك البلاد ذات الغالبية المسلمة جزء لا يتجزأ من صربيا.

وما أن انفك عقد الاتحاد اليوغسلافى، حتى تجدد صراع الهيمنة بين الكاثوليك والأرثوذكس، وقد شهدت كرواتيا فى العام الماضى بداية هذا الصراع، نظرا لأن بعض المدن الكرواتية تعيش فيها أقلية أرثوذكسية، ثم امتد هذا الصراع منذ فبراير الماضى، أى بعد الاستفتاء على استقلال جمهورية البوسنة والهرسك، إلى أراضى هذه الجمهورية لتبدأ معها المرحلة الأخيرة فى ابتلاع مسلمى يوغسلافيا السابقة، وهو الهدف الذى سعى الصليبيين إليه طويلا

وليس خافيا على أحد أن المجموعة الأوروبية منذ أن بدأت الحرب فى كرواتيا وهجوم الجيش الفيدرالى ذى الأغلبية الصربية عليها، تركز جهودها على ضرورة تسوية النزاع الكاثوليكى - الأرثوذكسى، وتقديم المسلمين ليكونوا ضحية هذه التسوية.

وأصبح امتداد الحرب إلى البوسنة والهرسك فرصة لذلك، ومن ثم فإن بطرس غالى الأمين العام للأمم المتحدة رفض طلب على عزت بيجوفتش رئيس البوسنة بإرسال قوة من المنظمة الدولية إلى تلك الجمهورية الوليدة. أسوة

بكرواتيا، كما أن غالى زعم أن الطوائف المتقاتلة فى البوسنة، تتحمل بالتساوى المسئولية فيما يجرى هناك، بمعنى أنه ينفى ضمنا مسئولية الطائفة الصربية.

ولم يكن هذا الرفض أيضا مفاجأة لزعماء المسلمين فى البوسنة، فقد كانوا يتوقعونه، تماما كما يتوقعون الهدف الذى تسعى إليه المجموعة الأوربية، وهو اقتسام البوسنة والهرسك بين كرواتيا وصربيا.

سيناريو محكم:

لقد بدأت بالفعل صياغة الفصل الأخير من تاريخ المسلمين فى هذه المنطقة، وفق «سيناريو» محكم اشتركت فى صياغته منظمات دولية كبرى، ولم يكن انضمام الكروات إلى جانب المسلمين فى صراع البوسنة، إلا استجابة لهذا السيناريو، لكن يبدو الأمر برمته وكأنه صراع على الأرض بين صربيا وكرواتيا، ثم ينتهى هذا الصراع باقتسام تلك الأرض بمباركة من الأنظمة الدولية.

توقع على عزت هذه المؤامرة الصليبية عند إعلان استقلال البوسنة والهرسك، وحاول أن يقطع عليها الطريق فغير اسم الحزب الإسلامى الذى يرأسه من «إس . دى ايه» إلى الحزب الديمقراطى، وهو الحزب الذى فاز بالأغلبية فى انتخابات البوسنة، مما أثار حفيظة الحزبين المتنافسين معه، وهما القومى الصربى والكرواتى، وحرص فى مبادىء إعلان الجمهورية على أن يشير إلى أنها دولة علمانية، فهو يعلم أن الغرب لن يسمح بدولة مسلمة فى وسط أوروبا تلاصق العالم الصليبى.

ويبدو أن حيلة على عزت لم تنطل عليهم، فتاريخه فى الجهاد الإسلامى طوال العهد الشيوعى معروف جيدا لهم، فقد كان عضوا فى منظمة الشباب المسلم، ولذلك حكم عليه عام ١٩٤٨، بالسجن ثلاث سنوات، كما أعيد اعتقاله عام ١٩٨٣م، ووضع فى سجن «فوجا» وهى تلك المدينة التى شهدت ذبح آلاف

المسلمين عام ١٩٤٢م بسبب العثور فى منزله على رسالة قام بتأليفها باسم «البيان الإسلامى» ومما جاء فيها أنها تهدف لأسلمة المسلمين.

ويعلمون أيضا أن على عزت وهو محام دستورى سابق، كاتب إسلامى، يقدم من خلال جميع كتاباته العلمية شرحا مبسطا لقضية الإسلام فكرا ومنهجا، وقد ترجمت مؤلفاته تلك إلى عدة لغات منها العربية والتركية والإنجليزية والألمانية.

نداء إلى صاحب البيت الأبيض

كشفت مجزرة المسلمين فى البوسنة والهرك عن حالة السلبية التى أصابت الشعوب العربية ومن ورائها شعوب العالم الإسلامى، وليس أعجز من هذه الشعوب سوى حكوماتها.. فالكل خائف .. مذهول.. يخشى أن يتكلم أو يحتج أو يصرخ فيتهم بالتعصب .. أو بالدخول فى ما لا يعنيه !!.

أين هى الصحوة الإسلامية التى يتكلمون عنها، ويزعمون أنها تثير فزع الغرب والشرق ؟ هل الصحوة الإسلامية معناها إطلاق اللحى وتقصير الثوب ولبس النقاب والكلام عن صلب المسيح وعذاب القبر والبرزخ، وتحريم مصافحة الرجال للنساء ؟؟ أم أن الصحوة تعنى إيقاظ الشعوب من سباتها لتفرض إرادتها على أعدائها.. وإحياء معانى العدل والحرية والشرف والنخوة فى نفوس المسلمين حتى يعيشوا أحرارا شجعانا كما عاش أسلافهم ؟!

أين هى النخوة والشهامة والأصالة، والمسلمون فى البوسنة والهرسك يذبحون ذبح الشياه، ويواجهون عملية إبادة وحشية من جانب الصرب العنصريين فلا يجرؤ المسلمون - الذين يبلغ تعدادهم آلف مليون - على عمل شىء إيجابى اللهم إلا الدعاء والخطب ومصمصة الشفاة !!

ماذا أجرم مسلمو البوسنة والهرسك حتى يلاقوا هذا الهوان على أيدى

الصرب ؟ لقد أعلنوا استقلال بلادهم فى دولة وطنية تضمهم مع الكروات والصرب فى إطار الوحدة الوطنية التى جمعتهم على امتداد ٥٠٠سنة، وهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد انهيار الاتحاد اليوغسلافى عقب انهيار الاتحادالسوفيتى واستقلالجمهورياته.

وإذاكان فى الاستقلال جريمة .. فماذا لم يرتكب الصرب نفس هذه الفظائع مع أهل سلوفينيا وكرواتيا !! لقد أعلن كل منهما قيام جمهوريته المستقلة، وعندما حاولت العنصرية الصربية أن تتحرش بهما تصدت لها دول المجموعة الأوربية فتراجع الصرب على الفور .. ودخلوا الجحور، وأعلنوا الخضوع لأنهم وجدوا العين الحمراء من جانب الدول الأوربية، أما مسلمو البوسنة والهرسك فأنهم «الحيطة» المائلة، ولأنهم لا يجدون ظهرا يحميهم.. فإن الصرب انفردوا بهم، وطاحوا فيهم ذبحا وتقتيلا ..!!

زمان .. كانت مصر، بكل طبقاتها وفئاتها وأحزابها، تهتز لأى حادث عارض يصيب الشعوب المظلومة ولو فى أقصى بلاد الدنيا، فتهب المظاهرات ، وتتشكل اللجان، وتنظم الصفوف، وتتحرك الحكومة وراء الشعب، وكانت الدول العربية والإسلامية تحذو حذو مصر فى حركتها ونخوتها. ويتشكل من كل ذلك ثقل شعبى ورسمى مؤثر.كان يحدث هذا فى الماضى رغم أن العرب والمسلمين كانوا أشد فقرا مما هم عليه الآن .. ورغم أن معظم الدول العربية والإسلامية كانت تعانى من الاحتلال الأجنبى.. ومع ذلك كانت أكثر حيوية، وأكثر فعالية مما هى عليه الآن .

فمن المسئول عن هذه الحالة الكئيبة التى تخيم على شعوبنا..؟

إذا أردتم الجواب فاسألوا الأنظمة الدكتاتورية التى تحكمت فى رقابنا وأجهضت نخوتنا.. واستلبت حيويتنا.. ودفعت الشعوب دفعا إلى الجحور لتنكفىء على ذاتها.. وتبحث عن معاشها.. وتنشغل بمشاكلها الصغيرة.

لقد خارت الهمم

وذبلت الاهتمامات الكبيرة.

وإلى أن تنقذنا معجزة من السماء، ليس لنا إلا أن نتوجه إلى صاحب البيت الأبيض حتى يتعطف ويتكرم باصدار أمره الكريم بوقف المذبحة الفظيعة التى يتعرض لها مسلمو البوسنة والهرسك، ليس دفاعا عن الإسلام.. ولكن رحمة بالأطفال والنساء والعجائز والأرامل واليتامى والسبايا والعبيد الذين استعبدهم الصرب رغم اختفاء الاستعباد من كل أركان الدنيا.

الجولة القادمة ستكون فى كوسوفو

ناشد على عزت بيغوفيتش رئيس جمهورية البوسنة والهرسك العالم كله بالوقوف مع شعب البوسنة والهرسك ومساندته فى محنته. وقال بيغوفيتش إن الصرب أشعلوا النار فى جميع أنحاء الجمهورية، ويرتكبون مذابح إجرامية ضد المسلمين.. واستغاث بيغوفيتش بالعالم الإسلامى كله لمساندة المسلمين فى البوسنةوالهرسك.

وفى خطوة لتعقيد الأوضاع فى يوغوسلافيا، وامتدادا لحملة الصرب لمطاردة المسلمين شدد الصرب قبضتهم على إقليم كوسوفو ذى الأغلبية المسلمة، والواقع تحت سيطرة صربيا.. فقد أعلن سكان إقليم كوسوفو فى بيان لهم «إن صربيا ارتكبت مذابح إجرامية ضد المسلمين».. وطالبوا بلجنة دولية لتقصى أوضاع حقوق الإنسان فى الإقليم.

وقال البيان «إننا نطالب بالتحقيق فى الأعمال الوحشية التى يقوم بها الصرب ضد الأغلبية المسلمة»

ويطالب سكان كوسوفو بالاستقلال عن صربيا وتقرير مصيرهم

والمعروف أن هذا الإقليم يتمتع بالحكم الذاتى، ولكن بعد أن أجرى استفتاء على استقلال الإقليم، قامت صربيا بتشديد قبضتها الحديدية على السكان.. وعقب شن صربيا الحرب ضد جمهورية البوسنة والهرسك المسلمة، شددت صربيا قبضتها على سكان كوسوفو، حيث قامت باعتقال الآلاف من الشباب المسلم، وأغلقت عشرات من المساجد والمدارس الإسلامية والجمعيات الثقافية الإسلامية بدون إشعار، وقررت عدم السماح لأى مواطن باستصدار جواز سفر حتى لا يسافر أحد للخارج.. وقيدت حرية المواطنين فى الحركة.

وإقليم كوسوفو يقع جنوب غرب يوغسلافيا بمحاذاة الحدود مع ألبانيا غربا.. وجمهورية مقدونيا فى الشمال الغربى.. ويقطنه قرابة المليونى شخص، ويشكل المسلمون ٩٢٪ من السكان.. ولهذا الإقليم أهمية تاريخية كبيرة بالنسبة للمسلمين فى يوغسلافيا.

حيث دارت فى الإقليم المعركة الشهيرة بين الصرب والمسلمين فى عام ١٣٨٩، والتى ارتكب فيها الصرب أبشع المذابح ضد المسلمين، وأخضعوا الإقليم بعدها لسيطرتهم.. وضمت كوسوفو لصربيا بعد الحرب العالمية الأولى حيث قررت دول الحلفاء المنتصرة مكافأة صربيا على حربها ضد المسلمين بمنحها كوسوفو.

ثم حاولت صربيا تهجير سكان الإقليم - من أصل ألبانى - وإحلالهم بصرب، ولكن المحاولات لم تنجح.. وفى ١٩٣٨م، عقدت صربيا اتفاقية مع تركيا لنقل نصف مليون من مسلمى كوسوفو من أصل تركى إلى تركيا.

ولكن اندلاع الحرب العالمية الثانية حال دون إتمام هذه الصفقة.. وبعد الحرب أعلن عن قيام دولة شيوعية فى يوغسلافيا بقيادة ميتشو الذى لم يتوان لحظة فى القيام بحملة إبادة واسعة ضد المسلمين فى جميع أنحاء يوغسلافيا.

ومن ثم فالصرب يريدون إقامة دولة صربية نصرانية فى ويوغسلافيا.. وفى سبيل هذه الغاية سيستمرون فى معاركهم وقمعهم للمسلمين .. وحرب الصرب فى يوغسلافيا حرب دينية فى الأصل والمتابع لتطورات الصراع يجد أن الصرب اشتبكوا فى حرب طاحنة مع الكروات، وهى حرب مذهبية بين الكاثوليك والأرثوذكس.

وهدف الحرب قيام الصرب بتصفية الكروات، وضم أجزاء من كرواتيا ثم الزحف إلى البوسنة والهرسك لضمها إلى الصرب.. فهل سيقف «المجتمع الدولى» ضد أطماع الصرب فى إقامة دولتهم النصرانية الكبرى على جثث المسلمين اليوغسلاف؟!..

وهل سيبقى المسلمون يتفرجون كالمعتاد على ذبح المسلمين كالشياه بأيدى الصرب؟!.. إنها حقا أسئلة مريرة فى وضع بات فيه المسلمون غثاء كغثاء السيل دماؤهم مهدرة فى كل بقاع الأرض..!!

ومن ثم فإن أى اتفاق لوقف إطلاق النار فى البوسنة والهرسك لم يحترمه الصرب وسيستمرون فى حربهم، ولن يبالوا بأى بيانات تكتفى بالتهديد والتحذير فقط!

الفصل التاسع

الظروف التى يجرى في ظلها التدخل والتنافس

١- تفكك الرابطة الاتحادية السوفيتية :

انهار الاتحاد السوفيتى بسبب انهيار الأيديولوجية الماركسية، التى كانت تقوم على المادية المفرطة وإنكار وجود الله تعالى والغيب والجوانب الروحية جملة، فضلا عن إنكارها للطبيعة البشرية ذاتها، فخلفت أمراضا اجتماعية، انعكست بدورها على الاقتصاد الذى - رغم غنى أراضى الاتحاد السوفيتى بالموارد الطبيعية والكوادر الفنية والتكنولوجية المناسبة - كان يعانى تدهورا مستمرا منذ عام ١٩٧١م، بلغ حد استيراد القمح من الأعداء (الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك) وتناقصت معدلات النمو، وحدث خلل كبير فى التوزيع، وفى تقديم الدولة للخدمات، إلى أن أعلن «مخائيل غورباتشيف» وثيقة التسليم الأيديولوجى المسماة «البيرويسترويكا» فى شهر مارس من عام ١٩٨٥م.

كيف تفكك الاتحاد السوفيتى :

هذا، ولم يتفكك الاتحاد السوفتى نتيجة حرب نووية أو تقليدية، أو حتى حرب أهلية، لكن هذا التفكك قد حدث، عندما بلغ مداه، بطريقة قانونية هادئة فى ما سمى باتفاقية «مينسك» عاصمة روسيا البيضاء، إذ أعلنت الدول السلافية الثلاث الكبرى روسيا الاتحادية، وأوكرانيا، وروسيا البيضاء، فى الثامن من ديسمبر ١٩٩١م ، إلغاء الاتحاد السوفيتى وإقامة رابطة جديدة هى «كومنولث الدول المستقلة»

أعلنت الدول الإسلامية الخمس، الموجودة فى أسيا الوسطى، بعد اجتماع مشترك فى عشق أباد (عاصمة تركمينستان انضمامها إلى رابطة الكومنولث الجديدة، ثم انضمت أذربيجان فيما بعد إلى نفس الرابطة، فأصبحت كل الدول والأقاليم الإسلامية ضمن رابطة كومنولث الدول المستقلة.

تلاشى قوة الجذب :

ورغم تلاشى قوة الجذب التى كانت تربط بين جمهوريات الاتحاد السوفيتى (سابقا) من ناحية، وبين السلطة المركزية فى موسكو، من ناحية أخرى، لتحل محلها قوة طاردة مركزية، لم تؤد إلى انفراط العقد تماما، ولا هى تسمح بعودته للالتئام، وإنما أعطت فرصة للتدخل الغربى الواضح المعلن، فى محاولة لإعادة صياغة مستقبل هذه البلدان بما يتمشى مع الأفكار التى جاء بها النظام العالمى الجديد، وباستخدام أدواته.

الصحوة الإسلامية :

لقد كان للصحوة الإسلامية[١]، التى شاء الله تعالى أن تكون أحد سمات الربع الأخير من القرن العشرين الميلادى، دور بارز، سواء كسبب، أو كعامل من العوامل الفاعلة التى أدت إلى انهيار الاتحاد السوفيتى، ولا يقدح فى ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم الصهيونية العالمية، قد ركبت موجة المد الإسلامى، فى محاولة لتطويعها، للتخلص من عدوها الأيديولوجى سواء فى الاتحاد السوفيتى نفسه، أو عبر حدوده

بداية نقول : إن التغير الديموغرافى لصالح المسلمين فى الاتحاد السوفيتى السابق، وبدء ظهور صحوة إسلامية حقيقية بداخل معظم جمهورياته كانا سببين رئيسيين للسعى نحو تحقيق انهياره، فقد كانت التوقعات تشير إلى

(١) وهى صحوة فى حاجة إلى الدفع لأنها منقوصة وبحاجة إلى المزيد

أن عدد المسلمين في كل الاتحاد السوفيتي قد يصل إلى أكثر من ٥٠٪ من إجمالي السكان خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الميلادي، بسبب ارتفاع نسبة الزيادة السكانية بين المسلمين، لتبلغ ضعف، وربما أضعاف الزيادة السكانية بين السكان السلافيين.

من جهة أخرى صارت مصداقية الاتحاد السوفيتي، وأيديولوجيته الماركسية تفقد كل يوم أرضا جديدة من بعد مد خطير في الأمة الإسلامية، استمر قرابة عقدين من الزمان. وقد صاحب انسحاب الماركسية من بلدان الأمة الإسلامية صحوة استغلتها الولايات المتحدة الأمريكية - تكتيكيا- خاصة على حدود الاتحاد السوفيتي الجنوبية في أفغانستان. وقد كان لهذا سبب اقتصادي، فضلا عن السبب العقدي الأيديولوجي، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية تسعى جاهدة لوضع يدها على مصادر البترول في منطقة الخليج، وتأمين وصوله للغرب بالكمية وبالسعر اللذين تحددهما.

رغم هذا، فقد أفلتت الأمور منذ نهاية السبعينيات من بين يدي الولايات المتحدة، وأدى نجاح الثورة الإسلامية في إيران والهزيمة الحقيقية التي ألحقها المجاهدون الأفغان بالقوات السوفيتية المعتدية، إلى دعم الصحوة الإسلامية واشتداد عودها في الجمهوريات والأقاليم الإسلامية بالاتحاد السوفيتي السابق، وظهر هذا واضحا منذ عام ١٩٨٦م، وازداد وضوحا منذ عام ١٩٨٩م.

٢- تمزق الأمة الإسلامية :

لقد كانت الصحوة الإسلامية، ولاتزال، نابعة من إيمان الأفراد والجماعات مستقرة في القاعدة الشعبية، لا تلقى تأييدا أو ترحيبا من جل القيادات السياسية في الأمة الإسلامية، لذا تجد هذه الصحوة صعوبة ملحوظة في الانتقال إلى مرحلة النهضة والتأثير الحقيقي في مجريات الأمور في الساحة

الدولية، بل إنها ماتزال قاصرة حتى الآن عن دفع العدوان الذى أصبح يحيق بها
ن كل جانب : فى البوسنة، وفلسطين، والعراق، والخليج، والقرن الأفريقى،
قوقاز، وآسيا الوسطى.

أدت هذه الأوضاع التى حرمت فيها الأمة الإسلامية من مواردها
لاقتصادية، وتعرضت معظم أراضيها للاحتلال الأجنبى فى شكله الجديد، الذى
سمونه الاحتلال المهذب، أى القائم على الرضاء المعلن من جانب القيادات
السياسية فى الأمة الأسلامية.. إن لم يكن باستدعاء منهم -أدت هذه الأوضاع
التى أن أصبحت الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الصغرى والقوقاز، محاصرة
من جهة الخارج حصارا بيسر التدخل فى كل شؤونها، ويهدد أمنها وكيانها.

وقد نشير فى هذا المجال إلى حادث ذى مغزى : هو حادث إسقاط
طائرتى هيلكوبتر أمريكيتين يوم ١٤ أبريل ١٩٩٤م بطريق الخطأ، وكانتا
تحملان ستة وعشرين من الشخصيات العسكرية الكبيرة (أمريكية - بريطانية
-فرنسية- تركية)، التابعة لرئاسة الأركان المتحالفة -وذلك بمنطقة كردستان
العراقية، التى تم فصلها فعليا عن العراق منذ عام ١٩٩١م- كانوا قادمين من
«باكو» عاصمة أذربيجان التى تخوض حربا مع جارتها أرمينيا، على أراضى
الأولى، وبدعم من الغرب ومن روسيا، فأرض الإسلام صارت مستباحة
لأعدائهم!

يضاف إلى هذا تخلف الأمة الإسلامية، خاصة فى مجال التكنولوجيا،
واعتمادها بشكل رئيسى على استيراد غذائها، ومعظم احتياجاتها الأخرى من
الدول الغربية، بصفة أساسية، ووقوع معظم دولها تحت وطأة الديون، فى حين
نجد أموال الدول الغنية منها تحت سيطرة البنوك المملوكة -فى معظمها-
لليهود، وتضع الدول الغربية عليها من ناحية الواقع، قيودا تجعلها مجمدة،
ـة الفائدة، بل وتعمل على استهلاكها بطرق شيطانية.

عجز منظمة المؤتمر الإسلامى :

هذا، وينتظم دول الأمة الإسلامية منظمة هى منظمة المؤتمر الإسلامى، التى أثبتت السنون أنها غير قادرة على تحقيق وحدة الأمة، أو حتى اتخاذ قرار ذى شأن .. ولعل أكبر إخفاقات هذه المنظمة يتمثل فى عدم قدرتها على مجرد تحقيق الوجود الإسلامى فى ساحات الصراع فى كل أنحاء الأمة الإسلامية .. خاصة ما يتعلق بسعى الصهيونية لتهويد القدس، أو محاولة البوسنة، أو جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز.. إلخ.

٣- محاولة فرض النظام العالمى الجديد :

ترجع فكرة إقامة نظام عالمى جديد، تهيمن عليه الولايات المتحدة الأمريكية، وتسوده قيم الغرب وثقافته اليهودية /النصرانية» إلى أواخر الحرب العالمية الثانية، إذ تمت صياغة التنظيم الدولى وميثاقه وأفرعه والمنظمات المتخصصة التابعة له لخدمة هذه الفكرة ..

بيد أن السيطرة على المنظمة الدولية (الأمم المتحدة) لم تخلص لمن خططوا لذلك بسبب سرعة امتلاك الاتحاد السوفيتى للأسلحة النووية، وإخفاق الولايات المتحدة الأمريكية فى السيطرة على أوروبا الشرقية، ونجاح الماركسية فى الصين، وتأكد انقسام كوريا إلى دولتين : شمالية ماركسية، وجنوبية تابعة للولات المتحدة الأمريكية.

ومع ذلك فقد كان العام ١٩٧١/١٩٧٢م عاما حاسما، إذ أعلنت القوتان العظميان آنذاك الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى عن ما سمى بالانفراج وفى ظل هذا الانفراج جرت تسويات على طول العالم وعرضه كان منها : اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية عام ١٩٧١م، وانعقاد المؤتمر الأول للأمن والتعاون الأوروبى عام ١٩٧٣م، واتفاقية الخفض المتبادل والمتوازن للأسلحة فى نفس العام، وتوقيع اتفاقية سان كليمنت للحيلولة دون وقوع حرب نووية.. وفى

مقابل هذا كله أصبح الاتحاد السوفيتى يتمتع بوضع «الدولة الأولى بالرعاية» فى تجارته مع الولايات المتحدة .. إلخ.

وقد توجت جهود الغرب لفرض نظام عالمى جديد بإعلان ميخائيل غورباتشيف ما سمى البيريسترويكا، وكان هذا بمثابة بداية الدخول إلى عهد جديد.

كان العام ١٩٩٠م/١٩٩١م هو الآخر عاما حاسما أعلن فيه بالفعل عن قيام ما سمى بالنظام العالمى الجديد، فى أعقاب حرب الخليج الثانية، التى نشبت بين أمريكا وحلفائها من جانب، وبين العراق من جانب آخر، وتبين خلالها أن الاتحاد السوفيتى قد خرج تماما من مسرح الصراع الدولى.. وأعلن الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش أن الولايات المتحدة تتعهد بإقامة هذا النظام الجديد بوصفها المؤهلة لإدارة مجتمع العالم تجاه غايته النبيلة !!

وكان من أوائل تصريحات الرئيس الأمريكى بيل كلينتون بعد توليه الرئاسة يوم ٢٠ يناير ١٩٩٣م قوله : «إن أمريكا تؤمن بأن قيمها صالحة لكل الجنس البشرى، وإننا لنستشعر أن علينا التزاما مقدسا لتحويل العالم إلى صورتنا»... !! هكذا ؟!

فالنظام العالمى الجديد يستهدف الهيمنة الثقافية على العالم، ولايمكن هذا إلا من خلال السعى نحو السيطرة المركزية السياسية، والعسكرية، والمالية، والاقتصادية، والبيئية، والإعلامية، بل والسكانية والاجتماعية، على العالم بأسره.

والفكرة العقدية التى تحرك هذا كله هى تمهيد الأرض لإقامة مجتمع عالمى واحد مستعد لاستقبال المسيح (المخلص عند النصارى)، (وملك إسرائيل عند اليهود)، لحكم العالم من القدس، تحقيقا لنبوءة جاءت فى سفر أشعياء من الكتاب المقدس.[1]

---

(١) هم ينتظرون المسيخ الدجال .

وعلى الرغم من اتحاد مسمى الشخصية المنتظرة، فإن شخص المسيح عند اليهود مختلف تماما عن شخص المسيح عند النصارى.. ومع ذلك، ورغم علم الطرفين بهذه المفارقة، فإن التقارب المشبوه بين حاخامات اليهود ومجلس الكنائس العالمى تحت رئاسة الفاتيكان يقوم على أساس اقتناع الجانب الصليبى بالفكرة الصهيونية .. وهذا ما نجحت فيه الصهيونية العالمية فى سعيها طوال العشرين قرنا الماضية.

وقد يكون مناسبا الإشارة إلى المؤتمر الهام الذى عقد بين كبار الحاخامات اليهود فى العالم، وقادة مجلس الكنائس العالمى فى القدس فى المدة من الأول حتى الرابع من فبراير عام ١٩٩٤م لبحث موضوعات على درجة كبيرة من الحساسية، على حد تعبيرهم، وبحث أسلوب ممارسة الكنيسة لدور ضاغط أكثر فعالية فى المجالات السياسية والاجتماعية.. ذلك المؤتمر الذى تم بعيدا عن الأضواء، وتم التعتيم عليه إعلاميا يعد سابقة خطيرة، ليس لها مثيل فى التاريخ، الذى شهد عداء بين الجانبين قرابة عشرين قرنا من الزمان.

الأسلوب الأمريكى فى التدخل :

وقد يكون مناسبا أيضا الإشارة إلى الأسلوب الأمريكى المستقبلى للتدخل فى كل من منطقة الشرق الأوسط وامتدادها الجيوستراتيجى (وسط آسيا والقوقاز)، من خلال ما جاء بمقترحات الرئيس الأمريكى للموازنة عن العام ١٩٩٥م، والتى صودق عليها فى فبراير ١٩٩٤م، وكان مما جاء بهذه الوثيقة ما يلى :

تقوم الولايات المتحدة بتحقيق قيادتها لكوكب الأرض من خلال محورين:

المحور الأول – فتح الأسواق العالمية أمام المنتجات والشركات الأمريكية كى تؤكد أمريكا أنها «القوة التصديرية العالمية العظمى».

المحور الثانى - حمل العالم كله على السير وفقا للقيم الأمريكية، واتخاذ الديموقراطية الغربية منهاجا سياسيا، والمشروع الخاص منهاجا اقتصاديا، والالتزام بمبادىء حقوق الإنسان، كما يفهمها الغرب، حتى لو تعارضت والقيم عند أمم أخرى.. بل مع العلم بأن هذه الاستراتيجية سوف تؤدى بالضرورة إلى إحداث اضطرابات داخلية فى الدول التى يتم التدخل فيها.. وهذه الاضطرابات، التى توصف بأنها (عرقية، أو طائفية، أو ما شابه ذلك) تعد البيئة المناسبة للتدخل العسكرى والسياسى والاقتصادى والثقافى بغاية نهائية مؤداها إخضاع شعوب العالم كله، وفرض الاستسلام عليها.

ولإدراك الولايات المتحدة الأمريكية استحالة قيامها وحدها- مهما بلغت قوتها - بفرض هذه الاستراتيجية فقد عمدت إلى :

أ- تطويع الأمم المتحدة، ومن ثم القانون الدولى (الابن الشرعى للثقافة اليهودية النصرانية الأوروبية، الذى أعلن نهائيا عن وفاته ودفنه فى المسافة بين القدس وسراييفو.. ولا عزاء للمسلمين !!

ب- التحالف الاستراتيجى مع إسرائيل فى إطار المشروع الصهيونى العالمى، بحيث أصبحت إسرائيل جزءا من الجسم الأمريكى، إلا أن هذا الجزء هو الذى يهيمن ويسير هذا الجسم كله.

جـ- استيعاب أوروبا الغربية، وربط مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية بالولايات المتحدة الأمريكية، فلا تستطيع الإفلات .. وقد تأكد هذا بصفة نهائية بعد أن وضعت الولايات المتحدة الأمريكية يدها على أهم مصادر البترول، فتحكمت بذلك فى الاقتصاد الأوروبى واليابانى تحكما تاما.

ومن ناحية أخرى قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتأكيد تبعية أوروبا لها من خلال تنشيط منظمة حلف شمال الأطلنطى، وتوسيع نطاق عضويتها،

وتعديل مهمتها لتصبح فرض السلام على مناطق لم تكن داخلة فى مجال عملها من قبل، مع التركيز على منطقة وسط وشرق أوروبا، والشرق الأوسط، لمحاصرة الاتحاد السوفيتى سابقا ريثما يتم تصفيته نهائيا.

د- شغل كل من اليابان والصين بحرب تجارية فى محاولة لإخراجهما من مسرح الصراع العالمى.

هـ - الهيمنة الكاملة على حركة وتصرفات دول إسلامية كبرى (بعينها وتسخيرها لتنفيذ الاستراتيجية الأمريكية الكوكبية المسماة بالنظام العالمى الجديد.

و- تحويل روسيا الاتحادية من إمبراطورية كانت إحدى قوتين عظميين لأكثر من أربعين عاما إلى مجرد مطية يتم تسييرها بأسلوب العصا والجزرة.

هذا، وتعتمد الولايات المتحدة الأمريكة فى استراتيجيتها ذات المحورين على :

- التفوق التكنولوجى خاصة فى مجال الإعلام والمعلومات، الذى وضعوا له برنامجا يقوم على أساس التوسع فى مجال جمع وتبادل المعلومات والأفكار من خلال نظام للربط بين مراكز المعلومات ، لتصب فى النهاية فى الولايات المتحدة الأمريكية، أطلق عليه (أى الطريق فائق القدرة لجمع المعلومات)، ويكتمل بناؤه ليشمل ٢ر٥ مليون جهاز كمبيوتر حتى عام ١٩٩٨م.

- إجراء تعيلات جذرية فى تنظيم وأسلوب استخدام القوات المسلحة لمواجهة ما سمى بالأخطار الجديدة، فتم وضع برنامج ينفذ خلال الفترة من ١٩٩٣م حتى عام ١٩٩٩م، أطلقوا عليه أى مراجعة تنظيم القوات المسلحة من القاعدة إلى القمة، وفلسفته أن تظل للقوات الأمريكية التفوق، وأن تكون جاهزة للقتال والتدخل السريع، وأن تحقق تواجدا فى ماوراء البحار له مصداقيته.

خطة التدخل الأمريكى المسلح :

أما الأخطار الجديدة التى تستعد القوات المسلحة الأمريكية للتدخل فيها فهى

أ- التدخل فى الصراعات الإقليمية والداخلية (العرقية - الطائفية)، وذلك لفرض السلام، وفق الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة، أو الحفاظ على السلام، وفقا للفصل السادس من الميثاق

ب- منع انتهاكات حقوق الإنسان ، أو الارتداد عن الديموقراطية.

جـ- إيقاف انتهاكات البيئة، باعتبار أن حماية البيئة العالمية هى من الأولويات المتقدمة للإدارة الأمريكية.

د- تأمين المصالح الاقتصادية الأمريكية، وفى مقدمتها البترول، والتصدير.

هـ- حماية تقديم المعونة الإنسانية.

و- محاربة الإرهاب، ومنع وقوع الجرائم.

ز- محاربة عمليات تهريب المخدرات.

ح- منع انتشار أسلحة التدمير الشامل والسيطرة على التسلح.

مما سبق يتضح أن الظروف الدولية الحالية - وإلى مدى لا يعرفه إلا الله- هى ظروف لا تسمح إلا بقدر محدود من التنافس بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية وإسرائيل من جانب، وغيرها من القوى الدولية من جانب آخر، فى حين تسمح للتحالف الغربى بالسعى نحو فرض الهيمنة على جمهوريات وأقاليم الاتحاد السوفيتى سابقا فى إطار الاستراتيجية الكوكبية التى ينتهجها هذا التحالف منذ قرابة خمس سنوات أو يزيد.

طبيعة واتجاهات الصراع فى الجمهوريات والأقاليم الإسلامية بالاتحاد السوفيتى السابق

١- طبيعة الصراع :

إذا استعدنا إلى الذاكرة محورى الحركة الأمريكية الغربية نجدهما: المحور الثقافى (بمَا يحتويه من قيم وعقائد ومفاهيم ومناهج حياة، والمحور الاقتصادى) بما يحتويه من مال وتجارة ومصادر طاقة وغيرها .. ولا تتم الحركة على هذين المحورين إلا باصطحاب القوة المسلحة بالأسلوب الجديد، الذى يتجنب توسيع نطاق النزاعات المسلحة وحصرها فى إطار ما يسمى بـ «النزاعات المسلحة منخفضة المستوى»، وبدون أو بأقل قدر ممكن من الاستفزاز مع تسخير قوى وسلطات إقليمية محلية تعمل بالتعاون أو بالوكالة عن التحالف الأمريكى /الغربى/ الإسرائيلى.

هذه -كما أتصور- طبيعة الصراع فى الجمهوريات والأقاليم الإسلامية بالاتحاد السوفيتى السابق .. ولعل الأمر يحتاج منا إلى بعض التفصيل :

لقد ورثت روسيا الاتحادية الاتحاد السوفيتى وراثة شاملة، من النواحى القانونية الدولية، والاقتصادية، والعسكرية، بل والسياسية أيضا إلى حد كبير. كما ورثت أيضا الأمراض الاجتماعية والثقافية التى خلفها العصر الشيوعى، قرابة سبعين عاما.

لذا نجد أن روسيا الاتحادية لاتزال هى الدولة المحورية التى تدور حولها جمهوريات الاتحاد السوفيتى سابقا، بالصورة التى تخدم استراتيجية الغرب.

يساعد على هذا الوضع وجود روابط مالية واقتصادية وغيرها لم تنفصم بعد، فضلا عن وجود جاليات روسية كبيرة فى معظم هذه الجمهوريات، خاصة

الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا.. إلى درجة أن هذه النسبة تزيد على ٢٥٪ فى بعض المجتمعات.. وهى تعانى أوضاعا غير مستقرة، الأمر الذى ستتخذه روسيا الاتحادية ذريعة للعودة إلى التدخل فى هذه البلدان تحت زعم حماية مواطنيها.

ومن الناحية الثقافية فإن القول بزوال الكوادر الماركسية بمجرد انهيار النظرية وسقوط دولتها هو قول ينقصه الدقة، فلا يزال مؤيدوا الامبراطورية السوفيتية يقبعون فى خنادقهم يترقبون الظهور ولو تحت أقنعة مختلفة للدفاع عن مصالحهم بنفس العقلية التى تشكلت بداخلهم طوال عشرات السنين، ومنهم من يتبوأ مناصب سياسية عليا بالفعل.

من ناحية أخرى نجد أن التحالف الأمريكى / الأوروبى/ الإسرائيلى يسعى إلى هدفين متعارضين :

الهدف الأول - هدم روسيا الاتحادية استكمالا لعملية تفكيك الاتحاد السوفيتى، لأن بقاء روسيا الاتحادية مع ما تمتلكه من قوة بشرية، وإمكانات تكنولوجية، وأسلحة استراتيجية وغيرها، يعد بمثابة تهديد حقيقى لأوروبا الغربية، إذا ما صعد إلى قمة السلطة هناك من يستعيد قوة روسيا، ويحاول بسط نفوذها على معسكرها السابق. ويزيد من هذه المخاوف عودة الشيوعيين من الأبواب الخلفية، وعن طريق الممارسة الديموقراطية، ليحكموا معظم بلدان أوروبا الشرقية، وبعض الجمهوريات السوفيتية السابقة.

وفى روسيا الاتحادية ثمانى جمهوريات ذات أغلبية إسلامية (تاتاريا، بشكورتوستان، شيشان، أنغوش، داغتسان، قبردينو، بلقاريا)، وغيرها، فضلا عن الأقاليم الإسلامية ذات الحكم الذاتى بداخل الاتحاد الروسى، والأقاليم أو الجمهوريات التى كانت إسلامية، وتم إجلاء أهلها عنها فى عهد ستالين، مثل أوسيتيا الشمالية.

وتعد عملية هدم روسيا الاتحادية أحد المعضلات الخطيرة التى تواجه التحالف الغربى، لما قد يحدث عنها من فوضى عارمة لا يمكن السيطرة عليها، لذا فهم يحاولون الهدم عن طريق خنقها اقتصاديا، وإحداث تحلل داخلى بالمجتمع من خلال نقل الثقافة الغربية بما فيها من أمراض اجتماعية قد لا يقوى المجتمع الروسى على تحملها.

الهدف الثاني - استخدام روسيا الاتحادية، كدولة حارسة، تسيطر على الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا والقوقاز والقرم، لصالح الغرب، اقتصاديا وثقافيا، وتحول دون أن يملأ الإسلام الفراغ العقائدى والأيديولوجى الذى خلفه انهيار الماركسية.. لذا فليس غريبا أن نجد الصراع، الساخن منه وما تحت السطح، يدور على الأراضى الإسلامية من الاتحاد السوفيتى سابقا، فى حين انفصلت الجمهوريات الأوروبية، التى تعد امتدادا للحضارة الغربية، انفصلت فى سلام دون إثارة نزاع، وأخص بذلك إستونيا، ولاتفيا، وليتوانيا. وحدث نوع من الوفاق مع أخرى مثل روسيا البيضاء ولاتفيا.

ولئن كان هذا هو الهدف الثانى للتحالف الغربى /الصهيوني فإن الزعامة الروسية الحالية، والمستقبلية تتبنى نفس الهدف. وقد اتضح هذا من خطاب بوريس يلتسين الذى وجهه بالتليفزيون إلى الشعب بمناسبة بداية عام ١٩٩٤، واعتبره البعض تطابقا مع أهداف أصحاب الاتجاه اليمينى بزعامة «جيرينوفسكى»، إذ تعهد يلتسين بأن يتم خلال عام ١٩٩٤م التدخل فى الجمهوريات السوفيتية السابقة لحماية مصالح الروس الذين يعيشون هناك بطريقة أكثر قوة وحسما.

فإذا ما استبعدنا من هذا الهدف الدول الخمس المذكورة أعلاه، فلن يكون تدخل روسيا إلا فى الدول الإسلامية الست (فى وسط آسيا والقوقاز)، فضلا عن مساعدة أرمينيا فى عدوانها على أذربيجان، والتدخل فى الجمهوريات

الإسلامية التى أعلنت انفصالها عن الاتحاد الروسى، للهيمنة على إقليم «أبخازيا»، وشبه جزيرة القرم المتنازع عليها مع أوكرانيا، وذلك لاستعادة الهيمنة على شبه جزيرة القرم، وبها جالية مسلمة كبيرة، هى الباقية بعد طرد سكانها المسلمين، الذين يعودون الآن إلى بلادهم فى جماعات.

هذا التوجه الروسى الذى يدعمه الغرب، ويستغله للتدخل المباشر، وغير المباشر، عن طريق الأمم المتحدة ومنظماتها، ومراقبيها، وقوات حفظ السلام التابعة لها، وعن طريق ما يسمى بمنظمات تقديم المعونة الإنسانية والطبية.. إلخ يلقى بظلال كثيفة على المجتمعات الإسلامية فى كل أنحاء الاتحادالسوفيتى سابقا ويعرضها لمخاطر جمة.

هذا، ومن الأمور المتوقعة أن نشهد اضطرابات عرقية / طائفية فى الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز- خاصة فى قازاخستان - كبرى الجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا، بالنظر إلى أرضها الشاسعة وغناها بالموارد الطبيعية، وامتلاكها التكنولوجيا النووية والفضائية وغيرها، وقد تؤدى هذه الاضطرابات إلى طرد مئات الآلاف من الروس إلى روسيا أو قيام هذه الأخيرة بتشجيع حركة انفصالية، لفصل الشمال الغربى ذى الأغلبية الروسية عن الجنوب.

كما أن من المتوقع إثارة صراعات حدودية بين الدول الإسلامية ذاتها، خاصة بين أوزبكستان، أكبر دولة إسلامية فى وسط آسيا، من حيث عدد السكان، والتى تضم أكبر تجمع إسلامى فى الاتحاد السوفيتى سابقا، وبين جارتيها طاجيكستان وتركمنستان، أو بينها وبين أفغانستان، بسبب زيادة الصحوة الإسلامية ، ونشاط الإسلاميين فى هذه البلدان الثلاثة ..

ولا غرو، فعلى الرغم من تمتع أوزبكستان بقدر كبير من الاستقلالية عن موسكو، وعلى الرغم من دعوة رئيس جمهوريتها «إسلام كريموف» إلى تعاون

أوثق بين جمهوريات وسط آسيا التى تتوسطها بلاده، وذلك لملء فراغ القوة الذى تركته موسكو بعد تفكك الاتحاد السوفيتى ..

رغم هذا فإن حديثا له فى التليفزيون الروسى فى سبتمبر عام ١٩٩٢م يظهر لنا الوجه الآخر إذ قال : « أود أن أقول بوضوح : إننا نعتبر روسيا هى الضمان لأمن منطقتنا ، وإذا لم يفهم الروس هذا فإن حدودهم البعيدة - خاصة بين طاجيكستان وأفغانستان، وبين تركمينستان وإيران - سوف تصبح قريبة» !

فهل يقصد بهذا استعداء روسيا على الحركة الإسلامية فى كل من طاجيكستان وتركمينستان، وهو أمر يزعج الغرب كثيرا، بقدر ما يزعج روسيا التى تعتبر أن الصحوة الإسلامية فى هذه البلدان قد تعيد الحيوية للحضارة الإسلامية من جديد ؟

ولا يخفى أن لبلدان وسط آسيا والقوقاز، فضلا عن ما ذكر، أهمية اقتصادية ممثلة فيما فى أراضيها من ثروات طبيعية، منها اليورانيوم والبترول.. وغيرها مما لا يقل عنها فى الأهمية. ولا يمكن للباحث إغفال الأهميتين الثقافية والاستراتيجية لهذه البلدان، وهما أمران يتصلان بالتاريخ الإسلامى.

فأما الأهمية الثقافية فمعروفة، وأما الأهمية الاستراتيجية فنجدها فى أن هذه البلدان هى البوابة الشمالية للأمة الإسلامية، وهى الدرع الذى حمى الإسلام طويلا، وبسقوطها تعرضت الأمة الإسلامية لأخطار جمة أدت فى النهاية إلى تفكك وحدة أراضيها.

ولا غرو فالجمهوريات الإسلامية فى وسط آسيا والقوقاز تعد بمثابة الدرع فى المربع الأمنى الإسلامى والذى تشكله «تركيا - إيران - أفغانستان - باكستان - الصومال - السودان - مصر»، وهو المربع الذى يقع فيه معظم المسلمين فى العالم، وبداخله مقدسات الأمة، ومراكزها الثقافية الكبرى، فضلا عن معظم ثرواتها، وعقد المواصلات البحرية والبرية فيها.

ولئن كانت الأوضاع في وسط آسيا تهدد بالخطر بل إن الخطر قد وقع فيها بالفعل، والتدخل الغربي والروسي والإسرائيلي بلغ مدى بعيدا في هذه البلدان، فإن الأمر يعد أكثر خطورة في القوقاز، الذي أصبحوا يسمونه بالقوقاز المتطار، أو القوقاز الذي يغلي، تلكم المنطقة التي يعد استمرار الصراع فيها أحد متطلبات النظام العالمي الجديد.

وجبال القوقاز هي الحد الفاصل بين الحضارتين الإسلامية والأوروبية، لذا يمكن القول بأن هناك ارتباطا تاريخيا وعقائديا وجغرافيا بين الصراع الساخن الدائر في كل من البوسنة والهرسك من جانب، والقوقاز من جانب آخر، ومحاولات إقامة دولة كردية تحت الحماية الغربية / الصهيونية، على حساب العراق وتركيا وإيران وسوريا وأذربيجان، من جانب ثالث .. ولئن حدث هذا فلسوف يتمكن الغرب والصهيونية العالمية - رغم اختلاف توجهاتهما وتوافقهما على العداء للإسلام في آن واحد - من احتواء الثورة الإسلامية في إيران، وتقسيم العراق وسوريا، والوثوب على حليفتهم المؤقتة تركيا لاستعادة ما يدعونه أراضي الدولة الرومانية الشرقية !

هذا، وللصراع في القوقاز بعد اقتصادي يتمثل في ما بها من ثروة بترولية ضخمة (كانت أذربيجان تنتج ٥٠٪ من بترول العالم في مطلع القرن العشرين، وكان إنتاجها يمثل ٩٥٪ من احتياجات الاتحاد السوفيتي، ولا يزال بها احتياطي يقدر بسبعة بلايين برميل بخلاف مالم يكتشف بعد..) كما أن هذه البلاد تتمتع بإمكانات سياحية كبيرة.

وللصراع في هذه البلاد هدف مزدوج. فمن ناحية يعد تعطل الطاقات الاقتصادية بسبب الحرب الدائرة على أراضي أذربيجان، وأبخازيا، وأوسيتيا الجنوبية، وأنغوش وشيشان، بمثابة حرمان لروسيا من هذه الطاقات، ومنع قيام كيان إسلامي قوي على هذه الأراضي .. ومن ناحية أخرى فهو يتيح الفرصة

ويهيىء المناخ الملائم للتدخل الأمريكى / الغربى / الإسرائيلى، خاصة وأن معظم يهود الاتحاد السوفيتى يسكنون هذه البلاد.

ومن جهة أخرى فإن للصراع فى القوقاز بعدا عقائديا/ ثقافيا، لذا فإن الغرب يؤيد أرمينيا فى حربها ضد أذربيجان، ويعتبرونها حربا صليبية للسيطرة على جبل قارباخ أو «ناجورنو قاراباخ» الذى يعد مكانا مقدسا، إذ رست على إحدى قممه (قمة أرارات) سفينة نوح عليه السلام، فهو بقعة من بقاع الجنة فى نظرهم.

٢- محاولة حجب الهوية الإسلامية:

سارع التحالف الغربى بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، منذ اللحظة الأولى، إلى تصدير ثقافته إلى الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز، خشية أن يملأ الإسلام الفراغ العقائدى والأيديولوجى الذى ظهر منذ عام ١٩٨٥م بعد انسحاب الماركسية وسقوطها.

ولم تكن مخاوف الغرب مجرد أوهام، فقد كانت هناك صحوة إسلامية حقيقية بدأت تظهر على السطح منذ عام ١٩٨٦م وظهرت فى شكل سياسى عندما تشكل «حزب النهضة الإسلامى» كحركة سياسية مشروعة بموجب القانون الروسى، وعقد الحزب أول مؤتمراته بمدينة استراخان التتارية عام ١٩٩٠م. ومد نشاطه - بصورة غير رسمية - إلى باقى البلدان، خاصة طاجيكستان وأوزبكستان. وقد استلهم الحزب خطوات الثورة الإسلامية فى إيران فأعلن فى أول مؤتمراته: «أن أهداف حزبنا مماثل تماما لأهداف الثورة الإيرانية».

وكما يستغل التحالف الغربى روسيا فى تدخله العسكرى والاقتصادى فإنه استغل تركيا - لما لها من روابط تاريخية وثقافية - استغلها فى تدخله

الثقافى والاقتصادى أيضا. وقد لاقى التحرك التركى قبولا من السلطات الحاكمة فى هذه البلدان، فصيغت دساتيرها على غرار الدساتير العلمانية، وأعلنت تبنيها للديموقراطية الغربية، واستبدلت بالحروف الروسية حروفا لاتينية، فلم تعد هذه البلدان إلى الحروف العربية، وهذا فى حد ذاته يعوق استعادة شعوب هذه البلدان لثقافاتها الإسلامية إلا من هدى الله.

ومع ذلك فإن معظم المسلمين فى الاتحاد السوفيتى سابقا فى شوق لاستعادة هويتهم، بعد أن خلعوا ربقة الماركسية، التى ألصقت بهم جبرا، وقد تلقوا من الدول الإسلامية ملايين من نسخ القرآن الكريم، ومنها ما كان مصحوبا بترجمة معانيه إلى الروسية.. وأقيمت المراكز الإسلامية، ودخل الإسلام المؤسسات التعليمية بصورة أو بأخرى، كما أن بعثاتهم تتوجه إلى الأزهر الشريف وإلى مكة المكرمة للحج، فضلا عن بدء حركة لبناء وتجديد المساجد، وتحفيظ القرآن الكريم .

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف].

فتمسلك معظم مسلمى الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز وروسيا الاتحادية بتقاليده، وتشوقهم لاستعادة هويتهم الإسلامية - حتى وإن كان حظ الكثيرين منهم من الإلمام بالإسلام وممارسة شعائره ضعيفا - يهيئ بيئة مناسبة لاستعادة تلقى الإسلام وتعاليمه وآدابه، ومن ثم يستعيدون هويتهم .. وربما عادوا ليحملوا أمانة الدعوة الإسلامية إلى العالمين يوما ما.

﴿ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ [يوسف].

٣- المحور الاقتصادى للهيمنة على الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز:

لاشك أن اتباع الاشتراكية يجلب الخراب والفقر، لكن تغيير الاتجاه من الاشتراكية إلى الرأسمالية هو الانهيار بعينه، لأنه يؤدى بالضرورة إلى السقوط فريسة لصندوق النقد الدولى بشروطه التى يمليها المهيمنون عليه، وإلى استغلال الشركات الغربية، الصهيونية فى معظمها، وإلى اسخدام الربا (الفائدة) طريقا من أهم طرق ما يسمى بالإصلاح الاقتصادى. ذلك هو أحد طريقى الغرب للهيمنة على الجمهوريات الإسلامية.

أما الطريق الثانى: فهو إقامة تجمعات اقتصادية هشة، بها من المتناقضات ما يجعلها عديمة الجدوى، تدفع للتأخر وتعرقل أكثر مما تقدم العون. مثل هذه التجمعات يخطط لها الغرب، ويكلف بها من يدعو إليها ويتزعم حركة إقامتها، ثم لا تتعدى نتائجها توقيع وثيقة قيامها. من ناحية أخرى نجد أن تعدد هذه التجمعات يحدث تشتيتا للجهد وإضاعة للهدف. وقد نذكر فى هذا المقام التجمعات الاقتصادية التالية :

أ- المنظمة الاقتصادية للبحر الأسود :

وهى فكرة أمريكية تم تمريرها عام ١٩٨٩م إلى القيادة التركية فى مطلع عام ١٩٩٠م، ووقع ميثاقها فى ٣ فبراير عام ١٩٩٢م، ويضم التجمع دولا من البحر الأسود، ودولا أخرى من خارج المنطقة، فهو يضم كل الدول الإسلامية فى وسط آسيا والقوقاز، وكلها دول لا تطل على البحر الأسود، كما أن هذا التجمع يضم دولا مختلفة فى ثقافتها وانتماءاتها، فهو يضم تركيا (المسلمة العضو بحلف شمال الأطلنطى وغير العضو بالاتحاد الأوروبى، وعدوتها اليونان (العضو بالاتحاد الأوروبى)،

ويضم أرمينيا، وأذربيجان ؛ وروسيا وأوكرانيا اللتين تتنازعان السيطرة على شبه جزيرة القرم، ذات الأغلبية المسلمة، والأهمية الاقتصادية الكبيرة، والتى تحتل موقعا استراتيجيا هاما بداخل البحر الأسود، وكانت تابعة لروسيا حتى منحها «نيكيتا خروتشيف لأوكرانيا عام ١٩٥٤م، ثم عادت روسيا تطالب بها منذ عام ١٩٩٠م، إلى أن أصدر البرلمان الروسى استعادتها من أوكرانيا - التى لاتزال تسيطر عليها من ناحية الواقع - وذلك فى يوليو ١٩٩٣.

لقد دفعت أمريكا كلا من تركيا وروسيا لإقامة مثل هذا التجمع المتناقض فى ذاته، الذى لا يحمل ميثاقه سوى أهداف اقتصادية متواضعة، على حين يركز الميثاق على أن الهدف الأسمى لهذه المنطقة الاقتصادية هو سرعة الاندماج فى النظام الاقتصادى العالمى، وهى خطوة ضرورية كى يتم التحكم المركزى فى الاقتصاد العالمى، كما تملى أهداف ما يسمى بالنظام العالمى الجديد

بيد أننا نجد أوروبا، التى تسعى بعض دولها ذات الوزن فى الاتحاد الأوروبى، مثل فرنسا وألمانيا، إلى إلحاق هذه المنطقة الاقتصادية، فى مرحلة تالية، بالاتحاد الأوروبى ، تحقيقا لفكرة إقامة البيت الأوروبى المشترك. وهى فكرة تلقى قبولا من كل الدول الأعضاء، بما فى ذلك الدول الإسلامية الواقعة فى آسيا

ورغم وجود تناقض وتنافس بين الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية فى هذا المجال إلا أن الجانبين يستخدمان نفس الأدوات، ويريدان لهذا التجمع الهش نفس المصير، كما أن لهما وراء إقامة هذا التجمع هدفا سياسيا واحدا، وهو حمل هذه الدول جميعا على السير وفقا للمقتضيات الثقافية والسياسية الغربية،

لذا نجد أن الميثاق قد جاء مركزا على ضرورة أن تحترم دول هذه المنطقة الاقتصادية قيم الحرية والديموقراطية، وحقوق الإنسان، والحريات الأساسية، وضرورة أن تسجل هذه الدول كل هذا فى دساتيرها.

ولعل ما دفع روسيا إلى القيام بدور الوكيل عن الغرب فى إقامة مثل هذا التجمع هو تطلعها لاستعادة الامبراطورية الرومانية الشرقية بكنيستها الأرثوذكسية التى تمتد من روسيا الاتحادية وأوكرانيا حتى شبه جزيرة البلقان، مرورا بأوروبا الشرقية خاصة رومانيا وبلغاريا، ولا تنسى روسيا فى هذا المجال هدفها الدائم فى ضرورة الوصول إلى المياه الدافئة، لذا كان ترحيبها بهذا التجمع رغم ما فيه من تناقض.

أما تركيا فقد لعبت دور السمسار والوكيل أملا فى تحقيق هدف لطالما سعت إليه، هو أن تحصل على مكافأة هى الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، الذى يرفض ضم تركيا إليه لسبب واضح يعلنونه دون مداراة، وهو أنها دولة إسلامية، فهى رغم وقوعها فى أوروبا، إلا أنها تختلف عن باقى دول الاتحاد الأوروبى ثقافيا..

ولا يخفى أن لتركيا هدفا آخر، فعلى الرغم من أن التعاليم الكمالية (نسبة إلى مصطفى كمال الملقب بأتاتورك) تدعو إلى فصل تركيا عن باقى الدول التى كانت تكون دولة الخلافة الإسلامية حتى عام ١٩٢٣م.

إلا أن التاريخ والحضارة المشتركين بين تركيا وهذه البلدان، فضلا عن وحدة العقيدة لا يمكن محوها جميعا من الوجدان، فهى جميعا تعد دافعا قويا يدفع تركيا نحو محاولة استعادة مكانتها الإقليمية والدولية.

ب - منظمة تعاون دول بحر قزوين :

وهى تضم روسيا وإيران وقازاخستان وتركمنستان وأذربيجان وتستهدف روسيا من وراء إقامة هذا التجمع استعادة السيطرة على بحيرة البترول ومخزن

الغاز الطبيعى الهائل فى منطقة بحر قزوين، وعلى الملاحة والتجارة فى هذا البحر المغلق. كما تستهدف روسيا وإيران استبعاد تركيا من هذا التجمع.

ولا يخفى ما لإيران من هدف هو استعادة منطقة تشكل بالنسبة لها تاريخا وحضارة، فضلا عن وحدة العقيدة، وهو ما يتمشى والنظرة الجيوبوليتكية للثورة الإسلامية فى إيران، التى قد تجد فى الامتداد للشمال فرصة أكبر من الامتداد غربا عبر الخليج.

جـ - المنطقة الحرة للدول الاثنتى عشرة :

من جهة أخرى نجد روسيا تتطلع لأن تلعب دورها الاقتصادى الخاص بها دعما لموقفها الاقتصادى المتردى، واستعادة ليهمنتها على إمبراطوريتها السابقة دون استعادة الاتحاد السوفيتى، إذ لن يسمح لها باستعادته.. فعجلة التاريخ لا تسير إلى الوراء مطلقا !!

من أجل هذا كانت محاولة روسيا فى يناير ١٩٩٣م جمع كل دول «كومنولث الدول المستقلة» فى تجمع اقتصادى يشبه السوق الأوروبية المشتركة التى تحولت الآن إلى الاتحاد الأوروبى، لكن محاولتها هذه باءت بالفشل، فكررت المحاولة خلال الأسبوع الثانى من أبريل ١٩٩٤م ووقعت بالفعل اثنتا عشرة دولة (بدون دول البلطيق الثلاث) على إقامة منطقة تجارة حرة بينهم ترفع فيها الحواجز التعريفية وغير التعريفية.

ورغم أن هذه الدول جميعا كانت تنتظمها دولة واحدة حتى عهد قريب إلا أن ما بينها من صراع يغذيه التدخل الأمريكى / الأوروبى الإسرائيلى لن يسمح لمثل هذا التجمع بالنجاح.

د- منظمة التعاون الاقتصادى (ايكو)،

وهى منظمة قامت منذ عام ١٩٦٥م بين إيران وتركيا وباكستان فى إطار استراتيجية أمريكية للهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، ومواجهة المد الشيوعى، لكنها لم تحرز نجاحا يذكر، وتجمد نشاطها بقيام الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩م، إلى أن أعيد فتح ملفها عام ١٩٩٠م .

واتفقت الدول الثلاث يوم ١٥ فبراير ١٩٩٢م على أن تستأنف المنظمة نشاطها، وأن تضم إليها الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز، فضلا عن أفغانستان. وفى يوم ٢٨ فبراير ١٩٩٢م، أصبحت المنظمة مكونة من عشر دول، وإن كانت طاجيكستان لم توقع بعد على ميثاقها، واكتفت قزاقستان بدور المراقب.

ولئن خلصت النوايا، وتخلص زعماء المسلمين من الاستجابة للضغوط الصهيونية الصليبية، ولم يسارعوا فيهم فيوردوا قومهم موارد الهلاك، لئن حدث هذا فإن مثل هذا التجمع يعد واعدا، إذ يضم قرابة ٣٠٠ مليون مسلم، ولديه قدر هائل من الثروات الطبيعية، وقاعدة تكنولوجة مناسبة، وطرق مواصلات ومصادر طاقة كافية لإحداث التقدم الاقتصادى.

ولهؤلاء حجم تجارة عالمية يتجاوز ٣٠٠ مليار دولار سنويا، وهو يجاور دول مجلس التعاون الخليجى، ومن ثم يستطيع التجمعان أن يتكاملا - إذا صلحت النوايا - وتقوم بهما نواة السوق الإسلامية المشتركة، التى أوصت منظمة المؤتمر الإسلامى، ولاتزال توصى منذ عام ١٩٨١م.

إسرائيل والأهداف ذات الطبيعة الخاصة :

كان لليهود اليد الطولى فى صياغة النظرية الماركسية، وفى إقامة الاتحاد السوفيتى وبقائه، وفى هدمه أيضا بعد أن استنفدت الصهيونية العالمية الهدف من وراء وجوده.

ولا غـرو، فالهجرات اليهوديـة الثلاث الأولى كانت من الدول التابعة للإمبراطورية الروسية، والغالبية العظمى من قادة إسرائيل منذ صدور وعد بلفور وحتى الآن كانوا من يهود وسط آسيا والقوقاز وروسيا وأوكرانيا، وشرق أوروبا. وكان للاتحاد السوفيتى وزر الصياغة النهائية لقرار تقسيم فلسطين رقم ١٨١، لعام ١٩٤٧م.

وكان للاتحاد السوفيتى وزر أول من اعترف بقيام الدولة اليهودية، ودعمها فورا بالسلاح والمتطوعين إلى أن دعمت مكانتها بقبولها عضوا فى الأمم المتحدة، وكان الاتحاد السوفيتى من وراء تمكن إسرائيل من عدوانها عام ١٩٦٧م، ذلك العدوان الذى يعتبر أكبر الخطوات الصهيونية بعد قيام دولتهم.

وكان الاتحاد السوفيتى هو الوعاء الأكبر والأكثر أهمية للهجرات المكثفة لليهود، سواء منذ عام ١٩٧٢م وما بعدها، أو منذ عام ١٩٨٨م وما بعدها.

كما دعمت الصهيونية العالمية ميخائيل غورباتشيف فى إعلانه للبيرويسترويكا وأثناء الانقلاب الوهمى الذى وقع فى أغسطس ١٩٩٢م، وعندما أعلن حل رابطة الاتحاد السوفيتى، فإن اليهود أظهروا أنهم يستعدون للوثوب على السلطة فى روسيا الاتحادية بشكل سافر، فى شخص فلاديمير جرينوفسكى.

ولقد تمتع اليهود فى الاتحاد السوفيتى بالوضع المتميز فى ظل الماركسية، وكانوا أكثر الجاليات تعليما، وقدرة على الحراك الاجتماعى، وأكثرها تقدما اقتصاديا.

ونظرا لتمكن اليهود من المجتمعات السوفيتية، سواء من النواحى الاجتماعية، أو السياسية أو العلمية والتكنولوجية، فقد سارعت إسرائيل إلى مد الجسور مع كل الجمهوريات الجديدة فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى،

وساعدتها الولايات المتحدة الأمريكية من خلال ما قامت ، ولاتزال تمارسه من حوافز وإغراءات ومن ضغوط على القيادة الروسية لتيسير هجرة العلماء والمهندسين والفنيين اليهود إلى إسرائيل ولتيسير نقل ما تحتاج إليه إسرائيل من تكنولوجيا سوفيتية.

ولم تتوان إسرائيل عن إقامة العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والتجارية والعلمية مع الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز (عدا تركمنستان حتى الآن)، مستغلة النفوذ الصهيونى، ونفوذ الجالية اليهودية الكبيرة، والتى يحتل أعضاؤها مراكز تسمح لهم بعمل أى شىء هناك.

وقد قامت إسرائيل، ولاتزال بتبادل الخبرات مع الجمهوريات الإسلامية فى كل المجالات، وفى مجال تحويل المصانع الحربية إلى مصانع مدنية، هذا فضلا عن تعاونها مع روسيا وأوكرانيا فى المجال النووى ومجال الأقمار الصناعية.. وفى المجال الثقافى وغير ذلك.

وتطبق إسرائيل فى تحركها هذا استراتيجية الانتشار من خلال التكاثر ، بهدف الهيمنة على الحزام الذى يطوق قلب الأمة الإسلامية، ومربع أمنها، ثم من خلال الضغط من الخارج يسقط الطوق الإسلامى المحيط بها.

لذا فإن إسرائيل، وهى تسعى لنقل العلماء والتكنولوجيا إليها، وإقامة علاقات المصالح مع الدول الإسلامية الواقعة على أطراف الأمة، تعمل على حجب التكنولوجيا ومنع وصولها إلى الأمة الإسلامية. وهى تستعين فى ذلك بأمريكا وأوروبا، خاصة من خلال ما تقرره هذه الدول أثناء اجتمعات مجموعة الدول السبع الصناعية الكبرى من قيود صارمة على التكنولوجيا الغربية منها، والشرقية حتى لا تصل إلى أيدى المسلمين.

فإسرائيل بهذا تسير فى طريق تحقيق أربعة من أهم أهدافها القومية هى: الهجرة اليهودية -تنمية العلاقات الاقتصادية مع العالم الخارجى- الضغط

على الدول الإسلامية وعرقلة تعاونها مع العالم الخارجى - تنمية العلاقات الثقافية مع اليهود خارج إسرائيل، ومن ثم الاستفادة من جهودهم فى مجتمعاتهم الحالية.

نخلص من هذا كله إلى أن أمريكا وتحالفها الغربى والإسرائيلى، وأدواتها تسعى على محورين: أولهما ثقافى وثانيهما اقتصادى، وعلى الرغم من أن قلوبهم، شتى، فهم لايزالون يتفقون على العداء للإسلام والسعى نحو منع تحول الصحوة الإسلامية إلى نهضة حضارية، ومنع الروابط بين أجزاء الأمة الإسلامية، التى أصابها الوهن، رغم التواصل العقدى والتاريخى والجغرافى، منعها من أن تسترد عافيتها، فيصبح للأمة إرادة وعضلات تنفذ بها ماتريد !

ولا يجب أن يغيب عن بالنا ولو للحظة أن القوة المسلحة هى التى تحمى التحرك على المحورين الثقافى والاقتصادى، وأن أعداء الأمة يحسنون تسخير قوى أخرى - منها ماهو إسلامى بحسب عقيدة البشر فيه - لتصبح بمثابة قوة تضاف إلى قوتهم أثناء تدخلهم فى منطقتى وسط آسيا والقوقاز الإسلاميتين.

الفصل العاشر

جانب من الممارسات العملية

للتدخل الاقتصادى / العسكرى

لاشك أن أعداء الإسلام يدركون ما للجمهوريات والأقاليم الإسلامية الواقعة فى المنطقة الجغرافية لوسط آسيا والقوقاز، أو بالأحرى لحوضى بحر قزوين والبحر الأسود من أهمية جيواستراتيجية واقتصادية وحضارية وتاريخية، وأنها تمثل ركنا هاما من أركان الأمن الإسلامى فى شقه المادى، بل وكان لها إسهامها الكبير فى الشق المعنوى للأمن الإسلامى، أو أمن الأمة الإسلامية.

ويعلم أولئك أن تفكك الاتحاد السوفيتى سابقا قد ترك فراغ قوة أيديولوجيا، واقتصاديا، واستراتيجيا، وسياسى، وأن مثل هذا الوضع قد يكون من شأنه عودة هذه المناطق العزيزة إلى أمتها، فيعود الإسلام إلى سابق عهده، ويصبح أهله من جديد أمة قوية عزيزة.

الصهيونية والنظام العالمى الجديد :

هذا، ويخطىء أى باحث يحاول أثناء بحثه فصل هذه المنطقة عند دراستها عن أفكار واستراتيجية ما يسمى بالنظام العالمى الجديد، أو فصلها عن خمسة أمور أخرى هى :

- صعود الصهيونية العالمية وعلوها علوا كبيرا، وقيادتها للنظام العالمى الجديد، الذى يفسد فى الأرض ويشيع فيها الظلم، والله لا يحب الفساد.

- ما يحدث فى البوسنة والهرسك، والذى يوشك أن يشعل سائر البلقان، ووسط وشرق أوربا.

- الأحداث التى توالت منذ أزمة الخليج عام ١٩٩٠م وكان من نتائجها الوجود الغربى السافر، الذى يسعى إلى الهيمنة على منطقة شمال غرب المحيط الهندى بذراعيه (الخليج - البحر الأحمر)، وبما تحته من بحيرة بترول تمتد طبيعيا إلى حوضى بحر قزوين والبحر الأسود.

- المحاولات الأمريكية الصهيونية لاستيعاب غرب أوربا وإفشال مشروع وحدتها الاقتصادية، ونقل مركز حلف شمال الأطلنطى من المحيط الأطلنطى إلى حوض البحر المتوسط.

- وأخيرا فإنه لا يمكن فصل ما يحدث فى منطقة الجمهوريات والأقاليم الإسلامية بالاتحاد السوفيتي سابقا عن الصراع شبه الساخن الذى يدور على جانبى المحيط الهادى.

الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفيتي والصراع الساخن :

وحينما نتحدث عن ممارسات التدخل الغربى فى تلكم البلدان فإن علينا أن نتذكر ونأخذ فى اعتبارنا أربعة أمور :

١- أن هذه البلدان قد انفصلت عن أمتها منذ أمد غير قليل، وقد عانت شعوبها المسلمة ما عانته من قياصرة روسيا، وازدادت معاناتهم عندما تسلطت عليهم قوى الإلحاد والماركسية لأكثر من ستين عاما.. وقد أدى هذا بدوره إلى ثلاثة أمور :

١- طمس الثقافة الإسلامية لدى كثيرين من مسلمى هذه البلاد.

ب- خرجت هذه المجتمعات محملة بكل مثالب وعيوب النظرية الماركسية، بل خرجت محملة بالكوادر الماركسية التى لم تشأ إلا أن تظل على قمة المجتمعات، حتى ولو تحالفت مع أعدائها الأيديولوجيين سابقا، ولبست زيهم ورفعت شعاراتهم.

جـ - أن الصحوة الإسلامية بهذه البلدان قد اتخذت مادتها من رجال ونساء أقوياء العقيدة حقا، تمسكوا بدينهم فى ظل ظروف بالغة القسوة، وهم ليسوا على استعداد إلا للنصر أو الشهادة فى سبيل العقيدة.. فلا ينبغى التهوين من شأنهم، وليست العبرة فى الحكم عليهم بعددهم أو بما يملكون من وسائل مادية.. وإنما المعيار هو الإيمان .. يقول الحق جل شأنه :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر].

وللحق فإن هؤلاء ليسوا ظاهرة منفصلة، فهم مجرد حلقة قوية فى سلسلة تمتد فى كل أرض الله من أقصاها إلى أقصاها

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف].

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة].

٢- أن الأمة الإسلامية حاليا فى حالة من الضعف، بسبب وهن الإرادة السياسية، بحيث لا يمكنها التحرك الإيجابى صوب هذه البلدان إلا فى إطار ما يسمح به النظام العالمى الجديد لحكامها، بل ولخدمة أهداف هذا النظام العالمى الصهيونى فى غالب الأحيان ... إلا ببذل جهود مضنية قوامها الإخلاص.

وهذا لا يعنى أن الأمة جثة هامدة لا حياة فيها وإنما مكبلة، وإرادتها مصادرة.. وهذه أوضاع يمكن تصحيحها بالإيمان والعزيمة والصبر.

﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة].

٣- ثالث ما يجب علينا أن نأخذه فى اعتبارنا أن الاتحاد السوفيتى القديم قد انهار كيانه القانونى وتفككت أوصاله، لكن هزيمته وإنهاء جيوب المقاومة الكامنة فيه لم تستكمل بعد، وأهم أهداف الغرب هو استكمال هزيمة هذا الاتحاد، والحيلولة دون نمو كيانات قوية مكانه.

التحالف الغربى يسير فى طريقين :

الطريق الأول : استكمال تفكيك كل الكيانات التى نشأت عن الاتحاد السوفيتى السابق بما فى ذلك روسيا الاتحادية نفسها.. بأقل قدر ممكن من العنفوالاستفزاز.

الطريق الثانى : استخدام روسيا كوكيل لابد أن يحظى بقدر من التأييد، والحفاظ على قدر مناسب من التماسك حتى يتم المهمة .. وهم يفضلون إمبريالية روسية جديدة، عن ترك فراغ القوة فتملأه قوة إسلامية.

وتقع منطقة الصدام والتصفية فى وسط آسيا والقوقاز، أو بالأحرى فى حوضى بحر قزوين والبحر الأسود.

وأسلوب التصفية هو إدارة الصراع منخفض المستوى، ونزع السلاح فى ظل الفوضي، والتدخل من أجل اليهمنة على موارد الثروة، وإعادة تشكيل القيم والثقافة، التى تشكل العقيدة عمودها الفقرى.

ولقد رضى الاتحاد الروسى بدور الوكيل هذا، وأصبح القتال بداخل الاتحاد السوفيتى القديم على رأس أولويات الدولة فى ما سمى بحماية الأقليات الروسية خارج حدود روسيا الاتحادية الغربية أو ما يطلق عليه:

The Near Abroad.

وقد عبر عن هذا بروريس يلتسين فى الخطاب الذى وجهه إلى شعبه

بمناسبة بداية عام ١٩٩٤م وقال : «إنه يجب حماية مصالح هؤلاء بأقصى ما يمكن من القوة والحسم».

ومما يذكر أن ربع الأقليات الروسية فى الخارج (٢٥مليونا) توجد فى قازاكستان، والباقون فى مجتمعات وأراضى إسلامية من الناحية التاريخية أو الواقعية بالفعل، مثل : أبخازيا وأدجار وشبه جزيرة القرم وأوسيتيا الشمالية الجنوبية وقارباخ..وغيرها.

أولويات الاستراتيجية الروسية :

ويقف على رأس أولويات الاستراتيجية الروسية خلال العامين القادمين هدف القضاء على ما يسمونه بالأصولية الإسلامية الإرهابية (على حد تعبير وزير الخارجية الروسى أندريه كوزيريف) فى واشنطن يوم ١٢ سبتمبر ١٩٩٣م أثناء توقيع اتفاقية غزة أريحا.. ولم يكن الموقف يحتمل ما أدلى به من تصريحات ساعتها. ثم جاء تصريحه فى أول ديسمبر ١٩٩٣م بـ «أن مهمة القوات المسلحة هى وقف المد الإسلامى المتطرف فى وسط آسيا والحيلولة دون وصوله قرغيزيا وأوزبكستان خاصة».

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) ﴾ [آل عمران].

توزيع القوات الروسية :

لذا نجد القوات الروسية المخصصة لهذا الغرض موزعة كما يلى :

- ٢٤٠٠٠ جندى معظمهم من المتطوعين المحترفين - غير المجندين - هم قوام الفرقة ٢٠١ مشاة راكبة بتدعيماتها، تتمركز فى طاجيكستان وتقف

قرب الحدود مع أفغانستان.. لكنها تعمل فى الداخل بهدف فرض حظر تجوال دائم من منتصف الليل حتى الخامسة صباحا فى العاصمة دوشنبى.

- ١٥٠٠٠جندى فى تركمينستان على الحدود مع كل من أفغانستان وإيران.. ولها مهمة شبيهة بما سبق ذكره.

- ٩٠٠٠ جندى لتأمين حدود أرمينيا الجنوبية مع إيران وتركيا، حتى تفرغ قوات أرمينيا للقتال ضد أذربيجان.

- ٥٠٠٠ جندى فى أوزبكستان بهدف العمل ضد الحركة الإسلامية.

- ٢٥٠٠ جندى فى قرغيزيا لنفس الغرض.

- ١٠٠٠ جندى فى قازاكستان لحماية المحطة الفضائية والصواريخ النووية، وليكونوا قاعدة لقوات القوازق شبه العصكرية المتمركزة فى الشمال خاصة فى مدينة بتروبافلوفسك.

- ٥٠٠ جندى فى أذربيجان لحماية المنشآت البترولية.

هذا، وقد اتخذت القيادة الروسية قرارا بإعادة تمركز القوات القادمة من أوربا الشرقية والبلطيق، وقوامها بين ١٦٢-١٨٢ ألفا فى منطقة وسط آسيا والقوقاز، وتم هذا فى نهاية عام ١٩٩٥م . فضلا عن رشوة قدمت لروسيا للقيام بدور رجل الشرطة لصالح الغرب هى :

عمل ١٥٠٠٠ جندى روسى - يتقاضون مرتبات من الأمم المتحدة ويعملون تحت علمها- فى المنطقة !!

٤- رابع الأمور التى يتعين أخذها فى الاعتبار عند تناول مثل هذا الموضوع :

هو أن النظام العالمى الجديد الذى صيغ منذ عام ١٩٤٥م قد بدأ يشكل

بالفعل منذ هبط أول الجنود الأمريكيين فى منطقة الخليج بعد ٤٨ ساعة من غزو العراق للكويت.

ولا يقدح فى وجود هذا النظام أنه هلامى الشكل، قبيح المنظر، معتم اللون، ظالم فى قواعده وأحكامه، مبنى على وهم وحلم لن يتحققا بإذن الله، لأنهما يخالفان سنة الله فى خلقه وقضائه الذى لا يبدل.

ومن مقتضيات هذا النظام العالمى الجديد :

١- محاولة توحيد الثقافة والقيم والعقيدة لدى أهل الأرض جميعا، وتحويل العالم إلى مجتمع واحد.

٢- مركزية السيطرة على الاقتصاد العالمى وعلى البيئة العالمية.

٣- نزع السلاح تدريجيا .. وفرض السلام.

٤- السيطرة المركزية على الإعلام والمعلومات.

ووسيلة هذا متعددة الجوانب .. أهم جوانبها استخدام القوة المسلحة الأمريكية، مع إجبار الآخرين على التعاون معها والاندراج تحت قيادتها لتحقيق أهداف النظام العالمى الجديد.

ولما كانت المنطقة من شمال غرب المحيط الهندى، حتى حوضى بحر قزوين والبحر الأسود، تعد منطقة جيواستراتيجية واحدة، وأن هذه المنطقة تعد المكان الذى يعتبره النظام العالمى الجديد ميدان التصفلية النهائية للنظام القديم من وجهة النظر الجيوبوليتيكية.

إن الجمهوريات والأقاليم الإسلامية التى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى سابقا تعد ميدانا للتدخل من قبل القوة التى تعمل على الهيمنة على النظام العالمى الجديد، وتعد مجالا محدودا للتنافس الدولى.

تطلعات الغرب :

إن الغرب بزعامة أمريكا يتطلع إلى ثلاثة أمور:

أ- وضع يده على بترول تلك البلاد، وباقى ثرواتها الوفيرة.

ب- فتح أسواقها أمام منتجاتها.

جـ- الاستثمار فيها بهدف خلق وظائف تستوعب ما لديه من بطالة.

وقد أستطيع اقول : إن المرحلة الحالية هى مرحلة إعداد الميدان من خلال وضع الدساتير العلمانية، وسن قوانين ضمان الاستثمارات الأجنبية، وغيرها من القوانين التى تخدم هذا الهدف، وغرس قيم الديموقراطية الغربية، ونظام الاقتصاد القائم على المشروع الفردى بمفهومه الرأسمالى الغربى، والتمكين للشركات والبنوك الغربية.. إلخ، وبناء الهياكل القادرة على خدمة أهداف الغرب فى المرحلة التالية.

بيد أن الظروف المحيطة بهذه البلدان، وأنها حديثة عهد بالتحول (ظاهريا عن الاشتراكية الماركسية، وحديثة عهد بالانفصال عن روسيا، التى كان اقتصادها يتكامل مع اقتصاد كل من هذه البلدان بنسبة لا تقل عن ٨٠٪ فى الكثير من الحالات، قد أدى إلى توقف معظم المشروعات فيها، ولم تنجح فكرة إصدار عملة خاصة بهذه البلدان بعيدا عن منطقة الروبل، إذ تدهورت العملات التى تم إصدارها بسرعة، فضلا عن أنها ظلت حتى الآن مرتبطة بسعر صرف الروبل الذى يتدهور بسرعة هو الآخر، فمعدل التضخم فى روسيا بلغ ١٨٪ شهريا خلال عام ١٩١٤م.

المرحلة الحالية :

كل هذه الظروف ، فضلا عن تخوف الغرب من نمو الصحوة الإسلامية وتحولها إلى نهضة حقيقية، وتخوفه من تسرب التكنولوجيا النووية والفضائية

إلى البلدان الإسلامية المجاورة، كل هذه جميعا تجعل المرحلة الحالية فى غاية الخطورة، فهى لا تعدو كونها :

- تمييعا للهوية.
- والعمل على القتل الاقتصادى البطىء.
- ووضع اليد بهدوء على مصادر الثروة خاصة البترول.
- واستنزاف الأموال بتهريبها إلى البنوك الغربية.
- وإعداد هذه البلدان لتصبح سوقا مستقبلية للسلع والخدمات الغربية.
- وبعد تمام هذه المرحلة .. تأتى مرحلة الهيمنة الكاملة على هذه البلدان.
- ويعد بحر قزوين خليجا آخر، وامتدادا لبحيرة البترول العالمية.. وهو البحر الذى تقع عليه قازاكستان، وتركمينستان، وأذربيجان، والجمهوريات الإسلامية فى روسيا وجورجيا.

ويعد حقل بترول تنجز (غرب قازاكستان) واحدا من أكبر عشرة آبار بترول فى العالم، إذ به احتياطى يقدر بتسعة بلايين برميل.

ومن المنتظر أن تنتج البلدان الإسلامية الثلاثة (قازاكستان - تركمينستان - أذربيجان) ٤ ملايين برميل يوميا خلال سنوات قليلة من بدء تحسين وتطوير الإنتاج بها. كما أن احتياطى البترول لديها يقدر مبدئيا بخمسة وثلاثين بليون طن، وهو ثالث احتياطى بترول فى العالم بعد الخليج وسيبيريا .. وبالمنطقة أيضا أكبر حقول الغاز فى العالم.

الغرب والهيمنة الاقتصادية :

وللتدليل على زعمنا بأن الغرب يعمل على قتل هذه البلدان اقتصاديا فى المرحلة الحالية تمهيدا للهيمنة الاقتصادية الكاملة فى المرحلة التالية أسوق ما يسمى بأزمة أنابيب البترول أو ما يسمونه بحرب أنابيب البترول، وهى حرب

مصطنعة بطبيعة الحال، فهى لا تعدو تجميد أى مشروعات بترولية فى المرحلة الحالية، على الرغم من وجود عشرات شركات البترول الغربية فى المنطقة، وحصول الكثير منها على امتيازات استكشاف واستخراج منها.

فهناك كونسيرتيوم من ٨ شركات غربية فى أذربيجان، ونجد فى ألما آتا وحدها ٥٠ مكتبا لشركات بترول غربية منها : أوريكس - موبيل - دتش /شل - برتش بتروليوم - توتال (الفرنسية)- أجيب الايطالية - شفرون الأمريكية - إلف إكويتين (الفرنسية) - بريتش جاز، وغيرها.

نجد إنتاج البترول ما يزال متواضعا، بل ويتم إعاقة نقله إلى ميناء نوفوروسيسك على البحر الأسود، فقد كانت شركة شفرون الأمريكية تنقل بترولا من قازاكستان وأذربيجان إلى ميناء نوفوروسيسك الروسى (شمال شرق البحر الأسود) فتم تخفيض الكمية إلى النصف، وفرضت عليها رسوم عالية، ورسوم إضافية، تحت دعاوى حماية البيئة من التلوث، وغيرها من الحجج الواهية.

من جهة أخرى تم وقف ضخ البترول القادم من باكو (عاصمة أذربيجان) إلى ميناء باطومى عاصمة جمهورية أدجار الإسلامية التابعة لجورجيا على البحر الأسود.. ويتم حاليا مساومة أذربيجان لقبول تسويات إقليمية تتنازل فيها عن إقليم ناجورنوقاراباخ وغيره لصالح أرمينيا، فى مقابل حل أزمتها البترولية؟!

كما أن هناك مقاطعة اقتصادية لكل من طاجيكستان وقرغيزيا وتركمنستان، بحجة خشية الإرهاب، رغم وجود مناطق لاستخراج البترول والغازبها.

تجميد الأوضاع :

إن المشكلة الرئيسية ليست استخراج البترول بقدر ما هى نقله وتصديره. وهناك ثلاث خيارات كلها صالحة إذا ما نفذت، لكن العقبات والحجج توضع لتجميد الأوضاع ولعدم إنشاء أى منها وهذه الخيارات الثلاثة هى :

١- الخط إلى ميناء يومورتاليك شمال شرق البحر المتوسط -فى تركيا- عبر أذربيجان، وأرمينيا، ثم تركيا. وهو الخط الأكثر جدوى، والذى يحقق وصول البترول للمستهلك الأوروبى بأرخص الأسعار. إلا أن روسيا تمارس ضغطها على الدول الإسلامية، خاصة قزاكستان لرفض قبول إنشائه، بل إن الضغط الروسى قد أتى بنتائجه مع أذربيجان التى رفضت إقامته بحجة تعرضه لخطر الحرب الدائرة بينها وبين أرمينيا.

٢- الخط إلى ميناء خرج الإيرانى بدءا من حقل تنجز بقزاكستان، مرورا بتركمنستان .. ويصب فيه خط آخر يأتى من باوك (بأذربيجان) وهذا الخط يعد امتدادا للخط الإيرانى الداخلى، ويمكن من خلاله نقل البترول المكتشف غرب الصين أيضا.

وتسير إيران بالتعاون مع تركمنستان قدما فى إنشاء هذا الخط، وتحبذ أذربيجان إنشاءه، وهو يعد أقل الخطوط تكلفة من ناحية إنشائه، وأكثرها نفعا للبلدان المنتجة.. لكن الشركات الغربية ترفض إنشاءه بحجة أنه يضع صناعة البترول العالمية خلال القرن القادم تحت رحمة إيران.

٣- خط الأنابيب الروسى، وهو يوازى الخط الحالى، ويصل بين تينجز إلى نوفوروسيسك، مارا باستراخان، وجروسنى عاصمة شيشينيا، ويصب فيه خط قادم من حقول غرب بحر قزوين، وهذا أيسر الخطوط الثلاثة من حيث إمكانية تنفيذه وتشغيله، ويزيد من تدفق البترول فى نفس اتجاه الخط الحالى، لكن وقوعه بأكمله بداخل روسيا فى منطقة تستعد لتصبح مسرحا ساخنا للصراع (شيشينيا والجمهوريات الإسلامية المجاورة لها) يجعل الشركات الغربية تحجم عن إقامته، فى الوقت الذى لا تملك فيه روسيا الأموال لإنشائه.

دور البنوك :

وقد قامت البنوك بالتنسيق فيما بينها من خلال مؤتمر عقد فى طشقند فى أغسطس عام ١٩٩٣م. أما عملها الحالى فهو -فى حقيقته- استنزاف الموجود من الثروة ونقلها إلى فروعهم الرئيسية فى أوربا وأمريكا مهربة فى شكل عملات حرة.

ذلك، ويسير التحالف الغربى على طريق آخر مواز لخدمة أهدافه سالفة الذكر.. ذلك هو طريق إغراق هذه البلدان فى تجمعات اقتصادية هشة من المتناقضات ما يجعلها عديمة الفائدة لأعضائها، لكنها تؤدى دورا هاما لخدمة أهداف الغرب، إذ تشتت جهود هذه البلدان وتحدث فى حركتها جمودا، ويمكن من خلال تحريك الدولة القائد فى كل منها (وهى غالبا روسيا أو تركيا - أو الاثنتان) أن يتم تسخير هذه المجموعات سياسيا لصالح الغرب، أسوة بما يتم الآن بالفعل من كل المنظمات الإقليمية.

المنطقة الحرة :

بيد أن روسيا تحاول أن تلعب دورا فى هذا المجال لصالحها من خلال إقامة ما يسمى بالمنطقة الحرة للدول الاثنتى عشرة، وهى دول الاتحاد السوفيتى السابقة عدا دول البلطيق.

وقد جرت محاولتان فى هذا الصدد : الأولى فى يناير ١٩٩٣م، والثانية فى أبريل ١٩٩٤م، إلا أن النجاح لم يكن حليفها.. ولا أعتقد أنه سيكون حليفا لها فى ظل ما نحن فيه من ظروف تم شرحها تفصيلا.

ذلك، ولم تخضع إيران لهذا الواقع فسعت إلى إحياء منظمة التعاون الاقتصادى (إيكو) التى كانت قد أنشئت بين إيران وتركيا وباكستان عام ١٩٦٥م، لكن نشاطها تجمد منذ عام ١٩٧٩م، إلى أن أعيد فتح ملفها عام ١٩٩٠م، واتفقت الدول الثلاث يوم ١٥ فبراير ١٩٩٢م على أن تستأنف نشاطها.

وفى ٢٨ نوفمبر١٩٩٢م انضمت إليها أفغانستان والدول الإسلامية بآسيا الوسطى والقواز، وإن اكتفت قازاكستان بدور المراقب.. ولم يوقع النظام الماركسى فى طاجيكستان على الاتفاقية بعد.

المطالبة بالسوق الإسلامية :

ولئن خلصت النوايا، فإن مثل هذا التجمع، الذى يضم ٣٠٠ مليون مسلم، والذى لديه قدر هائل من الثروات الطبيعية، وقاعدة تكنولوجية مناسبة، وطرق مواصلات، ومصادر طاقة، وحجم تجارة يربو على ٢٠٠ مليار دولار سنويا، يمكن أن يكون نواة تلتئم حولها السوق الإسلامية، بداية من مجلس التعاون الخليجى وامتدادا إلى الشرق حتى أندونيسيا، وإلى الغرب حتى السنغال.. تلكم السوق التى تعد المدخل المناسب، بجوار مداخل أخرى، لاستعادة وحدة الأمة الإسلامية وقوتها.

مثل هذه السوق التى دعا إليها المؤتمر الإسلامى منذ عام ١٩٨١م، ونادت بها كل الدراسات الاستراتيجية الإسلامية منذ ذلك الحين سوف تكون هى البديل الأنفع وخط الدفاع المناسب ضد الأطماع الصهيونية فى إقامة «سوق شرق أوسطية» تهيمن بها على قلب الأمة الإسلامية، وسوف تكون أيضا الوقاية من التحرك الصهيونى الذى لا يهدأ فى آسيا الوسطى والقوقاز، والذى تمكن من ركوب موجة التدخل الأمريكى هنا، بتوقيع اتفاق لتنفيذ مشروعات مشتركة بين أمريكا وإسرائيل فى بلدان آسيا الوسطى والقوقاز، واستغلال الوضع المتميز لتركيا فى هذه البلدان بالسعى لإبرام اتفاق للتجارة الحرة بين إسرائيل وتركيا خلال شهر يوليو ١٩٩٤م، وإقامة مشروعات مشتركة فى الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى والقوقاز.

الاستراتيجية الإسرائيلية فى الانتشار :

ويأتى هذا فى إطار الاستراتيجية الإسرائيلية للانتشار والتى تتبعها منذ عام ١٩٥٠م، مستغلة ما لديها من جالية يهودية قوية سياسيا، واقتصاديا فى جمهوريات وسط آسيا والقوقاز، وغيرها.

إن الهدف الإسرائيلى متوسط المدى هو الهيمنة الاقتصادية على المنطقة الممتدة من شمال المحيط الهندى إلى حوضى البحر الأسود وبحر قزوين.. باعتبار هذه المنطقة تمثل مجالها الحيوى.. وبهذه الهيمنة يمكنها التحرك لتحقيق الغاية النهائية للصهيونية العالمية.

فهل من حركة تعبر عن قبول التحدى والمواجهة لإيقاف الهجمة الصهيونية/ الصليبية وإعادة الأمور إلى نصابها ؟!

وشعوب الجمهوريات والأقاليم الإسلامية التى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى تحمل فى ضمائرها أنهم كانوا رواد الحضارة الإسلامية منذ مهدها.. وأنهم كانوا جزءا لا يتجزأ من أحد أكبر قوتين فى التاريخ، لذا فإن التعامل معهم من منطلق تعامل الكبار مع الأطفال أو محاولة فرض الوصاية عليهم يعد خطأ استراتيجيا.

إن هؤلاء الأقوام فى حاجة إلى دعم ثقافى مركز، ودعم مالى يسير فى قنوات آمنة، وإن العمل على عودة هذه البلاد إلى أمتها هو نوع من الإعداد وابتغاء القوة التى أمرنا الله تعالى بها، والتى يجب بذل غاية الجهد من أجلها..

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ (٦٠) ﴾[الأنفال].

الفصل الحادي عشر

أزمة شيشينيا

١- لماذا شيشينيا؟

٢- لماذا الآن؟

٣- الأطراف الظاهرة للأزمة الشيشانية ومحركوها الحقيقيون !

٤- احتمالات تطور الأزمة شيشينيا.

فى هذه الحقبة تجنب المعسكران الكبيران المواجهة المباشرة الناتجة عن الصراع الأيديولوجى، وسباق التسلح اللذين أطلق عليهما (الحرب الباردة)، وتوافقا على نقل طاقة التدافع بينهما إلى أراضى الأمة الإسلامية وما حولها، وإدارة ما سمى بالحرب بالوكالة، تلك التى كانت آخر ميادينها، وأكثرها سخونة أفغانستان، وشط العرب، الذى دارت حوله الحرب العراقية الإيرانية العقيم.

ورغم ذلك، فقد كان هناك توافق، يكاد يصل إلى درجة الاتفاق على سحق الأمة الإسلامية والعبث بها ثقافيا، واجتماعيا، وسياسيا، واقتصاديا وعسكريا.

فقد توافقت القوتان العظميان على دعم قيام وتأمين الدولة اليهودية فى الأراضى المقدسة، والنيل من وحدة باكستان، وتدمير القوة العسكرية والاقتصادية لكل من إيران والعراق، وإدارة حرب اقتصادية ثقافية.. ضد كل الأمة الإسلامية.

مسرح الصراع الدائم :

وقد أسهمت الغفلة التى عاشتها أمتنا، ولاتزال، فى تحويل أرضها إلى مسرح دائم لصراع لا ناقة لنا فيه ولا جمل إلا أن نكون ومقدراتنا وثرواتنا مجرد وقود تحرقه هذه الصراعات

أما الحقبة الثانية: والتى يكتمل بلوغها ربع القرن بحلول عام ١٩٩٨/٩٧م (أى قرابة نهاية القرن الحالى) فهى حقبة محاولة التصفية النهائية لبقايا النظام العالمى القديم وفرض الهيمنة الصهيونية العالمية تحت مسمى فرض السلام العالمى وصيانته.

خطة سحق الأمة الإسلامية :

وهذا يقتضى الأمور التالية :

١- التفكيك الكامل للاتحاد السوفيتى بما فى ذلك الاتحاد الروسى، ودول أخرى كانت تابعة للاتحاد السوفيتى.

٢- إنزال هزيمة ثقافية بالأمة الإسلامية وإجهاض صحوتها، والحيلولة دون عودتها كقوة لها كيانها، ورسالتها، وشرعتها ومنهاجها، التى تتميز بها عن غيرها.

٣- السيطرة المركزية على الاقتصاد العالمى، خاصة المصدر الرئيس للطاقة (البترول) الذى يقع معظمه فى بحيرة تمتد من جبال القوقاز حتى المحيط الهندى.

٤- نزع السلاح العالمى، وإفقاد الجيوش إرادة القتال.

٥- ضمان أمن إسرائيل، ومد نطاق هيمنتها ومجالها الحيوى إلى ما يسمى بالشرق الأوسط الجديد[١]، والذى يضم قرابة ٥١ دولة تمتد من جبال القوقاز شمالا حتى شمال غرب المحيط الهندى جنوبا، ومن حدوده الصين شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا.. وهى المنطقة التى تضم معظم شعوب الأمة الإسلامية، ومعظم ثرواتها وأراضيها، وكل مقدساتها.

---

(١) ويسمى الوسع

ومن ثم تتمكن إسرائيل، بتسخيرها لهذه الإمكانات الهائلة من فرض السلام[1] والهيمنة على العالم وحكمه من القدس وتكون نهاية الأيام، على حد تعبير فلاسفة ومفكرى النظام العالمى الجديد !!

فالمرحلة التى يمر بها النظام العالمى الجديد تقتضى خوض معركة حاسمة تفصل فيها منطقة القوقاز عن روسيا وتكون بداية لضمها إلى الشرق الأوسط الجديد.

ورغم أن الصراع والفوضى يسودان القوقاز بصفة عامة منذ أكثر من ست سنوات، فإن للشيشان أهمية جيواستراتيجية، بإدراكها نضيف بعدا آخر للإجابة عن السؤال الأول : لماذ شيشان؟

تعهد جمهورية شيشينيا بمثابة النقطة القوية، ونواة التجمع الإسلامى الواقع على السفوح الشمالية لجبال القوقاز، هذه الجبال الوعرة المغطاة بالغابات الكثيفة، والتى تتحكم فى الأرض الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين، وفى الطرق البرية والجوية والسكك الحديدية التى تصل بين روسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتى السابقة فى آسيا الوسطى والقوقاز، ومن ثم إلى المياه الدافئة.

كما تقع شيشينيا، التى تشكل أكبر تجمع سكانى غالبيته العظمى من المسلمين، وأكبر كثافة سكانية فى شمال القوقاز، والتى يوحدها مع الشعوب المجاورة، خاصة داغتسان وإنجوش، أواصر عرقية، فضلا عن وحدة العقيدة والثقافة والتاريخ - تقع على الخط الأمامى الفاصل بين الحاضرتين الإسلامية والرومانية النصرانية (الأرثوذكسية على وجه التحديد)، هذا الخط الفاصل الذى يصل من جروزنى شرقا حتى سراييفو غربا.

---

(١) السلام فى مفهوم إسرائيل هو الاستسلام.

وتبعد «جروزني» عاصمة شيشينيا عن موسكو عاصمة روسيا مسافة ١٦٠٠ كم إلى الجنوب الشرقي. وتقع جمهورية جورجيا على الحدود الجنوبية لشيشينيا، لتفصلها عن كل من أذربيجان وتركيا وأرمينيا، كما تفصلها جمهورية داغستان (الإسلامية - التي لا تزال إحدى جمهوريات الاتحاد الروسي) عن بحر قزوين من جهة الجنوب الشرقي. وتقع جمهورية إنغوشينيا إلى الغرب منها، لتفصلها عن أوسيتيا الشمالية، وكان ثلاثتهم يكونون دولة واحدة قبل تشريد الشعب الشيشاني في عهد ستالين.

ومع عدم إغفالنا للأهمية الاقتصادية الجيوستراتيجية لجمهورية شيشينيا فإن البعد العقدي في الصراع هناك هو البعد الذي يغلب في تقديري، ولا غرو... فشعب الشيشان شعب متجانس (يسمون بمسلمي الجيل، وعاصمتهم جرزوني تعني الرعب)، واشتهروا بحبهم للجهاد في سبيل الله انتصارا للحق، ودفعا للظلم الذي وقع عليهم طوال مائتي عام قاوموا فيها الاحتلال الروسي.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

ومهما غالى البعض في تصوير أن دوافع التدافع بين البشر هي دوافع مادية، فإني ممن يؤمنون بأن الفرق بين الإنسان والحيوان، أن الإنسان يقاتل بسبب خليط من الدوافع التي تنتظمها عقيدة إيمانية تعبر عن الاختلاف في المفهوم والنظر، والتباين في المبادئ والقيم ومنهاج الحياة ، لذا يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾[البقرة].

خلاصة هذه النقطة أن الأزمة التى نحن بصدد بحثها قد اصطنعت فى شيشان بالذات لأسباب عقدية/ ثقافية/ جيوستراتيجية فى آن واحد، وأن الأزمة تدخل فى إطار إدارة الصراع الدولى لاستكمال إقامة ما يسمى بالنظام العالمى الجديد.

الفصل الثانى عشر

ولكن لماذا الآن ؟

إن كلمة الآن هذه تتضمن خمسة أبعاد:

- بعدا سياسيا (ذا شق داخلى وآخر خارجى).
- بعدا اقتصاديا.
- بعدا زمنيا.
- بعدا مناخيا.
- بعدا عسكريا.

أبعاد الأزمة :

هذه الأبعاد تنتظمها حقيقة :

أن روسيا - على حد تعبير هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى الأسبق - (تعد خارجة عن أوروبا)، وقد كانت وستظل عدوة لها.

لذا فالغرب بقيادة الولايات المتحدة : يعتبر عملية هدم الاتحاد الروسى أمرا حتميا، فجمهورية روسيا الاتحادية لاتزال تحتفظ بإمكانات الاتحاد السوفيتى القديم، فقوتها تعادل ٨٠٪ من قوته، خاصة مع وجود تفوق نوعى فى القوى البشرية، وتتركز القدرتان التكنولوجية والعسكرية بها، كما أنها تسيطر على أراض تشكل ٧٦٪ من أراضى الاتحاد السوفيتى القديم، ولديها اكتفاء ذاتى فى الطاقة.

وقد أزعم أن تصعيد الثلاثى ميخائيل جورباتشيف، وبوريس يلتسين، وإدوارد شفيرنادزه، تصعيدا متزامنا، كان لهدف تفكيك الاتحاد السوفيتى،

والاتحاد الروسى، وإعادة ترتيب الأوضاع فى القوقاز، وقد أنيط بكل منهم مهمة من المهام الثلاث.

على أن اعتبار الرئيس الروسى بوريس يلتسين مجرد عميل أو ألعوبة فى يد الغرب فيه تبسيط مخل لا يجوز، فله ارتباطاته بالمؤسسة الحاكمة، وغيرها من مؤسسات الدولة، ويتعرض لضغوط من الشيوعيين القدامى، ومن القوميين السلاف بزعامة «فلاديمير جيرينوفسكى»، بل ومن حزب «خيار روسيا» بزعامة إدوارد جيدار.. وغير ذلك من مراكز القوى الداخلية

من تلكم الحقيقة أستطيع أن أقول : إن بوريس يلتسين أصبحت سلطته على حافة الهاوية بعد فشل برامجه تجاه الليبرالية، وما يسمى بالإصلاح الذى قام به عندما قصف البرلمان بالدبابات لإثبات سيطرته القوية على البلاد، لذا فقد أصبحت شيشان برفضها الاحتلال الروسى منذ عام ١٩٩١م هى أنسب الأهداف لإثبات سيطرته على البلاد - كان هذا عن الشق الداخلى فى البعد السياسى.

الشق الخارجى فى البعد السياسى :

فيمكن العرض له على ضوء نتائج مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى الذى عقد فى بوادبست يومى ٥-٦ ديسمبر ١٩٩٤م، فقد عوملت روسيا بمهانة جعلت رئيسها يعبر بقوله . «إننا نعيش سلاما باردا»!كما أن روسيا امتنعت عن توقيع «اتفاق الشراكة من أجل السلام» الذى اقترحه عليها زعماء حلف شمال الأطلنطى.

وفضلا عن تقدم منظمة حلف شمال الأطلنطى إلى الحدود الغربية لروسيا مباشرة، دون إطلاق طلقة واحدة، فقد رفضت دول الاتحاد الأوروبى انفراد روسيا بتنفيذ استراتيجيتها فى التدخل العسكرى فى القوقاز وأسيا الوسطى،

والتى يطلقون عليها The near abroad، التى صاغها يلتسين وأعلنها يوم ٢ يناير ١٩٩٤م... ومفادها «التدخل بحسم» باستخدام القوة المسلحة لحماية مصالح روسيا فى جمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز الإسلامية.

نتج عن هذا الرفض أن اتخذت منظمة الأمن والتعاون الأوروبى (وهذا هو اسمها منذ ١/١/١٩٩٥م) قرارا بإرسال قوة مسلحة مشتركة إلى إقليم ناجورنو قاراباخ، كبداية لِتدخلات قادمة فى الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز.

يضاف إلى هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا تدينان بشدة تورط روسيا إلى جانب الصرب فى حربها ضد البوسنة، كما يضاف أن الولايات المتحدة المتحدة قد نجحت فى فرض هدنة قلقة هناك لفترة الشتاء.

يمكن القول إذن :

إن غزو شيشينيا يعد بمثابة رد فعل لهذه المهانة، فضلا عن أنه ضرورة لفتح الطريق إلى القوقاز وآسيا الوسطى بهدف تأمين تنفيذ الاستراتيجية سالفة الذكر، التى تضغط المؤسسة العسكرية الروسية فى اتجاه تنفيذها.. ولأن شيشينيا تعد بمثابة شوكة خطيرة على الاتجاه الاستراتيجية الروسى الجنوبى.

ولا ننسى فى هذا المجال أن نوضح التصوير الخاطئ المتعمد الذى يصوره الروس للشيشان، فهم يصورونهم على أنهم عصابات من المافيا وقطاع الطرق، لذا نجد وزير الدفاع الروسى الجنرال بافيل جراتشيف يحدد هدف القوة المسلحة التى أرسلت لحسم الأزمة بأنه :

- نزع ومصادرة سلاح العصابات.
- تصفية الجماعات الإجرامية.

فى حين يعلن يلتسين مساء ٢٧ ديسمبر ١٩٩٤.

«لقد وجد الجنود الروس أنفسهم على الخط الأمامى مع أكثر قوى الجريمة الدولية والتطرف ضراوة .. وهذا تهديد لكل روسيا».

أما أندريه كوزيريف وزير خارجية روسيا فقد أعلن يوم ١٥ ديسمبر أن : أهم المصالح القومية الروسية هى استعادة الهيمنة المحلية خاصة فى القوقاز وطاجيكستان، وأن هذا يكون من خلال استخدام القوة المسلحة للتدخل فى ماوراء الحدود القريبة.

وعلى صعيد البعد الاقتصادى :

نجد روسيا على وشك انهيار اقتصادى تام خاصة فى المجال الصناعى، ويتوقع أن يقل الناتج القومى عام ١٩٩٥ بنسبة ٥٠٪ عما كان عليه عام ١٩٩٠، كما انخفض إنتاج الآلات والمعدات إلى الربع وأغلق العديد من المصانع الحربية، وقل إنتاج البترول بسبب عدم صيانة أنابيب نقله وتسريبها.

ويضاف إلى هذا وجود عجز خطير فى الميزانية، التى أعدت متضمنة ١٣ بليون دولار يفترض أنها ستحصل عليها، وقد لا تصلها، أو على الأقل قد تتأخر بسبب هذا العدوان الذى وقع على شيشان، والذى يعد فرصة لا تعوض للغرب لممارسة المزيد من الضغط الاقتصادى على روسيا لهدمها.

كما يضاف إلى هذا أيضا قرب حدوث انهيار كامل فى العملة الروسية (الروبل)، التى بلغت نسبة التضخم فيها قبل أزمة شيشان الأخيرة حوالى ١٨٪ شهريا.

لــــذا :

كانت الحاجة ملحة لتأمين طريق التجارة إلى الجنوب واستعادة التكامل الاقتصادى مع بلدان آسيا الوسطى والقوقاز.

وتأمين خط أنابيب البترول المار بجروزنى، كبرى مصافى البترول الروسية

الموجودة فى أراضى شيشينيا، وكانت تنتج ٢٠مليون طن سنويا (لا تنتج حاليا سوى ٤ ملايين طن)، فضلا عن ضرورة تأمين الوصول إلى بترول بحر قزوين - وهو معظم بترول روسيا- ويمر بشمال القوقاز الذى تعد شيشينيا بوابته وركيزته، وتأمينها يعد حيويا.

وأما البعد الزمنى :

فقد اختير توقيت انشغال أمريكا وأوروبا بأزمة بيهاتش فى البوسنة، لاختلاق أزمة شيشان، تم تطويرها لفرض السيطرة على هذا الإقليم المسلم، ومحاولة إنهاء مقاومة المجاهدين فيه، قبل أن يفيق العالم الغربى الذى يمضى فترة أعياد الميلاد ورأس السنة ! فيصبح أمام الأمر الواقع.

وكان توقع القيادة الروسية أن يتم إخضاع شيشيان خلال أقل من أسبوع.. لكن الأمر أفلت منها، فبعد سنوات من الغزو لاتزال الشيشان تقاوم وتقوم لعمليات فدائية حتى داخل روسيا.

وعن البعد المناخى :

نجد أنه تم صنع الأزمة الشيشانية الأخيرة هذه فى شهر نوفمبر ١٩٩٤، لتنتهى خلال أيام أو أسابيع قليلة، لكنها أفلتت من يد صانعيها لتمتد إلى شهر يناير، وربما أبعد من هذا.

وقد كان للمناخ أو الوقت من السنة أهميته فى تقديرهم، إذ قدروا أن قطع انسياب البضائع خاصة الغذاء، والوقود، فى هذا الوقت، سوف يعجل بثنى إرادة المجاهدين من خلال استراتيجية معروفة هى استراتيجية لى الذراع.

أما وقد فشلت هذه الاستراتيجية التى استخدمت فيها القوات الروسية تحت غطاء حركة تمرد ترأسها بعض الشيشانيين، فكان اللجوء للقوة المسلحة فى شكل غزو سافر.

فوجىء الروس - لسوء تقديرهم - بأن كل معارضى الرئيس داودييف قد وضعوا خلافاتهم جانبا، والتفوا حوله من منطلق جهادى إيمانى، حسب تقرير كل من كتبوا عن المعارك هناك، ومنهم الصحفى الإسرائيلى يوآف كارنى المتخصص فى هذه المنطقة، والذى ألف كتابا عنها يعكس معايشته الميدانية لها، وكتب مقالا نشرته الواشنطن بوست والانترناشيونال هيرالد تريبيون فى آن واحد يوم ٢١ ديسمبر ١٩٩٤م.

وقد شرح فيه مظاهر الإيمان والاستعداد لجهاد طويل ينالون فيه إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، وكان على رأسهم رئيسهم وعائلته.

ويجدر بالذكر أن الطبيعة الجهادية لموقف الشيشان قد وصفت تفصيلا أيضا فى بحث نشر newsweek فى ٢٦ ديسمبر ص١٠ وتناقلته عشرات الجرائد والمجلات فى العالم.

هذا، وقد شاء الله تبارك وتعالى، أن يقلب آية المناخ عليهم فكان للضباب الكثيف، وقصر النهار، وتحول التربة إلى طمى غير متماسك - أثره الكبير فى عدم قدرة الروس على استخدام أسلحتهم الثقيلة وطائراتهم وأجهزة التنشين الدقيقة التى تستخدم الليزر، بالدقة التى تحقق لهم هدفهم الذى لا يرضاه الله تعالى، الذى لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا.

يضاف إلى ذلك وجود أعداد من الروس بين المدنيين الأمر الذى أسهم فى جعل البعد العسكرى الذى أعرض له حالا يقصر عن حسم الأزمة حتى الآن.

البعد العسكرى:

لقد كان للضغط الداخلى والخارجى الذى تعرضت له القيادة الروسية بسبب عودة قواتها من أوروبا ومن جمهوريات شمال البلطيق، والتزامها بتخفيض قواتها إلى ٤ر١مليون جندى بنهاية عام ١٩٩٥، ورغبتها فى تعديل

اتفاق الحد من القوات التقليدية فى القوقاز، كان لكل هذه الأمور تأثيرها فى دفع القيادة الروسية لافتعال هذه الأزمة.

ونظرا لأن روسيا تعيش حربا أهلية خفية تهدد بانقلاب عسكرى (حسب تعبير دكتور رمضان عبد اللطيف نائب رئيس مجلس النواب الروسى . ويشاركه الرأى إدوارد جيدار رئيس حزب خيار روسيا ونظرا لنضوب عطاء القيادة الروسية بحيث أصبح يلتسين السكير «كخيال المآتة» الذى ليس له أية رؤية سياسية / استراتيجية - فإن إثارة هذه الأزمة فى هذا الوقت، واستخدام القوة العسكرية لحسمها ربما يعيد للقيادة الروسية بعض هيبتها المفقودة.

ورغم إعداد روسيا لثلاث فرق ميكانيكية، وفتحها لثلاثين طائرة انتيتوف -١٢ فى أوسيتيا الشمالية لاستخدام قوات المظليين فى مرحلة لاحقة، فضلا عن استخدامها للطائرات والهليكوبترات المقاتلة - فإن الشيشانيين مصممون على النصر أو الشهادة.

بل إن الله تبارك وتعالى قد جعل الروس يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين، فاندلعت النيران فى المصفاة الرئيسية للنفط، وفضل الكثيرون من الجنود الروس تسليم دباباتهم وعرباتهم المدرعة كى يحرقها المقاتلون الشيشان فيعفوهم من القتال.

لقد هزمت روسيا فى هذه الجولة هزيمة حقيقية وبر الجنرال أصلان موسكادوف رئيس الأركان الشيشانى بقسمه أن يجعل بلاده أفغانستان أخرى، تلحق بالروس هزيمة مهينة.

وأيا كانت نتيجة المعركة للاستيلاء على جروزنى، فإن مجاهدى شعب شيشان قد عقدوا العزم على إدارة حرب عصابات طويلة الأمد، انطلاقا من المناطق الجبلية فى جنوب البلاد.

الفصل الثالث عشر

أطراف الأزمــة

لعل الظاهر أن طرفى الأزمة هما : جمهورية روسيا الاتحادية وجمهورية شيشينيا (التى كانت حتى عام ١٩٩١م تضم معها إنجوش ليكونا سويا جمهورية تتمتع بالحكم الذاتى فى إطار الاتحاد الروسى رغمها عنهما، فالأزمة إذن أزمة داخلية !

لكن من يدقق يجد أن حقيقة الأمر تختلف عن ظواهره، فجمهورية شيشينيا لايربطها بالاتحاد الروسى أية وثيقة تفيد دخولها الاتحاد، بل إنها بادرت منذ نوفمبر ١٩٩١م، قبيل تفكك الاتحاد السوفيتى رسميا بموجب اتفاقية مينيسك فى ٨ ديسمبر ١٩٩١م بادرت بإعلان نفسها دولة مستقلة.

كما أن الشيشانيين، كشعب متميز عرقيا، وثقافيا، له حق تقرير المصير، لم يتوقف عن مقاومة الاحتلال الروسى لبلاده، ومقاومة تشريده من أرضه طوال أكثر من ٢٠٠ عام.

ويذكر هنا أن روسيا خططت لافتعال الأزمة وإدارتها، واتبعت فى ذلك الاساليب الماركسية الجوفاء القديمة فصورت القيادة لجنودها أنهم ذاهبون لقتال عصابات من قطاع الطرق، وكان الأمر الصادر إليهم : «جردوا العصابات من سلاحهم تدافعوا عن جروزنى».

ومما يجدر ذكره هنا أن الأطفال الروس يتعلمون فى مدارسهم قصيدة للشاعر ميخائيل ليرمونتوف تحكى قصة الشيطان الشيشانى القابع على ضفاف النهر يحد سكينه الطويل !! هكذا.

ومن محاولات محو هوية هذا الشعب المسلم يعد تشريده من بلاده فى

أعقاب الحرب العالمية الثانية، أنه قد صدرت التعليمات للجغرافيين فى عهد ستالين لمحو هذه القومية من على الخرائط تماما، لكن الله تعالى أراد لهم أن يعودوا إلى بعض بلادهم منذ عام ١٩٥٧م، محافظين على عقيدتهم ليكونوا لأعداء الإسلام عدوا وحزنا.

وقد ظلت روسيا تعامل الشيشان، منذ عودتهم إلى بلادهم معاملة الأعداء (المنطقة العدوة)، وظل فرض حظر التجوال فى شيشينيا يمارس بشكل روتينى طوال عقدى السبعينيات والثمانينيات.

على أن المتتبع للأحداث، يمكنه أن يرصد أطرافا أخرى ضالعة فى هذه الأزمة أو مستفيدة منها :

أ- الولايات المتحدة الأمريكية :

ففى تقرير لوزارة الدفاع الأمريكية جاء أن الخطورة الحقيقية للإسلام تأتى من القوقاز ووسط آسيا.. لذا نجد أن الميزانية الاتحادية الأمريكية لعام ١٩٩٥م قد خصصت ٦٠٤٣١مليون دولار لما سمى «ترويج السلام» من خلال عمليتى: فرض السلام طبقا للفصل السابع، وحفظ السلام طبقا للفصل السادس، وخصصت عنوانا لما أسمته الدول المستقلة حديثا للاتحاد السوفيتى السابق.

واعتبرت أن من العناصر الحيوية للاستراتيجية الأمريكية تحقيق التواجد الدبلوماسى القوى فى هذه البلدان بطريقة سموها «الدبلوماسية المتقدمة» . فضلا عن استخدام آليتين أخريين من آليات النظام العالمى الجديد لتحقيق التدخل والتواجد فى هذه البلدان، ويكون ذلك من خلال : الدبلوماسية الوقائية، ومواصلة السيطرة على التسلح.

كذا خصصت الميزانية أيضا ٤ر١٤٦ مليون دولار لما سمى (منع

الأزمات) من خلال الدبلوماسية المتقدمة والدبلوماسية الوقائية. سالفتى الذكر، اعتبار هذا استثمارا لمستقبل أمريكا. وفيما يختص بأزمة شيشينيا فقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية فى البداية.

أنها تتفهم دوافع يلتسين لاستخدام القوة المسلحة، فشيشينيا تعد جزءا من الاتحاد السوفيتي والأمر لا يعدو أنه من الأمور الداخلية، فنحن لسنا إزاء دولة من دول البلطيق أو مولدوفا أو طاجيكستان - على حد تعبيرهم.

ثم عاد وزير الخارجية الأمريكى ليعلن يوم ١٩٩٥/١/٣ قلقه على الأوضاع فى شيشينيا، وأنه سيبحث الأمر مع وزير الخارجية الروسى فى وقت لاحق من شهر يناير، فى الوقت الذى هدد فيه عضو مجلس الشيوخ «بوب دول» بقطع المعونة الاقتصادية الأمريكية لروسيا إنْ هى استمرت فى طريقتها التى تعالج بها الأزمة !!

هذا ويصعب تصور ألا تكون الولايات المتحدة الأمريكية قد أحيطت علما بنوايا روسيا فى شيشينيا، بل وبحدود التدخل وأهدافه، خاصة إذا ما علمنا أن زيارة آل جور (نائب الرئيس الأمريكى) لروسيا تمت فى منتصف ديسمبر ١٩٩٤م، وهو توقيت اتخاذ الرئيس الروسى لقرار حسم الأزمة، والذى سبقه خطاب إلى القادة بوزارة الدفاع الروسى مساء ١٤ نوفمبر أذيع فيه وسائل الإعلام «وأمرهم فى بالاستعداد لخوض قتال محلى محتمل».

ولا يفوتنى أن أشير إلى زيارة «فلاديمير جيرونوفسكى»، زعيم ثانى حزب فاز فى الانتخابات الروسية الأخيرة لأمريكا، رغم رفض كل دول أوروبا استضافته. وقد كانت هذه الزيارة فى المدة من آخر شهر اكتوبر إلى أوائل شهر نوفمبر ١٩٩٤م، وهو التوقيت الذى بدأت فيه الأحداث التى كانت مقدمات للغزو العسكرى السافر لشيشان، فماذا كان هدف الزيارة - خاصة وأن جيرونوفسكى يعلن فى كل مرة يخرج فيها على الناس عداءه للمسلمين ؟!

وقد جاء أول رد فعل للرئيس الأمريكى فى صورة نداء إلى الرئيس الروسى يوم ٦ يناير (بعد مرور ٧ أيام على بداية محاولة اقتحام العاصمة جروزنى)، وجاء فى النداء:

- حث روسيا على قبول الوساطة الدولية.

- أمريكا أصيبت بخيبة أمل بسبب كثرة الضحايا من المدنيين.

- يناشد كلينتون الرئيس يلتسين إنهاء أعمال العنف العسكرية ضد المدنيين.

غالب ظنى الذى قد يرقى إلى درجة التأكد أن الولايات المتحدة (الوكيل العام للصهيونية العالمية) والقوة الفاعلة الكبرى فى النظام العالمى الجديد قد استغلت غطرسة وجهل القيادة الروسية لتدفع بها إلى أزمة تتولى الولايات المتحدة الأمريكية معالجتها فى مرحلة لاحقة بما يحقق لها التدخل الكامل فى منطقة القوقاز ووسط آسيا، ومن ثم تراقب عن كثب تفكك الاتحاد الروسى، وتتحرك الولايات المتحدة الأمريكية فى معالجتها للأزمة باستراتيجية التصعيد الحذر، فى الوقت الذى تعطى فيه الفرصة لعوامل الانهيار الداخلية فى روسيا كى تأتى بنتائجها.

ب- الاتحاد الأوروبى :

اتصف رد الفعل الأوروبى فى البداية بالتحفظ، لكن بظهور بوادر فشل القيادة الروسية فى حسم الأزمة، بدأت دول كألمانيا، ثم فرنسا وبريطانيا وغيرها توجه اللوم إلى الروس فى عبارات حادة، وتحمل موسكو مسؤولية ما يحدث فى شيشينيا.

والحقيقة كما أتصورها أن الاتحاد الأوروبى يحبذ قيام حرب طويلة المدى فى القوقاز بين الروس والمسلمين يمكنهم من خلالها

- التدخل والتواجد العسكرى وغير العسكرى هناك.

- التخلص من التزامهم بتقديم العون الاقتصادى الذى تعهدوا به خلال مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى لروسيا .

- أن ينجح الشيشان فى الانفصال عن روسيا ليصبح هذا بمثابة سابقة تؤدى إلى تفكك الاتحاد الروسى.

وهم يرون أن الشيشان يعدون جماعة عرقية وثقافية مستقلة عن روسيا وأن من حقهم تغيير وضعهم القانونى لينالوا استقلالهم.

جـ- الأمة الإسلامية :

ماتزال الأمة فى غفلة من أمرها، فمثل هذه الأمة لم تطرأ فجأة .. وكم تم التنبيه إليها حديثا، إن كنا قد نسينا تاريخا متصلا يزيد على مائتى عام دارت طوالها الحرب من أجل سيطرة موسكو على الشعوب الإسلامية فى آسيا الوسطى، والقوقاز والقرم.

وقد اكتفت منظمة المؤتمر الإسلامى - بعد مرور أسبوعين - على بدء اقتحام القوات الروسية لجمهورية شيشينيا، اكتفت بمناشدة «المجتمع الدولى» - وما أدراك ما المجتمع الدولى ؟! - بأن يمارس نفوذه السياسى والدبلوماسى لوضع حد للنزاع وتسوية الأزمة !

وكدول إسلامية مستقلة، لم نجد سوى إيران التى أعلن رئيسها (بعد قرابة ثلاثة أسابيع من الغزو الروسى) أن الروس يقتلون المدنيين، الأمر الذى يثير مشاعر المسلمين للانتقام.

فى حين قامت تركيا بإرسال طائرة تحمل معونات إنسانية إلى منطقة تجمع فيها اللاجئون الفارون من الحروب، فضلا عن تقديم احتجاج رسمى يندد بالعدوان على المدنيين ودعت لوقف القتال.

وقد ادعت روسيا وجود متطوعين يقاتلون إلى جانب الشيشان جاءوا من

أفغانستان - باكستان - الأردن - السعودية - إيران، واستدعت وزارة الخارجية الروسية سفراء هذه الدول لتنبيههم إلى هذا.

وقد جاء ردف فعل مصر وبعض الدول الإسلامية الأخرى بالغ التحفظ. أما إندونيسيا فقد طالبت بوقف الغزو الروسى لشيشان. على أن من الإشارات غير المطمئنة أن وفدا شيشانيا توجه لمقابلة العقيد القذافى ..؟

د- الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز:

أ- كان رئيس جمهورية تتارستان حاسما فى نقده للغزو الروسى إذ اعتبره مهددا للاتحاد الروسى كله (وتتارستان لم توقع على اتفاقية الاتحاد، شأنها شأن شيشينيا).

ب- احتجت جمهورية الانجوش عنما قصفت أراضيها من الجو.

جـ- امتد القتال إلى أراضى داغتسان شرق الشيشان.

د- طالب نور سلطان نزار باييف رئيس قازاكستان ببحث السبل الكفيلة بمنع القتال العرقى مستقبلا (فى بلاده ٢٧- ٣٠٪ من السكان الروس والسلاف يسكنون الشمال الغربى ويشكلون أغلبية فيه)، وأعقب ذلك بزيارة لموسكو يوم ١٣يناير ١٩٩٥م.

هـ- ببداية الغزو وصل إلى شيشان مقاتلون من أبخازيا وداغتسان وانجوش. ومن المتوقع أن يكون قد وصل ويصل المزيد من الدعم المالى والسلاح والرجال من سائر شعوب القوقاز المسلمة.

ومما يذكر أن البرلمان الاتحادى لشعوب القوقاز، والذى يتخذ من سخومى مقرا له، يضم مندوبين عن ١٦ شعبا من شعوب شمال القوقاز، ويتبعه جيش يقوده وزير دفاع أبخازيا. لكن احتلال الجيش الروسى لأبخازيا قد يمنع من تقديم هذا الجيش العون إلا من خلال متطوعين عليهم أن يعبروا أراضى جورجيا وإنجوشيا.

و- الفاتيكان :

التزم الصمت التام وكأن شيئا لا يحدث، فموقف الفاتيكان بمثابة تحبيذ لنتائج هذه الأزمة مهما كانت.

ز- إسرائيـــل

- تستغل إسرائيل هذه الظروف فى إعادة ترتيب الأوضاع، واستكمال تهويد القدس، والاستيطان فى فلسطين، هذا الاستيطان الذى زاد معدله كثيرا منذ بدء الأزمة الشيشانية عن المعتاد.

- عقد مؤخرا تحالف مشبوه بين إسرائيل /اليونان/ قبرص، ومن أجل التعاون العسكرى للقيام بدور ما فى البحر المتوسط، والعدو سيكون تركيا بطبيعة الحال.

- يتزايد احتمال توجيه ضربة عسكرية لإيران، تسهم فيها إسرائيل أو تكون لصالحها، فى ظل الانشغال العالمى بأزمة شيشان، بدعوى قرب امتلاك إيران لسلاح نووى.

- فرصة لكسب الوقت فى صالح إسرائيل، باعتبار أن الوقت يسير فى صالح إسرائيل، ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾.

- زادت نغمة أن العام القادم سيشهد «شرق أوسط» جديدا بمفهومه السابق توضيحه (يضم القوقاز). إذن تسهم إسرائيل فى التحضير لإدارة ما ستسفر عنه الأزمة وتمهد لبلوغ هدف الصهيونية الذى هو نفسه هدف النظام العالمى الجديد.

٦- الأمم المتحدة :

أعلنت الأمم المتحدة أنها تؤيد وحدة روسيا، وأن هذا أمر هام لاستقرار المجتمع الدولى، لذا يمكن القول إن الأمم المتحدة تقف نفس موقف الفاتيكان.

إن الأمم المتحدة والمجتمع الدولى ليدعون بصوت خفيض إلى سحق الشيشان بطريقة أكثر إنسانية، أو أقل وحشية! وما أراه هو أن الأمم المتحدة الأمريكية ستصعد موقفها فى المرحلة القادمة بشكل يتزامن مع وقف قد يعلنه حلف شمال الأطلنطى. ولا غرو فالأمم المتحدة وحلف شمال الأطلنطى قد صارا أداتى النظام العالمى الجديد فى ما يسمى باستراتيجية (duel key system).

ومن جهة أخرى نجد أنه ببداية الهجوم العسكرى الشامل على شيشينيا هدد صندوق النقد الدولى والبنك الدولى للإنشاء والتعمير روسيا بحجب القروض عنها والامتناع عن جدولة الديون إذا هى سارت فى اتجاه الحسم العسكرى للأزمة.

خلاصة:

مما سبق نجد أن السلاف الأرثوذكس قد وجدوا أنفسهم فى أعقاب انهيار كل من الاتحاد السوفيتى والاتحاد اليوغسلافى وجها لوجه أمام الخط الدفاعى الأول عن الأمة الإسلامية، الممتد من سور الصين العظيم إلى البحر الأدرياتيكى، وأنهم مكلفون باختراق هذا الخط فى نقطتين هامتين، وذات دلالة تاريخية خاصة هما «جروزنى» و«سراييفو»، وأنهم بمواجهتهم هذه، سواء أرادوا أو دفعوا إليها دفعا، يقومون بقتال المسلمين بالوكالة عن النظام العالمى الصهيونى الصليبى فى أمريكا وأوروبا، ذلك النظام الذى أعلن عداءه السافر للإسلام.

وما أشبه الليلة بالبارحة فكأنما عاد التاريخ بنا إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى لاستكمال ما لم يتم بعد من مؤامرة سايكس/ بيكو لانتزاع أرض الإسلام من المسلمين.. لتخلص للنظام الصهيونى العالمى الذى سيفرض السلام على الأرض بزعمهم! هكذا.

الفصل الرابع عشر

الفتوحات العربية الإسلامية

تعد الفتوحات العربية الإسلامية بداية عصر جديد، لا فى تاريخ العرب والإسلام فحسب وإنما فى تاريخ الإنسانية عامة، وذلك نظرا لما ترتب عليها من نتائج، محلية وعالمية، دينية وثقافية واقتصادية وثقافية وسياسية غيرت مجرى التاريخ.

لقد أدرك المؤرخون العرب المسلمون الأهمية العظمى لحركة الفتوحات ومكانتها فى التاريخ العربى والعالمى، فأفردوا لها مؤلفات خاصة، بل شكلت الكتابة عن الفتوحات شكلا بارزا من أشكال الكتابات التاريخية عند العرب المسلمين، مثل كتاب «فتوح الشام» للواقدى، و«فتوح البلدان للبلاذرى» وغيرها...

كما اهتم الباحثون المحدثون، المعنيون بالتاريخ العربى الإسلامى، بالفتوحات اهتماما كبيرا. ولكن مع تقديرنا لكل الدراسات التى تناولت هذا الموضوع، إلا أن قلة منها تلك التى حاولت رصد الجوانب غير العسكرية والسياسية لهذه الفتوحات، فموضوع بهذه الأهمية لا يمكن أن يختزل بجانب واحد، ومن هنا جاءت هذه المقالة لتلقى نظرة تحليلية على بعض الجوانب الحضارية لهذه الفتوحات بغية الكشف عن طبيعتها ومكانتها التاريخية.

تاريخ الفتوحات:

كانت الفتوحات قد بدأت منذ أيام الرسول ﷺ، فالبعوث التى أرسلها إلى مشارف الشام وغزوة مؤتة سنة ٨هـ، وغزوة تبوك سنة ٩هـ، وتجهيز حملة أسامة بن زيد قبيل وفاته.. شكلت كلها طلائع الفتوحات التى انطلقت فى عهد

(١) مجلد العربى – العدد ٥١٦ نوفمبر ٢٠٠١ - عادل زيتون

الخليفة الراشدى الأول أبى بكر الصديق. فمن المعروف أن جيوش الفتح انطلقت من المدينة فى محورين اثنين، الأول لفتح بلاد العراق وما يليها من بلاد فارس، والثانى لفتح بلاد الشام ومصر وما يليها.

ودارت معارك طاحنة بين الفاتحين العرب المسلمين وجيوش الفرس فى المحور الأول، وجيوش البيزنطيين (الروم) فى المحور الثانى. واستطاع الفاتحون العرب المسلمون، خلال سنوات عديدة، تقويض الدولة الفارسية وإخراجها من حركة التاريخ من ناحية، ومن تقليم أظافر الإمبراطورية البيزنطية وإخراجها من الشام ومصر وشمال إفريقيا. بل لم يمض نحو قرن من الزمن على وفاة الرسول ﷺ (١١هـ/٦٣٢م) حتى كان الفاتحون المسلمون يقفون على أبواب الصين شرقا، ويطرقون أبواب غاليا (فرنسا) فى معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ/٧٣٢م) غربا.

أهداف الفتوحات الإسلامية :

لقد تعددت آراء الباحثين حول أهداف هذه الفتوحات ودوافعها، فبعضهم يميل إلى الدوافع السياسية، وبعضهم الآخر يرى فيها دوافع اقتصادية، وفئة تعتقد أن أهدافها تحرير الأرض العربية من سيطرة الفرس والبيزنطيين.. ولكن مهما تعددت الآراء والاجتهادات حول هذا الموضوع فإن نشر الإسلام كان هو الهدف الرئيسى للعرب المسلمين، خلفاء وأمراء وقادة وجندا، فى تلك المرحلة المهمة من التاريخ العربى الإسلامى،

فالهم الأول والشغل الشاغل للعرب المسلمين، آنذاك، كان الجهاد فى سبيل الله، ونشر مبادىء الدين الجديد القائمة على الوحدانية والمساواة والعدالة والشورى والحرية..، وإقامة نظام حضارى، وفقا لقيم الإسلام ومثله، يعطى للحياة الإنسانية معناها وقيمتها.

عوامل الانتصار :

إن الانتصارات التى حققها الفاتحون المسلمون على الجبهتين: الفارسية والبيزنطية، قد أذهلت المؤرخين المعاصرين منهم وغير المعاصرين، المسلمين منهم وغير المسلمين، لاسيما وأنها قد أنجزت بسرعة لا تتناسب مع الحجم العسكرى للقوى المتحاربة. ومهما تباينت الآراء فى الإجابة عن هذا السؤال فإننا يمكن أن نوجز أهم هذه العوامل بما يلى :

أولا : إن إيمان الفاتحين العرب المسلمين بالقضية التى يجاهدون منه أجلها، وهى نشر الإسلام ومثله العليا، قد زودهم بطاقة معنوية لا حدود لها، والتى تجلت واضحة فى أخلاقهم وسلوكهم وشجاعتهم وشغفهم بالاستشهاد. والمصادر التاريخية مليئة بالوقائع التى تؤكد على أن فروسية العرب المسلمين لم تتجل فى إتقان القتال والمهارة فى الخطط العربية والتكيف مع البيئات الجغرافية التى جاهدوا فيها، والبراعة فى استخدام الأسلحة والتشكيلات القتالية المناسبة فحسب، وإنما أيضا فى القيم الأخلاقية التى صاغت سلوكهم، مع أعدائهم وأصدقائهم على السواء، والتى كانت بالتالى تعبيرا عن روح الإسلام ورسالته.

ثانيا: إن إشراف الخلفاء، سواء فى المدينة أو فى دمشق فيما بعد، إشرافا مباشرا على سير حركة الفتوحات، قد عزز من قوة الفاتحين وانعكس على حسن تنظيم الحركة وأداتها. قد حرص الخلفاء حرصا شديدا على تزويد أمراء الجيش وقادته بتعليمات ووصايا، كما سنرى، تشتمل على المبادئ التى ينبغى الالتزام بها فى تعاملهم مع البلاد المفتوحة وسكانها، وعلى متابعة أخبار الفتوحات يوما بيوم وتلبية كل ما يطلبه أمراء الجيش منهم من استشارات ومساعدات، لحل ما كان يعترضهم من مشكلات.

وكان أمراء الجيش من جهتهم يحرصون على إبلاغ الخلفاء ، تدريجيا عن كل ما ينجزونه، من ناحية، وعلى استئذانهم على ماهم قادمون عليه من خطوات

من ناحية أخرى. إن هذا الإشراف المركزى كان عاملا مهما فى توجيه حركة الفتوحات الوجهة الصحيحة وتجنبيها الأخطاء التى يمكن أن تسفر عن اتخاذ قرارات أو إجراءات فردية رغير مدروسة.

ثالثا : تؤكد المصادر التاريخية على أن أكثرية سكان البلاد المفتوحة قد وقفت موقفا إيجابيا من الفاتحين العرب المسلمين، ورحبت بالفاتحين ترحيبا حارا، ولعل ذلك يعود إلى مسألتين أساسيتين، الأولى : القرابة التاريخية بين سكان البلاد المفتوحة والفاتحين العرب المسلمين، فأهالى الرافدين والشام، مثلا، يعودون فى أصولهم التاريخية إلى الهجرات التى انطلقت تباعا من شبه الجزيرة العربية منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، واستوطنت تدريجيا تلك الأقاليم.

والمسألة الثانية : هى أن سكان البلاد المفتوحة قد نظروا إلى الفاتحين العرب المسلمين بوصفهم محررين لهم مما كانوا يعانون على أيدى البيزنطيين والفرس، من اضطهادات دينية واقتصادية وسياسية. فمن المعروف أن معظم سكان الأقاليم التى كانت تخضع للبزنطيين، مثل الشام ومصر...، كانوا يعتنقون المسيحية على مذاهب تختلف عن المذهب الرسمى للدولة البيزنطية، كالنساطرة واليعاقبة وغيرهما.

وقد حاول الأباطرة البيزنطيون مرارا فرض المذهب الرسمى على سكان الأقاليم عنوة ولكنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا، وكذلك الحال بالنسبة إلى الشعوب التى كانت تخضع للدولة الفارسية. حيث اعتنقت ديانات وعقائد متعددة (كاليهودية والمسيحية والمانوية...)، وهى تختلف عن الديانة الرسمية للدولة، وهى الزرادشتية.

ورغم أن الدولة حاولت إرغام السكان على اعتناقها، فإنها أخفقت فى ذلك أيما إخفاق. وبالإضافة إلى الاضطهاد الدينى تعرض سكان البلاد المفتوحة إلى أشكال أخرى من الاضطهادات، فالمصادر تتحدث عن الاستبداد السياسى

الذى كان يمارسه الحكام. وعما كان يدب فى جوف هاتين الدولتين من فساد إدارى وانحلال أخلاقى.

وفضلا عن ذلك كله فقد اكتوى السكان بالنظام الضرائبى الذى حطم السكان سواء من حيث حجم الضرائب وتنوعها من ناحية أو أساليب جبايتها من ناحية أخرى، ولهذا كله فقد رحبت هذه الشعوب بالفاتحين المسلمين، أملا فى التمتع بحريتهم وكرامتهم، ولاسيما أن ما حمله الإسلام من مبادئ المساواة والحرية والعدالة.. تَستجيب لأمانى هذه الشعوب المقهورة، وتجعل الإسلام أقرب إلى حياتهم وأحرص على كرامتهم من أرثوذكسية البيزنطيين، وزرادشتية الفرس.

وقد أكد هذه الحقيقة بطريرك إنطاكية اليعقوبى، فى القرن الثانى عشر للميلاد السادس للهجرة، أى بعد خمسة قرون من الفتوحات الإسلامية، عندما كتب يبارك موقف بنى جلدته المسيحيين وترحيبهم بالفاتحين المسلمين، حيث قال: «إن الله سبحانه وتعالى أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخصلنا على أيديهم من قبضة الروم.. ولم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة هؤلاء الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام.

رابعا: كان ضعف الدولتين، الفارسية والبيزنطية، من العوامل المساعدة على انتصار العرب المسلمين. فمن المؤكد أن هاتين الدولتين كانتا تمران، قبيل الفتوحات الإسلامية، بمرحلة من الضعف بسبب الحروب المزمنة التى دارت بينهما من ناحية والانحلال الذى دب فى أحوالهما الداخلية من ناحية أخرى.

ومع أن بيزنطية كانت قد خرجت من هذه الحرب منتصرة عام ٦٢٨م إلا أنها كانت منهكة، سياسيا واقتصاديا وعسكريا فضلا عن الانقسامات الدينية الدائرة فى جوفها، بحيث لم تتمكن من الصمود طويلا فى وجه الفاتحين

المسلمين. وعلى الرغم من أهمية هذا العامل فإنه ينبغى ألا نجارى الكثير من الباحثين ولا سيما المستشرقين منهم فى المبالغة بدور هذا العامل فى حركة الفتوحات،

وذلك لأن القوات العسكرية لكل من فارس وبيزنطة كانت تفوق فى أعدادها ما كانت عليه القوات العربية الإسلامية بعشرات المرات، كما كانت الإمكانات الاقتصادية وكميات الأسلحة المتوافرة عند كل منهما تفوق إمكانات الدولة الإسلامية الناشئة،

هذا بالإضافة إلى أن جيوش كل من الدولتين كانت تقاتل فى مناخات اعتادت عليها، وعلى دراية بجغرافية المناطق التى كانت تدور فيها المعارك أكثر من العرب المسلمين..، وعلاوة على ذلك كله، فقد دارت معارك طاحنة بين الفاتحين وكل من دولتى فارس وبيزنطة وانتصر الفاتحون فيها على الرغم من التفوق المادى الذى كان يتمتع به أعداؤهم.

الفتوحات وسماتها:

إن الدارس لحركة الفتوحات العربية الإسلامية، فى المشرق والمغرب، يدرك أنها انفردت بسمات تميزها عن غيرها ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أولا: احترام الفاتحين المسلمين للبلاد المفتوحة، أرضا وشعبا، فلم ترافق حركة الفتوحات أى أعمال تخريب أو نهب، ولم نقرأ أن مدينة أو قرية أو مزرعة تعرضت إلى أعمال من هذا القبيل، فقد التزم الفاتحون، وعلى كل الجبهات، بوصايا الخلفاء وفى مقدمتها وصية الخليفة أبى بكر الصديق لأسامة بن زيد عندما بعثه فى مستهل خلافته على رأس حملة إلى مشارق الشام،

حيث أوصاه « لاتخونو، ولا تغدروا، ولا تغلو، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة

مثمره ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا وسوف تمرون بأقوام فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم إليه »

هل قرأ أحد في التاريخ الإنساني، قديمه ووسيطه وحديثه، أن ملكا أوصى رجاله بمثل هذه الوصية؟ إن هذه الوصية تدل على مدى حرص الخليفة على تحلى الفاتحين المسلمين بالقيم الأخلاقية في تعاملهم لا مع الإنسان فحسب وإنما مع الثروة الزراعية والحيوانية أيضا

وغدا مضمون هذه الوصية دستورا للفاتحين المسلمين في كل مكان، بل أصبح السلوك الحضارى لهؤلاء الفاتحين عنصر جذب لسكان البلاد لاعتناق الإسلام

ثانيا يعد التسامح الديني من أبرز سمات الفتوحات الإسلامية، فقد احترم الفاتحون المسلمون عقائد سكان البلاد المفتوحة، ومنحوهم اطمئنانا روحيا، ولم يفرضوا الإسلام على أحد، فالاضطهاد الديني يخالف مبادئ الإسلام، ولم يذكر التاريخ أن المسلمين اضطهدوا أحدا كما حدث في أوربا في العصور الوسطى، والقرآن الكريم نص صراحة على أنه

﴿ لا إكراه في الدين ، قدتبين الرشد من الغي ﴾

وقال سبحانه وتعالى مخاطبا الرسول ﷺ ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾

وقد أكدت معاهدات الصلح التي وقعت بين الفاتحين وسكان البلاد على أن المسلمين كانوا يخيرون أهالي البلاد المفتوحة بين أمور ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب فمن اعتنق الإسلام منهم صار لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات ومن بقى من هؤلاء على دينهم فقد

أصبحوا فى ذمة المسلمين، حيث تمتعوا بحريتهم الدينية وحماية أرواحهم وأملاكهم، وذلك مقابل دفع الجزية.

وعلى الرغم من تواضع مقدار هذه الجزية فقد تم إعفاء فئات كثيرة منها، مثل : الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى والمقعدين والعميان وغيرهم. وإزاء هذا التسامح لم يكن مستغربا أن ينجذب سكان البلاد المفتوحة إلى الإسلام طوعا، خاصة بعد أن لمسوا عمليا التزام المسلمين بسياسة التسامح الدينى هذه، حتى أن الذين ظلوا على دينهم أسهموا بدورهم فى خدمة الدولة العربية الإسلامية الناشئة بما كانوا يتمتعون به من إمكانات إدارية واقتصادية وفكرية.

ثالثا : اتخذ الفاتحون المسلمون موقفا إيجابيا من الحياة المدنية. وقد تجلى ذلك فى :

أ- حافظ العرب المسلمون على المدن التى كان قد أنشأها الحكام الأجانب فى المشرق، من إغريق ورومان، وأبقوا لهذه المدن أسماءها، احتراما منهم للحضارات السابقة مثل : إنطاكية وأفاميه وطرابلس ونابلس .

ب- أعاد الفاتحون العرب المسلمون للمدن القديمة أسماءها الأصلية بعد أن كان الحكام الأجانب قد أطلقوا عليها أسماء إغريقية أو رومانية. فقد عادت عمان، مثلا، إلى اسمها بعد أن كان قد تحول إلى «فيلادلفية»، وعادت بعلبك إلى اسمها بعد أن أطلق عليها الإغريق اسم «هليوبوليس».

جـ- أنشأ الفاتحون العرب المسلمون مدنا جديدة فى مشرق الوطن العربى ومغربه، والفتح مازال فى مطالعه الأولى، ولا تزال هذه المدن إلى اليوم مثل : البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان.

نتائج مهمة :

من الصعوبة تقديم إجابة وافية حول هذا الموضوع فى عجالة[1] كهذه، ولكن يمكن الإشارة بإيجاز إلى بعض هذه النتائج :

أولا بالنسبة إلى العرب المسلمين، فقد تعددت نتائج الفتوحات العربية الإسلامية وتنوعت أشكالها وصورها، منها

١- من الناحية السياسية: فقد ترتب على الفتوحات قيام دولة عربية إسلامية تضاهى إمبراطورية الرومان وهى فى أوج قوتها واتساعها، دولة امتدت من الأطلسى وحدود غاليا (فرنسا) غربا إلى حدود الصين شرقا، ومن جبال الأورال شمالا إلى السودان جنوبا

وقد مهدت هذه الوحدة السياسية الطريق كى يبلغ العرب المسلمون شأنا سياسيا عالميا، وليسهموا فى بناء الحضارة الإنسانية.

وكان الخليفة يمثل رمزا لوحدة العالم الإسلامى، وحلت القوانين والنظم الإسلامية، تدريجيا، عما كان معمولا به من قوانين ونظم بيزنطية وفارسية، فى إدارات الدولة ومؤسساتها على اختلاف أنواعها ووظائفها.

٢- من الناحية الدينية : انتشر الإسلام انتشارا واسعا وعفويا بين سكان البلاد المفتوحة، بحيث شمل كل أقاليم الدولة الفارسية السابقة والأقاليم التى كانت تحت الحكم البيزنطى مثل : الشام ومصر وشمال إفريقيا، فضلا عن الأندلس التى كانت تحت الحكم القوطى

ويقارن بعض الباحثين، أمثال بيرين، بين فتح الجرمان للعالم الرومانى والفتوحات العربية الإسلامية ويقول : «عندما انتصر الجرمان على الرومان فى

(١) فى الأصل مقالة

القرن الخامس الميلادى فإن الجرمانى (المنتصر) هو الذى انجذب تلقائيا إلى الرومانى (المغلوب) وتخلى تدريجيا عن «جرمانيته» و«ترومن» لأنه لم يكن يحمل دينا أو ثقافة ليواجه بها مسيحية الرومان وحضاراتهم.

أما بالنسبة إلى العرب المسلمين (المنتصرين) فإن سكان البلاد المفتوحة هم الذين انجذبوا إلى الفاتحين المسلمين واستعربوا لأن الفاتحين كانوا يحملون عقيدة جديدة ومبادئ حضارة وليدة، أى أخذت هذه الشعوب تعتنق دين الفاتحين المسلمين وتتعلم لغتهم العربية، دون استخدام البعثات التبشيرية أو ممارسة أى شكل من أشكال الضغط.

وتؤكد المصادر أن كثيرا من سكان البلاد، الذين اعتنقوا الإسلام، أسهموا فى المراحل التالية لحركة الفتوحات الإسلامية إسهاما فعالا. أما الجماعات التى بقيت على ديانتها السابقة فقد دفعت الجزية - كما أشرنا- وتمتعت بحماية الدولة العربية الإسلامية.

٣- من الناحية الثقافية : أما النتائج الثقافية للفتوحات العربية الإسلامية فقد تجلت بما يلى :

إحلال تدريجى :

أولا : التعريب :حيث انتشرت اللغة العربية فى جميع الأقاليم المفتوحة وحلت تدريجيا محل اللغات الأجنبية الرسمية التى فرضتها الدول السابقة من ناحية ومحل اللغات الوطنية، التى كان يتحدث بها سكان البلاد المفتوحة من ناحية أخرى. وقد ساعد اللغة العربية على هذا الانتشار بعض العوامل منها:

١- انتشار الإسلام أسهم إسهاما مباشرا فى انتشار العربية، فهى لغة القرآن الكريم، وكان على كل مسلم أن يتعلم العربية كى يفهم كتاب الله ويقوم بواجباته الدينية، بل يمكن القول إن الإسلام والعربية سارا جنبا إلى جنب وأسهما فى تحطيم الحواجز التى تفصل الفاتحين عن السكان الأصليين

٢- كانت العربية لغة الفاتحين والدولة العربية الإسلامية الناشئة وغدت لغة الدواوين بعد أن تم تعريبها على أيدى الأمويين، ولهذا كان كل من يتعامل مع الدولة أن يتعلم لغتها

٣- إن القرابة اللغوية بين اللغة العربية واللغات التى كانت سائدة بين سكان البلاد المفتوحة، لا سيما فى بلاد ما بين النهرين والشام قبل الفتوحات، كالآرامية والسريانية (وهى أحد فروع الآرامية)، ساعدت هؤلاء على تعلم العربية بسهولة ويسر

٤- لم تترك اللغات الرسمية التى فرضها الحكام الأجانب قبل الفتوحات الإسلامية أثرا عميقا بين أوساط الشعوب بل ظلت أجنبية بعيدة عن عواطفهم، ولهذا خرجت هذه اللغات بخروج أصحابها، وحلت العربية محلها: حيث حلت محل الفارسية (الفهلوية فى الأقاليم التى كان يحكمها الفرس، ومحل اليونانية فى الأقاليم التى كانت تحكمها بيزنطة ومحل اللاتينية فى الأندلس).

٥- غدت اللغة العربية لغة التبادل التجارى، داخل العالم الإسلامى وفى الأسواق الدولية، لاسيما بعد سك النقد الإسلامى (الدينار الذهبى والدرهم الفضى)، فى أواسط العصر الأموى

٦- أصبحت اللغة العربية، منذ عصر الفتوحات ، لغة الفكر والأدب والعلم، ومن ثم جاءت حركة الترجمة من اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية.

ثانيا: إن المراكز الرئيسية الموجهة للحياة الفكرية قبل الإسلام غدت بعد الفتوحات، تقع فى داخل الدولة العربية الإسلامية، مثل المدارس الفلسفية والعملية فى الاسكندرية وانطاكية وحران والرها وجنيسابور وغيرها. وكان يشرف على بعضها علماء من النساطرة وعلى بعضها الآخر علماء من اليعاقبة والصابئة

ولم يمس العرب المسلمون هذه المدارس بسوء، بل حافظوا عليها ورعوا علماءها، الذين انتقل معظمهم، فيما بعد، إلى المدن والعواصم الإسلامية، كبغداد، ولعبوا دورا مهما فى حركة الترجمة من اليونانية والسريانية والفارسية إلى العربية، كما أسهموا فى تطور الكثير من فروع العلم والمعرفة فى الحضارة العربية الإسلامية.

٤- أما من الناحية الاقتصادية: فقد أدت الفتوحات الإسلامية إلى

١- خلق عالم اقتصادى جديد توحدت فيه مناطق اقتصادية كبيرة، مثل منطقة حوض المحيط الهندى ومنطقة حوض البحر المتوسط، حيث كانت هاتان المنطقتان، قبل الإسلام، تشكلان عالمين متصارعين، العالم الفارسى والعالم البيزنطى،

وقامت فى كل منهما نظم اقتصادية ومالية تختلف عن الأخرى، ونجحت الفتوحات الإسلامية فى توحيدهما، حيث ألغيت الثانية فى النظم والنقد، وسادت فيهما نظم ومؤسسات اقتصادية إسلامية واحدة وعملة إسلامية واحدة (وهى الدينار والدرهم الإسلاميين)، ولغة تجارية واحدة وهى اللغة العربية.

٢- أدت الفتوحات الإسلامية إلى جعل معظم التجارة العالمية آنذاك بأيدى العرب المسلمين أو تحت رحمتهم : فقد غدا البحر المتوسط، ولا سيما بعد فتح صقلية، (بحيرة إسلامية)، فمن كان يمتلك هذا البحر يتحكم باقتصاديات قارات العالم القدم الثلاث.

كما لم يعد البحر الأحمر والخليج العربى خصمين متنافسين، الأول تحت رحمة بيزنطة والآخر تحت رحمة الفرس، بل أصبحا طريقين متعاونين فى ظل الدولة الإسلامية.

ونتيجة لذلك كله، فقد أمسك المسلمون بالتجارة الشرقية، البرية منها

والبحرية، بحيث لم يعد بإمكان الغرب الحصول على سلع الشرق ومتاجره إلا بواسطة المسلمين، سواء أكان منها ما يتعلق بالحرير الصينى والتوابل الهندية...إلخ ، من ناحية، أو ما يتعلق منها بمنتجات فارس والشام ومصر، من ورق البردى وزيت الزيتون والمنسوجات... إلخ، من ناحية أخرى .

٣- مهدت الفتوحات الإسلامية إلى ازدهار الدولة العربية والإسلامية، هذا الإزدهار الذى شكل بدوره عاملا مهما فى بناء الحضارة العربية الإسلامية وتقدمها.

وصفوة القول : كانت الفتوحات العربية من أهم الأحداث التى وجهت حركة التاريخ.. لما انفردت به عن غيرها، لا من حيث أهدافها وطبيعتها وسماتها فحسب، وإنما من حيث نتائجها أيضا. كما وضعت هذه الفتوحات أسس حضارة جديدة احتلت مكانة متميزة فى تاريخ الحضارة الإنسانية، وشكلت نبعا ثريا للحضارة الحديثة.

تابع الفهرس

تابع الفهرس

الموضـوعـات	صفحة

تابع الفهرس

تابع الفهرس

الموضـوعـات	صفحة

تابع الفهرس

تابع الفهرس

الموضوعات	صفحة

تابع الفهرس

تابع الفهرس